كافكا

المفقود أو أمِريكا

ترجمة: د. نبيل الحفار

منشورات تكوين | مريا
TAKWEEN PUBLISHING

المفقود أو أمِريكا

فرانتس كافكا

رواية

ترجمها عن الألمانية

د. نبيل الحفار

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

دار الرافدين

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw
www.takweenkw.com @takweenKw

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق – المزة / ص ب: /9838/
هاتف - فاكس: 56 38 613 11 00963+
جوال: 87 51 719 55 971+

addar@mamdouhadwan.net Adwan.Publishing.House
www. mamdouhadwan.net @twitter.com/AdwanPH

دار الرافدين

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045

مقدمة

كتب كافكا هذه الرواية قبيل الحرب العالمية الأولى، وذلك بين ١٩١٢ – ١٩١٤، على مراحل تخللها تأليف أعمال أخرى، لكنه لم يكملها إلى خاتمتها، التي خطط لها في ذهنه ونوَّه إليها سواء في إحدى رسائله أو في حديث مع صديقه الأقرب ماكس برود، الذي أشرف بعد موت المؤلف على نشر جميع أعماله، رغم وصيته الصريحة بإتلافها. لذلك بقيت الشذرات الثلاث الأخيرة دون ربطٍ وشيج بالفصول السبعة السابقة. ورغم أن كافكا في جميع إشاراته إلى هذا المشروع التأليفي كان يذكره بعنوان «المفقود»، ارتأى ماكس برود عند نشره أول مرة في عام ١٩٢٧ أن يضع له عنوان «أمريكا»، ربما اعتمادًا على أن كافكا قد وصفه مرة في يومياته بـ (الرواية الأمريكية) وربما لأن الأحداث بمجملها تدور في الولايات المتحدة الأمريكية. وبقي عنوان برود ساري المفعول على جميع الطبعات اللاحقة، حتى صدور الطبعة المحققة علميًا على مخطوطات اليد للأعمال الكاملة في ثمانينات القرن العشرين في ألمانيا الاتحادية.

إن ما يلفت النظر في هذه الرواية تحديدًا بين أعمال كافكا الأخرى، هو أنه يحرك شخصياته في (العالم الجديد، في بلد الإمكانيات اللامحدودة)، علمًا بأنه لم يزر أمريكا، لا قبل كتابة الرواية ولا بعدها، كما لم يسبق له أن ركب سفينة من نوع (عابرة المحيطات)، التي تقع في واحدة منها أحداث الفصل الأول كله، ولم يسكن أو يتواجد في ناطحة سحاب. وبالتالي كان كافكا في وصفه الأجواء الخارجية التي تتحرك فيها شخصياته في هذا العمل معتمدًا على نحو كلي على المراجع بمختلف أنواعها، من كتب الرحلات والكتب المصورة والمذكرات والتقارير الصحفية والأفلام السينمائية والمرويات الشفاهية، المتعلقة بالولايات المتحدة الأمريكية. والمعروف عن كافكا شغفه بأدب الرحلات وبالأفلام السينمائية (الصامتة حينذاك). يضاف إلى ذلك هجرة عدد من أقاربه إلى مدن مختلفة في

أمريكا وتحقيقهم نجاحات متباينة الدرجات هناك، وقد كانت رسائلهم مليئة بأخبار البلد وأهله.

قال كافكا في يومياته عام ١٩١١ ما معناه إنه يخطط لرواية عن أمريكا، يستوحي فيها خطى تشارلز ديكنز في «ديڤيد كوبرفيلد»، وكان آنئذ يقرأ أعماله. ولكن منذ الجملة الأولى في روايته «المفقود» اختلف الطرح الفكري وكذلك سمات الشخصيات. إذ قال: «كان كارل روسْمَن ذو الستة عشر عامًا، الذي أبعده والداه المسكينان إلى أمريكا، لأن خادمة أغوته وأنجبت منه طفلًا، واقفًا على سطح السفينة، التي تباطأت سرعتها وهي تدخل ميناء نيويورك، فرأى أن تمثال إلهة الحرية، الذي سبق أن تابعه بنظره منذ مدة، وكأن أشعة الشمس قد اشتدت فجأة في إضاءته، وكأن ذراع التمثال ذات السيف قد ارتفعت عاليًا في اللحظات الأخيرة، فيما تلفها ريحٌ طلقة».

لقد اغْتُصِبَت يفاعته من قِبل خادمة/طاهية، فصار أبًا وهو لم ينه المدرسة المتوسطة بعد، وأبعده والداه المسكينان إلى أمريكا للتخلص من الورطة، وعلى أمل أن يتدبر أموره في بلد الفرص المتاحة، ولكن دون أن يعرف أحداً هناك ودون أن يعرف لغة البلد المجهول. فكان أول منظر تراءت له رؤيته هناك هو السيف المشْرَع، وليس مشعل التنوير. ومع تتالي الفصول والأحداث يجري استعراض لبعض جوانب الحياة في المجتمع الصناعي الأمريكي بما يُبرِز الضخامة والتطور والسرعة في الأبنية والطرقات والمعامل ووسائط النقل. وفي الوقت نفسه يتعرف القارئ على عينات بشرية من مختلف البيآت الاجتماعية، من أصحاب البنوك ورجال الأعمال إلى صغار المستخدمين والمتشردين. وفي هذا السياق تظهر جوانب شخصية كارل روسمَن وأسلوب تعامله مع من حوله، إضافة إلى أفكاره عن نفسه وعن المستقبل الذي يطمح إليه. لكن تطوره ينحدر تدريجيًا من فصل إلى آخر، متعرضًا كل مرة إلى نوع من عقاب عن أفعال لم يكن مذنبًا فيها. إنه إنسان بريء نقي السريرة يقوم بعمله على خير وجه، لكن الظروف المعيشية المحيطة به تهصره في غياب كامل لمفهوم العدالة. تمامًا مثلما حدث مع سائر شخصيات كافكا في أعماله الأخرى.

أما الفصل الأخير هنا بعنوان «مسرح أوكلاهوما الطبيعي»، الذي وضعه ماكس برود بعد عثوره عليه بين أوراق أخرى، فإنه ينطوي على عدة إشارات يستنتج منها القارئ وجود نقص، كما في حالة ظهور الصديقة فانّي القديمة من دون مقدمات. كما أن مؤسسة مسرح أوكلاهوما التي يمكنها توفير عمل للجميع، والتي لا حدود لإمكاناتها، فيمكن فهمها بمنزلة كناية عن الموت، الذي يشمل الجميع بلا استثناء. وهناك إشارة في اليوميات إلى أن كارل روسمن سيلاقي ميتة مفاجئة.

إن دراسة كافكا الحقوق حتى حصوله على درجة الدكتوراة، ومن ثم عمله مستشارًا قانونيًا في شركة كبيرة للتأمين، تركت تأثيرًا كبيرًا جدًا في تكوين أسلوبه اللغوي في الكتابة الأدبية. إذ يتصف أسلوبه بالبساطة والوضوح وبالميل غالبًا إلى الجمل ذات التركيب البسيط، غير المتداخل، بعيدًا كليًا عن الترصيع والتزيين والمحسنات البديعية في الفقرات الوصفية. بمعنى أنه يرسم مشهده بقلم الرصاص بخطوط تأسيسية واضحة تعطي التفاصيل حقها وقيمتها، ويترك عملية التلوين لخيال القارئ. أما في المشاهد الحوارية، وهي مهيمنة في صلب بنيته السردية، فإنه يلجأ غالبًا إلى الجمل القصيرة، ولاسيما عندما تتسم الحالة بالتوتر أو بتقديم معلومات. ويلجأ إلى الجمل المركبة الطويلة في حالات التأمل والتحليل.

(١) الوقّاد

كان كارل روسْمَن ذو الستة عشر ربيعًا، الذي أبعده والداه المسكينان إلى أمريكا، لأن خادمة أغوته وأنجبت منه طفلًا، واقفًا على سطح السفينة، التي تباطأت سرعتها وهي تدخل ميناء نيويورك، فرأى أن تمثال إلهة الحرية، الذي سبق أن تابعه بنظره منذ مدة، وكأن أشعة الشمس قد اشتدت فجأة في إضاءته، وكأن ذراع التمثال ذات السيف قد ارتفعت عاليًا في اللحظات الأخيرة، فيما تلفها ريحٌ طلقة.

«يا لهذا العلو!» قال في نفسه، ولمّا لم تخطر فكرةُ مغادرة السفينة في باله إطلاقًا، فإن حشد حاملي الأمتعة المتزايد باطراد والذي يمر به متجاوزًا إياه، قد أخذ يدفعه تدريجيًا حتى حافة سطح السفينة.

ثمة شاب كان قد تعرف عليه بشكل عابر خلال الرحلة، قال له وهو يتجاوزه: «ألا رغبة لديك بعدْ في مغادرة السفينة؟»، فأجابه كارل ضاحكًا: «أنا جاهز»، وتعبيرًا عن معنوياته العالية ولأنه كان قوي البنية، رفع حقيبته على كتفه. وبما أنه تابع بنظره الشاب المبتعد مع الآخرين وهو يطوِّح بعصاه قليلًا أثناء سيره، لاحظ بجزع أنه قد نسي مظلته الخاصة تحت، في أسفل السفينة. وبسرعة رجا الشاب، الذي لم يبدُ سعيدًا بذلك، أن يتعطف وينتظر لحظة إلى جانب حقيبته. عاين وضع المكان، كي يجد طريقه الصحيح عند العودة، وانطلق مسرعًا. عندما وصل إلى الأسفل وجد لأسفه الشديد، أن الممر الجديد بتقصير عبوره جدًا، مقفلًا لأول مرة، الأمر المتعلق على الأرجح بتوجيه الركاب كافة نحو البر، ما اضطره إلى نزول سلالم متتالية عبر دهاليز دائمةِ الانعطاف مرورًا بغرفٍ ذات طاولة وحيدة مهجورة، بحثًا بجهد جهيد عن مبتغاه، إلى أن ضاع تمامًا وكليًا، لأنه لم يمر من هذا الطريق إلا مرة أو اثنتين وبصحبة مجموعة كبيرة دائمًا. ونتيجة شعوره بالعجز ولأنه لم يصادف أي إنسان ولم يسمع باستمرار سوى صوت آلاف الأقدام الزاحفة فوقه، إضافة إلى

آخر نفحات الآلات المتوقفة، التي تناهت إليه من البعيد، أخذ دون تفكير يخبط على باب، لا على التعيين، توقف أمامه في توهانه.

«إنه مفتوح»، جاءه الصوت من الداخل، وفتح كارل الباب بارتياحٍ صادق. «لماذا تخبط على الباب بهذا الجنون؟» سأله رجل عملاق وهو يكاد لا ينظر نحوه. عبر كوة نورٍ علوية سقط في القمرة البائسة نور شاحب من كثرة استهلاكه في أعلى السفينة. كان في القمرة سرير وخزانة وكرسي بظهر وذراعين والرجل، مصطفين لصق بعضهم بعضا كما في حالة تخزين أثاث. «لقد تهت»، قال كارل، «خلال الرحلة لم أنتبه للأمر تمامًا، لكنها سفينة ضخمة بشكل مرعب». – «نعم، بهذه معك حق»، قال الرجل بشيء من الاعتزاز دون أن يتوقف عن العبث بقفل حقيبة صغيرة، فيضغطه بكلتا يديه المرة تلو الأخرى ليسمع طقة القفل. «ولكن تفضل ادخل!» تابع الرجل، «لن تبقى واقفًا في الخارج!» – «ألا أزعجك؟» سأله كارل. «أي إزعاج يا رجل!» – «هل أنت ألماني؟» سأله كارل ليُطمئن نفسه، فقد سمع الكثير عن الأخطار التي تهدد القادمين الجدد إلى أمريكا ولاسيما من طرف الإيرلنديين. «نعم، أنا ألماني»، أجابه الرجل. بقي كارل مترددًا. فجأة أمسك الرجل أكرة الباب وسحب كارل إليه مع الباب الذي أغلقه بسرعة وقال: «لا أتحمل أن ينظر أحد إليَّ من الممر»، وتابع العبث بالحقيبة، «كل مَن يمر من هناك يتطفل عليَّ بنظراته، وأنا عليَّ تحمل كل مَن هبَّ ودب!» –«لكن الممر خاو تمامًا»، قال كارل، الذي وقف محشورًا بشكل مزعج عند قائمة السرير. «الآن، نعم»، قال الرجل. ففكر كارل: «لكن الأمر يتعلق بالآن. يصعب الحوار مع هذا الرجل». -«لماذا لا تستلقي على السرير، ستجد متسعًا أكبر»، قال الرجل. زحف كارل فوق السرير ما أمكنه، وضحك بصوت عال من محاولته الأولى غير المجدية للقفز إلى السرير. لكنه ما إنْ صار على السرير حتى صاح: «يا إلهي، نسيت موضوع حقيبتي كليًا!» –«أين هي الآن؟» –«فوق، على سطح السفينة، أحد معارفي يحرسها. ولكن ما كان اسمه؟» وسحب من الجيب السري، الذي خاطته له أمه على بطانة جاكيته خصيصًا للرحلة، بطاقة زيارة وقرأ «بوتَرْباوم، فرانتس بوترباوم». –«هل أنت بحاجة ماسة إلى الحقيبة؟» –«طبعًا». –«إذن لماذا تركتها مع رجل غريب؟» –«نسيت مظلتي تحت وأسرعت لأحضرها، لكني لم أرِد أن

أجرجر الحقيبة معي. وفوق ذلك تهت هنا». –«هل أنت وحدك، ألست برفقة أحد؟» –«نعم، وحدي». وخطر في باله بسرعة: «ربما يجدر بي التمسك بهذا الرجل، وإلا أين سأجد الآن رفيقاً أفضل». -«وفوق ذلك فقدتَ الآن حقيبتك. وأنا لم أذكر المظلة إطلاقًا». جلس الرجل على الكرسي، وكأن قضية كارل قد لاقت اهتمامًا خاصًا لديه. فقال كارل: «لكني أعتقد أن الحقيبة لم تضِع بعد». – «الاعتقاد يجلب الطمأنينة»، قال الرجل وحكَّ بشدة فروة رأسه ذات الشعر الداكن الكثيف والقصير، وتابع: «على متن السفينة تتبدل الأخلاق حسب ميناء الرسو. في هامبورغ مثلاً ربما كان بوتترباوم سيحرس حقيبتك، أما هنا فالأرجح أن كليهما قد اختفى الآن». –«إذن لابد من أن أصعد إلى السطح فوراً لأرى»، قال كارل وتلفت حوله بحثًا عن طريقة للخروج من القمرة. «ابق هنا الآن»، قال الرجل ودفعه بيده في صدره بشيء من الخشونة إلى السرير. «ولماذا؟» سأله كارل منزعجًا. «لأنه لا فائدة منه. بعد برهة قصيرة سأغادر أنا أيضاً، وعندئذ سنذهب معًا. إذا كانت الحقيبة مسروقة فما من حل. وإذا كان بوترباوم قد تركها في مكانها فسنعثر عليها على نحو أفضل عندما تخلو السفينة تمامًا، وعلى مظلتك أيضاً». –«هل تعرف السفينة جيدًا؟» سأله كارل مرتابًا، وبدت له فكرة العثور على أغراضه بصورة أفضل عندما تخلو السفينة، تعاني من عيب خفي، رغم أنها مقنعة عمومًا. «طبعًا، فأنا وقّاد السفينة»، قال الرجل. «أنت وقاد السفينة!» صاح كارل بفرح، وكأن هذا يفوق كل التوقعات، ثم اتكأ على مرفقيه ودقق النظر في الرجل وقال: «بجانب القمرة التي كنت أنام فيها مع السلوفاكي، هناك كوة يمكن للمرء عبرها أن يرى قاعة الآلات». –«نعم، هناك كنت أشتغل»، قال الوقاد. «كنتُ دائمًا ميالًا إلى التقنيات»، قال كارل الذي بقي في مسار تفكير محدد، «ومن المؤكد أني كنت سأصير مهندسًا لاحقًا، لو لم أضطر إلى السفر إلى أمريكا». –«وما الذي اضطرك إلى السفر؟» –«دعك من هذا!» قال كارل ورمى القصة كلها جانبًا بحركة من يده، وهو ينظر إلى الوقاد مبتسمًا، وكأنه يرجوه غض النظر عما لم يبح به له. «لابد من وجود سبب ما»، قال الوقاد، ولم يكن من السهل تبيُّن ما إن كان يطالب بمعرفة الحكاية أم بدفعها عنه. «الآن صار بوسعي أن أصير وقادًا أيضًا»، قال كارل، «بالنسبة إلى والدَيّ بات سيان ماذا سأعمل». –«مكان عملي سيصبح شاغراً» قال الوقاد، ووضع بكامل وعيه بما قاله يديه في جيبي بنطاله شبه الجلدي المتجعد ذي اللون

الحديدي الرمادي، ورمى ساقيه على السرير ليمددهما. ما اضطر كارل للتراجع حتى الجدار، ثم سأله: «هل ستترك السفينة؟» –«نعم، اليوم سنغادرها». –«ولماذا؟ ألم تعد تعجبك؟» –«إنها الظروف، وما يقرِّرُ الأمرَ، ليس دائماً ما إن كان الوضع يعجبك أم لا. وبالمناسبة، أنت محق، الوضع لا يعجبني أيضاً. ثم إنك لا تفكر جادًا في أن تصبح وقادًا، علمًا بأن من أسهل الأمور أن يصبح المرء وقاداً. لكنني لا أنصحك بذلك نهائيًا. إذا كنت في أوروبا قد أردتَ الدراسة، فلماذا لا تفعلها هنا؟ الجامعات الأمريكية أفضل بما لا يقارن من الجامعات الأوروبية». –«هذا ممكن طبعًا»، قال كارل، «لكني لا أملك مالاً كافياً للدراسة. سبق أن قرأت عن شخص اشتغل في متجر نهارًا ودرس ليلًا إلى أن صار دكتورًا وأظنه صار محافظ المدينة أيضًا، لكن هذا يحتاج إلى مثابرة حثيثة، أليس كذلك؟ وأخشى أنها تنقصني. يضاف إلى ذلك أني لم أكن تلميذًا جيدًا في المدرسة، وتركُ المدرسة في واقع الأمر لم يحزّ في نفسي. والمدارس هنا قد تكون أكثر حزماً. أنا تقريبًا لا أعرف الإنجليزية، وبصورة عامة أعتقد أن الناس هنا متحيزون ضد الأجانب». –«هل عرفتَ هذا أيضًا؟ حسنًا، هذا جيد. أنت مَن أبحث عنه. انظر، نحن على متن سفينة ألمانية، تابعة للخط الملاحي بين هامبورغ وأمريكا، فلماذا لا نكون كلنا محض ألمان هنا؟ لماذا كبير الميكانيكيين روماني؟ اسمه شوبال. هذا أمر فعلًا لا يصدَّق. وهذا الكلب الحقير يجور علينا نحن الألمان على سفينة ألمانية! لا تظن..». وانقطع نفَسه فأخذ يُهوِّي بيده، ثم تابع: «أني أشكو حباً بالشكوى. أنا أعرف أن لا تأثير لك في الموضوع، وأنك مجرد فتى مسكين. لكن الوضع رديء جداً!» وضرب بقبضة يده على الطاولة عدة مرات، دون أن يرفع نظره عن قبضته أثناء الضرب. «سبق لي أن اشتغلت في كثير من السفن»، وذكر عشرين اسمًا وراء بعضها بعضا وكأنها كلمة طويلة واحدة، ما أربك كارل جدًا، «ولقد تميزتُ في عملي ونلت المديح، كنت عاملًا على ذوق قباطنتي، إلى درجة أني كنت أستمر في العمل عدة سنوات على متن السفينة الشراعية التجارية نفسها» ونهض واقفاً، كأنما في هذا تكمن ذروة حياته، «أما على متن هذا الصندوق، حيث يجري تنظيم كل شيء بالمسطرة، وحيث النكتة غير مطلوبة، هنا لا أصلح أنا لشيء، هنا أعيق شوبال دائماً عن عمله، هنا أُعتَبَرُ كسولاً جديراً بالطرد وأحصل على أجري من باب الرحمة. هل تفهم هذا؟ أنا لا أفهمه». «لا

يجوز أن تسكت على هذا»، قال كارل منفعلًا، وقد كاد ينسى الشعور بأنه كان في القعر غير الآمن في سفينة على شاطئ بلد يجهله، فإلى هذه الدرجة من الألفة شعر على سرير هذا الوقاد، وتابع: «هل راجعت القبطان؟ هل بحثت عن حقك عنده؟» -«أخ، اسكتْ، والأفضل أن تذهب. لا أريدك أن تبقى هنا. أنت لا تصغي لما أقوله، وتعطيني نصائح. كيف لي أن أذهب إلى القبطان!» وعاود الوقاد الجلوس متعباً ووضع وجهه بين كفيه.

«لا أستطيع أن أقدم له نصيحة أفضل»، قال كارل في نفسه. ووجد بصورة عامة أنه كان من الأجدى لو بحث عن حقيبته، بدلًا من إسداء نصائح هنا، يجدها الآخر غبية. عندما تخلى له والده عن الحقيبة بصورة نهائية، سأله مازحًا: «إلى متى ستحتفظ بها؟» والآن يبدو أن هذه الحقيبة الوفية قد ضاعت حقاً. كان العزاء الوحيد المتبقي، هو أن والده لا يمكن أن يعلم بوضعه الحالي، حتى ولو استقصى عن الأمر. فلن يكون بوسع شركة الملاحة البحرية أن تخبره، سوى أن الحقيبة قد رافقته حتى نيويورك. لكن ما أسف له كارل هو أنه لم يكد يستخدم محتويات الحقيبة، على الرغم من احتياجه إلى ذلك، إلى أن يبدل قميصه مثلاً. لكن توفيره لم يكن في محله الصحيح؛ الآن حيث هو في بداية مسيرته الجديدة بأمس الحاجة للظهور في ثياب نظيفة، سيضطر للظهور بقميصه المتسخ. لولا ذلك لما كانت خسارة الحقيبة فادحة جداً، لأن البدلة التي يرتديها كانت في الواقع أفضل من تلك التي في الحقيبة، والتي تُعد في الحقيقة بدلة طوارئ، اضطرت والدته إلى رتقها قبيل السفر بقليل. وتذكر الآن أيضًا أن في الحقيبة قطعة من لحم السلامي الڤيروني، كانت والدته قد ضمتها إلى الحقيبة كهدية إضافية، ولم يستطع أن يأكل منها إلا جزءًا صغيرًا، لأن شهيته للأكل كانت شبه مفقودة طوال الرحلة، واكتفى تمامًا بالحساء الذي كان يوزع في الدرجة الثالثة. ولكنه كان يتمنى الآن لو كانت قطعة السلامي بمتناول يده، ليُكرِم بها الوقاد. فمثل هؤلاء الناس يمكن كسبهم بسهولة، بإهدائهم أي شيء بسيط، وكان كارل يعرف ذلك من والده، الذي عن طريق توزيع السيجار، كسب جميع صغار الموظفين، الذين كان يتعامل معهم في أموره التجارية. ولا يملك كارل الآن مما يمكن التكرم به، سوى نقوده، وهذه ما لم يرد أن يمسها مؤقتاً، في حال أنه قد فقد الحقيبة حقاً. عادت أفكاره إلى الحقيبة ثانية، ولم

يجد الآن مبررًا في الحقيقة لحراسته الحقيبة طوال الرحلة بتلك اليقظة، التي كادت تكلفه النوم، ما دام الآن قد تركها للضياع بهذه السهولة. تذكر الليالي الخمس، التي ارتاب خلالها بلا توقف بسلوفاكي قصير، كان ينام بعد مرقدين منه يساراً، بأنه يطمع بالسطو على حقيبته. إذ كان هذا السلوفاكي لا يني يتربص بأن يغفو كارل للحظات بعد أن يدهمه الضعف، كي يتمكن من سحب الحقيبة إليه بعصا طويلة، كان طيلة النهار يلعب بها أو يتمرن. في أثناء النهار كان هذا السلوفاكي يبدو بريئًا، ولكن ما أن يهبط الليل حتى يعتدل في مرقده من حين لآخر ناظرًا بحزن إلى حقيبة كارل. وكان بمقدور كارل تعرُّف هذه النظرات بكل جلاء، فكثيراً ما كان أحد المهاجرين في جواره هنا أو هناك يشعل نوراً صغيراً ليخفف من قلقه، على الرغم من أن تعليمات السفينة تحظر ذلك، بمراجعة المنشورات الغامضة لوكالات الهجرة. فإن اشتعل في جواره نور من هذا القبيل، تمكن كارل من غفوة سريعة، أما إنْ كان النور بعيدًا أو العتمة مهيمنة، فقد كان عليه إبقاء عينيه يقظتين. لقد أنهكه هذا الجهد، ويبدو الآن أنه كان بلا جدوى. وبوتترباوم هذا، إنْ جاء يوم والتقاه فيه في مكان ما، فـ..!

في هذه اللحظة تناهت من الخارج البعيد، وسط الهدوء التام السائد حتى ذاك الحين، خبطات صغيرة قصيرة، كما من قدمي طفل، أخذت تقترب ويشتد وقعها، ثم انقلبت إلى مشية رجال عسكرية متزنة. إنهم يمشون في رتل على ما يبدو، حسبما هو مألوف في الممرات الضيقة، كما سُمعت صلصلة أسلحة. وكارل الذي كان على وشك الاستسلام على السرير إلى نوم متحرر من ضروب قلق الحقيبة والسلوفاكي، انتفض ودفع الوقاد كي يلفت انتباهه أخيرًا، فقد بدا أن مقدمة الموكب قد وصلت إلى الباب. «إنهم موسيقيو السفينة»، قال الوقاد، «كانوا يعزفون على السطح، وهم ذاهبون الآن لحزم متاعهم. الآن انتهى كل شيء ويمكننا أن نذهب. هيا تعال!» أمسك بيد كارل، انتزع في اللحظة الأخيرة صورة ذات إطار للسيدة العذراء عن الجدار فوق السرير، وضعها في جيب صدره، حمل حقيبته وغادر الكابين مع كارل بسرعة.

«سأذهب الآن إلى المكتب وأخبر السادة برأيي. لم يعد هناك أي مسافر، ولا حاجة لمراعاة ذلك». كرر الوقاد قوله هذا بأشكال مختلفة وأراد أثناء المشي وبدعسات جانبية من قدمه أن يعفس جرذًا اعترض طريقه، لكنه عجَّل بدلًا من ذلك في سرعة دخول الجرذ إلى جحره، الذي بلغه في اللحظة المناسبة. فالوقاد بصورة عامة كان بطيء الحركة، على الرغم من امتلاكه ساقين طويلتين، لكنهما كانتا ثقيلتين جداً.

عبرا قسمًا من المطبخ، حيث كانت مجموعة من الفتيات في مآزر متسخة –كن يرششن بعضهن بعضًا عمدًا– ينظفن أدوات الطعام في أحواض كبيرة. نادى الوقاد إحداهن وتُدعى لينِه، أحاط خصرها بذراعه وقادها معه لمسافة قصيرة، فيما كانت تتغنج باستمرار ضاغطة نفسها عليه. «هناك دفع أجور الآن، أتريدين مرافقتي؟» سألها، فأجابته: «ولماذا هذا العناء، الأفضل هو أن تحضِر لي النقود إلى هنا»، وانسلت من تحت ذراعه راكضة وهي تسأل بصوت عال: «أين عثرت على هذا الصبي الجميل؟»، لكنها لم ترغب في انتظار الجواب. سمعا ضحك جميع الفتيات اللواتي قطعن عملهن.

وتابعا طريقهما حتى بلغا بابًا، يعلوه جملون صغير محمول على عمودين مذهبين، منحوتين مثل امرأتين من حاملات السلال الإغريقيات. وباعتباره ديكورًا لسفينة ركاب بدا ذلك تبذيرًا مفرطًا. ولاحظ كارل أنه لم يأت أبدًا إلى هذا القسم، الذي يرجح أنه كان خلال الرحلة مخصصًا لركاب الدرجتين الأولى والثانية، أما الآن قبيل التنظيف الشامل للسفينة فقد رُفعت الأبواب الفاصلة. وقد التقيا فعلًا ببعض الرجال الذين كانوا يحملون مكانس على أكتافهم وألقوا التحية على الوقاد. واندهش كارل من تعدد الخدمات في أسفل السفينة، والذي لم يعرف عنه أي شيء باعتباره من ركاب الدرجة الثالثة. وعلى طول الممرات امتدت أسلاك توصيلات كهربائية، وكان يسمع باستمرار صوت جرس صغير.

قرع الوقاد الباب باحترام، وعند سماعه نداء «ادخل!» طالب كارل بحركة من يده أن يدخل دون خشية. ودخل كارل، لكنه بقي واقفًا عند الباب. ومن خلال نوافذ الغرفة الثلاث رأى أمواج البحر، وعند متابعته حركتها المرحة خفق قلبه، وكأنه لم يكن يرى البحر باستمرار

طوال أيام الرحلة الخمسة. وثمة سفن كبيرة كانت طرقها تتقاطع دون أن تستسلم لاتجاه الموج إلا بقدر ما يسمح به ثقلها. وإذا ضيَّق المرء فتحتي عينيه، كانت هذه السفن تبدو للناظر كما لو أنها تتمايل من ضخامة ثقلها. وهي تحمل على صواريها رايات ضيقة لكنها طويلة، ورغم كونها مشدودة نتيجة السرعة، كانت تتخبط ذات اليمين وذات اليسار. سُمعت طلقات تحية، صادرة على الأرجح من سفن حربية، كانت إحداها عابرة على مسافة غير بعيدة، مشرقة بانعكاسات الشمس على تصفيحها الفولاذي، وبدت سبطانات مدافعها معتادة على المخر الآمن المستقر، وإن لم يكن أفقيًا. وكان بوسع المرء من موقعه عند الباب على الأقل، أن يرى على مسافة أبعد، السفن الأصغر والقوارب وهي تعبر بأعداد كبيرة في الفتحات ما بين السفن الكبيرة. ولكن وراء كل هذا كانت تقف نيويورك وتنظر إلى كارل بمئة ألف نافذة من ناطحات السحاب. نعم، في هذه الغرفة يعرف المرء أين كان.

حول طاولة مستديرة كان يجلس ثلاثة رجال، أحدهم ضابط بحري بزي السفينة الأزرق، والآخران من موظفي المرفأ بالزي الأمريكي الأسود. وكان على الطاولة أكداس عالية من مختلف الوثائق، التي يراجعها الضابط أولًا بسرعة والقلم بيده، ليناولها من ثم للموظفَين، اللذين كانا يقرآن حينًا أو يدونان حينًا آخر، أو يضعان شيئًا منها في محفظتيهما، إن لم يكن أحدهما يملي على زميله شيئًا لتسجيله في المحضر، مُصدرًا بأسنانه خلال ذلك صوتًا مستمرًا خافتًا.

عند النافذة الأولى جلس رجل قصير القامة إلى طاولة مكتبٍ مديرًا ظهره للباب، منشغلًا بدفاتر حسابات كبيرة الحجم مصطفة أمامه على رف كتب متين على ارتفاع رأسه، وإلى جانبه انتصبت خزنة، بدت من النظرة الأولى على الأقل، خاوية.

النافذة الثانية كانت شاغرة، وهي التي تسمح بأفضل إطلالة على البحر. أما قرب النافذة الثالثة فقد وقف سيدان يخوضان في حوار يكاد يكون عالي الصوت. استند أولهما إلى الجدار بجانب النافذة، وكان يرتدي زي السفينة الأزرق أيضًا ويعبث بقبضة سيفه. وشريكه في الحوار كان ملتفتًا إلى النافذة وكان بين الحين والآخر نتيجة تحركه يكشف جزءًا من

صف الأوسمة الذي يزين صدر الأول. وكان يرتدي بدلة مدنية ويحمل عصا نحيفة من الخيزران، وبما أنه كان يسند كلتي يديه على خصره، فقد بدت العصا مثل سيف أيضًا.

لم يكن لدى كارل ما يكفي من الوقت ليشاهد كل شيء، إذ سرعان ما تقدم منهما خادم وسأل الوقاد بنظرةٍ وحسب عمّا يريد، وكأنه لا ينتمي إلى هذا المكان. أجاب الوقاد بمثل خفوت السؤال، إنه يريد التكلم مع السيد كبير المحاسبين. رفض الخادم من جهته هذا الطلب بحركة من يده، إلا أنه رغم ذلك مشى على رؤوس أصابع قدميه، متجنبًا بقوس واسع الاقتراب من الطاولة المستديرة، إلى السيد المنشغل بدفاتر الحسابات الكبيرة. وكاد هذا السيد أن يجمد في مكانه –بدا هذا مرئيًا بجلاء على وجهه– لسماعه كلمات الخادم، لكنه التفت أخيرًا نحو الرجل الذي رغب بمحادثته، ثم لوَّح يده صادًّا بحزم باتجاه الوقاد، ومن باب الاحتياط باتجاه الخادم أيضًا. بناء على ذلك رجع الخادم إلى الوقاد وقال له بلهجة مَن يأتمنه على مسألة: «انقلع من هذه الغرفة فورًا!».

بعد جواب الخادم خفض الوقاد ناظريه إلى كارل، كأنه قلبه، الذي يشكو إليه بلواه. ودون مزيد من التروي انطلق كارل عابراً الغرفة بسرعة، بحيث لامس بشكل طفيف كرسي الضابط، وركض الخادم وراءه محني الظهر بساعدين جاهزين للانقضاض، كمن يطارد حشرة، لكن كارل كان الأسبق إلى طاولة كبير المحاسبين وتمسك بها، احتياطًا لئلا يحاول الخادم جره بعيدًا.

كان من الطبيعي أن تدب الحيوية في الغرفة فورًا. فقفز ضابط السفينة واقفًا عند الطاولة المستديرة، وموظفا الميناء نظرا بقلق لكن بيقظة، والسيدان عند النافذة الثالثة اقتربا من بعضهما بعضا، فيما تراجع الخادم لعدم الحاجة إليه، مادام كبار السادة قد أبدوا اهتمامهم. بقي الوقاد منتظرًا عند الباب بتوفز لحظةَ الحاجة إلى مساعدته. أما كبير المحاسبين فقام أخيرًا بالتفاتة كبيرة إلى اليمين في كرسيه الوثير.

أخرج كارل جواز سفره من جيبه السري، غير آبه بتعريضه إلى أنظار هؤلاء الناس، فتحه ووضعه على الطاولة، عوضًا عن التعريف عن نفسه. لكن الجواز بدا أمراً ثانويًا لكبير

المحاسبين، الذي أبعده عنه بأصبعين جانبًا، فما كان من كارل، الذي اعتبر هذه الحركة بمنزلة الانتهاء من شكليات جواز السفر، إلا أن أعاد الجواز إلى مكانه.

وبدأ كلامه قائلًا: «أسمح لنفسي بأن أقول إن السيد الوقاد من وجهة نظري قد لحق به ظلم. يوجد هنا شخص يدعى شوبال يكيد له. لقد اشتغل في سفن كثيرة يستطيع أن يسميها لكم جميعها، ولاقى عمله تمام الرضا، فهو نشيط ويبغي لعمله الخير، ولهذا من الصعب فعلًا فهم أن يُعتبَر عمله سيئًا، في هذه السفينة تحديدًا، حيث لا تُعد الخدمة أصعب بكثير من الخدمة مثلًا على سفينة تجارية شراعية. إذن، لا يمكن أن يكون الأمر إلا افتراء، يعيق تقدمه ويحرمه من الاستحسان الذي كان يستحقه في ظروف أخرى. أنا لم أذكر سوى العموميات في هذه المسألة، أما شكاياته الخاصة فسيعرضها عليكم بنفسه». لقد وجه كارل كلامه إلى الجميع، لأن الجميع كانوا فعلًا يصغون، ولأن احتمال وجود شخص منصفٍ بين هؤلاء مجتمعين، بدا له أكبر من أن يكون هذا المنصف هو كبير المحاسبين نفسه. إضافة إلى ذلك أخفى كارل بشطارته، أنه لا يعرف الوقاد إلا منذ وقت قصير. والجدير بالذكر هو أن أسلوب كلام كارل كان يُحتمَل أن يكون أفضل بكثير، لو لم يربكه الوجه الأحمر للسيد صاحب عصا الخيزران، الذي رآه لأول مرة من مكان وقوفه الآني.

«كل ما قاله صحيح كلمة بكلمة»، قال الوقاد قبل أن يسأله أحد شيئًا، بل حتى قبل أن يلتفت أحد بنظره إليه. وكان يمكن لتسرع الوقاد أن يُعد خطأ فادحًا، لو لم يكن السيد ذو الأوسمة، والذي أدرك كارل لتوه أنه القبطان، قد قرر في نفسه الإصغاء لشكوى الوقاد. إذ مد يده وخاطب الوقاد قائلًا: «تعال إلي!»، وبصوت ثابت في مواجهة أي صدمة. والآن بات كل شيء متعلقًا بسلوك الوقاد، ولم يكن كارل يشك بعدالة قضيته.

ومن حسن الحظ، تبين في هذه المناسبة أن الوقاد قد جال كثيرًا في أنحاء العالم. فبهدوء نموذجي، أخرج من حقيبته الصغيرة، من المرة الأولى، لفافة صغيرة من الأوراق ودفتر ملاحظات، حملها ومشى بها، كأن الأمر مفروغ منه، متجاهلاً كبير المحاسبين كليًا، متجهًا إلى القبطان وبسط بيّناته على رف النافذة. فلم يبق أمام كبير المحاسبين سوى أن يلحق

به بنفسه، وهو يقول موضحًا: «هذا الرجل مشاكس معروف، إنه يتواجد في غرفة المحاسبة أكثر مما يتواجد في مكان عمله. لقد دفع شوبال الرجلَ المعروف بهدوئه إلى حافة اليأس. اسمعْ أنت!» والتفت إلى الوقاد، «لقد بلغتْ لجاجتك فعلًا حدًا لا يُحتمل. كم من مرة طُرِدت من غرفة المحاسبة، وبكل حقٍ، نتيجة مطالبك غير المبررة جميعها بلا استثناء! وكم من مرة هرعت من هناك إلى الصندوق الرئيسي! وكم من مرة قيل لك بحسن نية، إن شوبال هو رئيسك المباشر، الذي عليك أنت وحدك كمرؤوس أن تتعايش معه! وتتجاسر الآن على القدوم إلى هنا، أثناء وجود القبطان، ولا تخجل من نفسك بإزعاجه، بل ولا تتورع حتى عن أن تجلب معك قائد جوقة الكلام المتدرب الصغير هذا، الذي أراه لأول مرة على متن السفينة، ليدافع عن اتهاماتك الخرقاء!».

ضبط كارل نفسه بشدة كيلا يندفع إلى الأمام. لكن رد فعل القبطان كان حاضرًا، إذ قال: «دعونا نعطي الرجل فرصة ليقول ما لديه. وشوبال هذا يبدو لي على كل حال أنه يستقل بنفسه كثيرًا بمرور الوقت، لكني لا أريد بهذا أن أنحاز إلى جانبك». وكان بجملته الأخيرة يقصد الوقاد، ومن البديهي أنه لا يمكن له فورًا أن يدافع عنه، ولكن بدا أن كل شيء يأخذ مساره الصحيح. بدأ الوقاد بإيضاحاته، متغلبًا على نفسه منذ البداية باستخدامه لقب «السيد» كلما ذكر شوبال. وكم كان كارل مسرورًا عند طاولة كبير المحاسبين المهجورة، حيث كان من شدة سروره يضغط باستمرار على ميزان الرسائل. -السيد شوبال ظالم! السيد شوبال يفضل الأجانب! السيد شوبال أبعد الوقاد من قاعة الآلات وجعله ينظف المراحيض، وهذا بالتأكيد ليس من مهمة الوقاد!– وتم التشكيك مرة واحدة حتى بكفاءة السيد شوبال، وهي مزعومة لا حقيقة لها. عند هذه النقطة حدق كارل بكل قوة في القبطان بألفةٍ وكأنه زميله، وذلك كيلا يؤدي أسلوب تعبير الوقاد غير اللبق إلى التأثير عليه سلبيًا، لاسيما وأن المرء لم يتوصل من كل هذا الكلام الكثير إلى شيء جوهري. ومع أن القبطان مازال ينظر أمامه وفي عينيه كل العزم على الاستماع إلى الوقاد هذه المرة إلى النهاية، لكن صبر السادة الآخرين نفد، ولم يعد صوت الوقاد مهيمنًا وحده في الغرفة، ما ولَّد الخشية من حدوث بعض الأمور. كان أولها أن السيد ذا البدلة المدنية قد أخذ يحرك

عصاه ونقر بها على الأرضية الخشبية، وإن بصوت خافت. فتلفت السادة الآخرون طبعًا هنا وهناك، والسيدان موظفا المرفأ اللذان كانا مستعجلين، عادا لمراجعة الملفات وإن بشيء من شرود الذهن، كما عاود ضابط السفينة الاقتراب من مكتبه، وكبير المحاسبين، الذي ظن أنه قد كسب اللعبة، أطلق تنهيدة ارتياح ساخرة. ولم يبق بمأمن من حالة الشرود العام الطارئة سوى الخادم، الذي تعاطف نوعاً ما مع معاناة الرجل المسكين بين الكبار، وأومأ لكارل جادًا، وكأنه يريد بهذا أن يوضح له شيئًا ما.

في أثناء ذلك تابعت حياة المرفأ مجراها أمام النوافذ، فعبر صندلُ شحن يحمل جبلًا من البراميل، التي كانت مرتبة بطريقة بديعة لا شك، بحيث أنها لم تتدحرج، ناشرًا شبه عتمة في الغرفة؛ وكانت هناك قوارب صغيرة ذات محركات تنطلق في خط مستقيم وفقًا لحركات يدي رجل يقف ممسكًا بالمقود، كان بود كارل أن يراقبها من كثب لو امتلك الوقت لذلك! وثمة طوافات غريبة الأشكال كانت تظهر من نفسها هنا وهناك من المياه المضطربة، لتغمرها المياه بسرعة من جديد فتغيب تحت النظرات المليئة دهشة؛ وكانت قوارب البواخر عابرات المحيط تتقدم حثيثًا بتجديف بحارتها المجهد، ممتلئة بالركاب الجالسين بهدوء وترقب، بنفس الوضعية التي حُشروا فيها، ورغم ذلك لم يستطع بعضهم إلا الالتفات برؤوسهم لمتابعة المشاهد المتغيرة. حركة لا تنتهي، قلق ينتقل من الموضوع المتحرك إلى البشر العاجزين وإلى أعمالهم!

لكن كل شيء كان يوصي بالإسراع، بالإفصاح، بمنتهى الدقة في عرض الموضوع؛ ولكن ما الذي فعله الوقاد؟ لقد اندفع في الكلام حتى تعرّق، ولم يعد قادرًا بيديه المرتعشتين على الإمساك بالأوراق التي سبق أن فردَها على رف النافذة؛ كانت الشكاوى ضد شوبال تتدفق على لسانه من جميع الجهات، وكل واحدة منها برأيه كانت كافية لأن تقبر شوبال نهائيًا، إلا أن ما استطاع تقديمه إلى القبطان لم يكن أكثر من خليط فوضوي بائس من جميعها. مضت مدة على السيد ذي عصا الخيزران وهو يصفر بصوت خافت باتجاه السقف، كما تمسك موظفا المرفأ بالضابط على طاولتهما ولم يبدُ عليهما الاستعداد للتخلي عنه ثانية، في حين أن هدوء القبطان كان العامل الوحيد، حسبما بدا، لمنع كبير المحاسبين من

التدخل، أما الخادم الواقف في وضعية الاستعداد فقد كان متأهبًا في أي لحظة لتلقي أمرٍ من القبطان بشأن الوقاد.

في هذه الحالة لم يعد في وسع كارل البقاء مكتوف اليدين، ولذلك أخذ يقترب من المجموعة ببطء بينما يفكر بسرعة بالطريقة الحاذقة ما أمكن، للإمساك بزمام الأمر. لقد بلغ السيل الزبى فعلًا، ولم يتبق سوى لحظات لقابلية أن يُطردا كلاهما من المكتب. كان جائزًا أن يكون القبطان رجلًا طيبًا حقًا، وكان من المحتمل الآن تحديدًا، حسبما لاح لكارل، أن يكون لديه سبب خاص ليُظهِر نفسه كرئيس عادل، إلا أنه في نهاية المطاف ليس أداة يمكن للمرء التصرف بها كما يشاء، وهكذا كان الوقاد يتعامل معه الآن، وإنْ انطلاقًا من السخط اللامحدود في داخل نفسه.

بناء على ذلك قال كارل للوقاد: «عليك أن تعرض موضوعك بشكل أبسط وأوضح، فبالطريقة التي تحكيها، لن يستطيع السيد القبطان أن يُقدِّر الأمر. فهل هو يعرف الميكانيكيين والسُعاة بأسماء عائلاتهم أو بأسماء عمادهم، لكي يعرف، بمجرد ذكرك اسم أحدهم، مَن المقصود في سياق كلامك؟ رتب شكاواك في ذهنك، ابدأ بذكر الأكثر أهمية ثم ما يليها بالتدريج، فلربما سوف تستغني عن ذكر كثير مما لا يعود ثمة أهمية لذكره. لطالما عرضتَ الموضوع عليَّ بكل وضوح!» ولتبرير ادعائه الأخير قال في نفسه: «إذا كان بوسع المرء في أمريكا أن يسرق حقيبة، فبوسعه أن يكذب أحيانًا أيضًا».

ولكن ليت هذا قد ساعد في شيء! أولمْ يأتِ تدخله متأخرًا جدًا؟ صحيح أن الوقاد قد توقف عن الكلام فور سماعه الصوت المعروف، ولكنه بعينيه الغارقتين بدموع كرامة الرجل المهانة، والذكريات الفظيعة، والشدة الحالية الملحة، لم يستطع حتى التعرف بوضوح على كارل. وكيف كان له ذلك –وبصمتٍ أمام الصامت الآن أدرك كارل ذلك-، كيف كان له الآن فجأة أن يغير طريقة كلامه، وقد بدا له بجلاء وكأنه قد حكى كل ما كان يجب أن يُقال، دون أن يجد أبسط تعاطف، وكأنه من ناحية أخرى لم يقل شيئًا بتاتًا، وهو لا يتوقع الآن من السادة أن يحتمِلوا سماع كل شيء مرة أخرى. وفي مثل هذا التوقيت يأتيه

فوق ذلك كله كارل، مناصره الوحيد، ليقدم له مواعظ مفيدة، لكنه يُفهِمه، بدلًا من ذلك، أن كل شيء، كل شيء قد ذهب سدى.

«ليتني تدخلت أبكر، بدلًا من النظر عبر النافذة!» قال كارل في نفسه. نكس وجهه أمام الوقاد وصفق كفيه على جانبيّ بنطاله، دلالة على نهاية أي أمل.

إلا أن الوقاد أساء فهم هذه الحركة، متوقعًا على ما بدا لومًا مضمرًا له، وليقنع كارل بنية طيبة بالعدول عن لومه، بدأ كتتويج لكل أفعاله بالشجار معه. وذلك حين بلغ سخط السادة حول الطاولة المستديرة ذروته نتيجة الضجة العقيمة التي تعيقهم عن أعمالهم المهمة، وحين أخذ كبير المحاسبين يجد تدريجيًا أن صبر القبطان لم يعد مفهومًا فكاد نتيجة ذلك أن ينفجر، وحين أخذ الخادم، الذي عاد بكليته إلى أجواء سادته، يقيس الوقاد بنظرات شرسة، وحين تحرك أخيرًا صاحب عصا الخيزران، الذي كان حتى القبطان يرمقه بنظرات ودٍ بين الحين والآخر، والذي تبلد شعوره تجاه الوقاد كليًا وإلى درجة القرف منه، فأخرج دفتر ملاحظات صغير وانشغل على ما بدا بأمور أخرى تمامًا، فيما كانت نظراته تتجول بين كارل ودفتر الملاحظات.

«أنا أعرف هذا»، قال كارل، الذي كان يجد صعوبة في صد شلال كلام الوقاد الموجه الآن ضده، إلا أنه على الرغم من ذلك أبقى على وجهه ابتسامة الصداقة عبر الشجار كله، «أنت محقٌ، محق، وأنا لم أشك في ذلك مطلقًا». كان بودّه جدًا، خشية من ضربات عشوائية، لو يمسك بيدي الوقاد، اللتين كان يلوِّح بهما بعنف، لكنه كان يفضل على ذلك، أن يحشره في زاوية كي يهمس له بضع كلمات مهدئة، لا يجوز أن يسمعها سواه. لكن الوقاد كان خارج نطاق السيطرة، وإلى درجة بدأ كارل عندها يجد العزاء في فكرة أن الوقاد، إنْ لزم الأمر، قادر بقوة يأسه على التغلب على جميع الرجال السبعة الحاضرين معًا. غير أنه لاحظ على طاولة المكتب، من خلال نظرة عابرة ألقاها في ذاك الاتجاه، وجود لوحة بأزرار عديدة للتوصيلات الكهربائية، تكفي ضغطةٌ بسيطة بكف اليد عليها، لتثوير السفينة كلها على الأعداء الذين يملؤون ممراتها.

عند ذلك تقدم السيد اللامبالي صاحب عصا الخيزران من كارل وسأله بصوت ليس عاليًا جدًا، وإنما بوضوح طغى على كل صياح الوقاد: «ما اسمك أنت؟» في تلك اللحظة قُرع الباب، وكأن ثمة مَن كان وراءه بانتظار هذا السؤال. نظر الخادم إلى القبطان، فأومأ هذا برأسه موافقًا. توجه الخادم إلى الباب وفتحه. في الخارج وقف في زي قيصري قديم رجل معتدل القامة، لم يوحِ مظهره الخارجي بأنه ملائم للشغل على الآلات، غير أنه لم يكن غير شوبال. ولو لم يتعرف عليه كارل من جميع عيون الحاضرين، التي أبدت نوعًا من ارتياحٍ، لا يُستثنى منه حتى القبطان نفسه، لتعرف عليه بفزعٍ من منظر الوقاد، الذي كوَّر قبضتي ساعديه المشدودين، ولكأن هذا التكوير هو الأهم فيه كله، وهو على استعداد للتضحية في سبيله بكل ما يملك من حياة. ففيه كمنت الآن كل قواه، بما فيها تلك التي تحفظ عليه حياته عمومًا.

ها هو العدو إذن، نشطًا ونظيفًا في الزي الرسمي، ومتأبطًا سجلًا، قد يكون لوائح الأجور وبطاقة عمل الوقاد، وراح ينظر في عيون الجميع الواحد تلو الآخر، باعترافٍ جريء بأنه يريد في المقام الأول معرفة مزاج كل منهم. فالسادة السبعة كانوا جميعهم على أية حال أصدقاءه، وحتى لو كان القبطان قد أبدى بعض المآخذ عليه قبل قليل أو تظاهر بذلك وحسب، فإنه بعد الإزعاج الذي سببه له الوقاد، لم يبق لديه ربما أي اعتراض على شوبال من أي نوع كان. ففي مواجهة رجل مثل الوقاد لم يكن بوسع المرء أن يكون صارمًا كفاية، وإن كان ثمة ما يُلام عليه شوبال، فهو أنه لم يستغل الوقت بشكل كاف لترويض شراسة الوقاد، الذي تجاسر اليوم حتى على الظهور أمام القبطان. ولكن ربما لا يزال بوسع المرء أن يفترض، أن ما قد تلاقيه المواجهة بين الوقاد وشوبال من تأثير مُستحَق في لجنة محلفين عليا، فإنها لن تعدم هذا التأثير في الناس أيضاً، إذ مهما تمكن شوبال من إتقان النفاق، فإنه لن يتمكن من الصمود حتى النهاية. إن ومضة قصيرة من خبثه، ستكفي لكشفه أمام السادة، وهذا هو ما صمم كارل على جعله بيّنًا لهم. لقد بات يعرف ولو على نحو تقريبي فطنة كل واحد من السادة ونقاط ضعفه وأمزجته، ومن زاوية النظر هذه فإن الوقت الذي أمضاه هنا لم يكن وقتًا ضائعًا. فقط لو كان وضع الوقاد أفضل، لكنه بدا غير قادر على

القتال إطلاقًا. لو أوقف المرء شوبال أمامه، لكان بمقدور الوقاد بقبضتيه تحطيم جمجمته المكروهة، لكنه لم يكن قادرًا على أن يمشي حتى الخطوتين اللتين تفصلانه عن شوبال. ولكن لماذا لم يتنبأ كارل بما كان التنبؤ به سهلًا: أن شوبال لابد وأن يأتي أخيرًا، وإن لم يكن بحافز شخصي منه، فبناء على استدعاء القبطان له؟ لماذا لم يناقش مع الوقاد أثناء قدومهما خطة قتالية دقيقة، بدلًا مما فعلاه في واقع الأمر، أن دخلا بكل بساطة حيث وجدا بابًا أمامهما، ومن دون أي تحضير مسبق نهائيًا؟ أما زال الوقاد بصورة عامة قادراً على الكلام، على أن يجيب بنعم ولا، حسبما سيكون ضروريًا في الاستجواب المتوقع في أفضل الحالات؟ إنه يقف أمامه مفرشخًا ما بين ساقيه، بركبتين مضطربتين، رافعًا رأسه قليلًا، والهواء يعبر الفم المفتوح، وكأنه لا وجود داخل صدره لرئتين تعالجانه.

أما كارل فقد شعر بنفسه قويًا جدًا وحاضر الذهن كما لم يسبق له أبدًا أن كان في الوطن. آه لو كان بوسع والديه أن يريا كيف يدافع عن الحق في بلد أجنبي وأمام شخصيات مهمة، وإن كان لم يحقق انتصارًا بعد، فقد جهز نفسه بشكل كامل للهجوم الأخير! فهل سيراجعان رأيهما فيه يا تُرى؟ هل سيجلسانه بينهما ويطريان على فعله؟ وهل سينظران ولو هذه المرة في عينيه المستسلمتين لهما كليًا؟ أسئلة حائرة تطرح نفسها في اللحظة الأقل ملاءمة لطرحها! وهنا قال شوبال: «لقد أتيت لاعتقادي بأن الوقاد يتهمني بتصرفات ما غير نزيهة. أخبرتني إحدى عاملات المطبخ أنها شاهدته على طريقه إلى هنا. أنا مستعد يا سيدي القبطان وأنتم جميعكم يا سادتي لأن أفند أمامكم أي اتهام، بالاستناد إلى أوراقي، وإن دعت الضرورة بالاستماع إلى إفادات شهود غير متحيزين ونزيهين يقفون وراء الباب». كان هذا بلا شك قولًا واضحًا لرجل، وبناء على تغير تعابير وجوه المستمعين، كاد يعتقد المرء أنهم يسمعون صوتًا بشريًا لأول مرة بعد وقت طويل. ومن الطبيعي أنهم لم يلاحظوا أن حتى هذا القول الجميل كان ينطوي على ثغرات. لماذا كان أول تعبير خطر في باله بشأن الموضوع هو «غير نزيهة»؟ أكان يجب على الاتهام أن يبدأ هنا، عوضًا عن تحيزه القومي؟ إحدى عاملات المطبخ شاهدت الوقاد على طريقه إلى المكتب، وشوبال فهم المراد فورًا؟ أولم يكن شعوره بالذنب هو ما حرض فهمه؟ وأحضر الشهود معه مباشرة

ووصفهم فوق ذلك بأنهم غير متحيزين ونزيهين؟ دجل، محض دجل! والسادة احتملوا الأمر واعترفوا به فوق ذلك كسلوك صحيح؟ لماذا إذن ترك كل هذا الوقت يمر، بين خبر عاملة المطبخ ووصوله إلى هنا؟ طبعًا لا لغرض أخر سوى أن يترك الوقاد يرهق السادة بكلامه، حتى يفقدوا تدريجيًا وضوح قدرتهم على المحاكمة، التي يخشاها شوبال قبل أي شيء آخر. ألم يبق منتظرًا وراء الباب إلى أن جاء السؤال الجانبي من السيد صاحب العصا، فقرع الباب، ظنًا منه وأملًا بأن الوقاد قد هُزِم وانتهى؟

كان كل شيء واضحًا، وتمامًا مثلما عرضه شوبال من حيث لا يدري، ولكن لابد من تبيان ذلك للسادة بطريقة أخرى، على نحو ملموس أكثر. إنهم بحاجة إلى هزَّة. إذن، أسرع يا كارل، استغل الوقت على الأقل، قبل أن يدخل الشهود ويُغرِقون كل شيء! ولكن في تلك اللحظة أشار القبطان لشوبال كي يتراجع، فتنحى هذا فورًا جانبًا –إذ بدا أن مسألته ستتأجل قليلًا– وسرعان ما انضم إليه الخادم، فبدأ معه حديثًا لم يخلُ من نظرات جانبية نحو الوقاد وكارل، إضافة إلى حركات بالأيدي شديدة الإقناع، فبدا أن شوبال يتمرن على خطبته القادمة.

«يا سيد ياكوب، ألم ترغب في أن تسأل هذا الفتى شيئًا ما؟»، قال القبطان في السكون العام المهيمن مخاطبًا السيد صاحب عصا الخيزران.

«بالتأكيد»، قال هذا مع انحناءة خفيفة تعبيرًا عن شكره لهذه اللفتة، وسأل كارل ثانية: «ما اسمك بالمناسبة؟».

وكارل، الذي ظن أن الانتهاء سريعًا من تدخل هذا السائل الملح سيكون لمصلحة القضية الرئيسية العظيمة، أجاب باختصار، على غير عادته بتقديم نفسه عن طريق إبراز جواز سفره، الذي كان عليه البحث عنه أولًا: «كارل روسْمَن».

«ولكن»، قال السيد ياكوب وخطا بادئ الأمر خطوة إلى الوراء مبتسمًا وغير مصدق تقريبًا. والقبطان وكبير المحاسبين وضابط السفينة بل حتى الخادم أبدوا دهشة جلية فائقة من

اسم كارل، في حين بقي موظفا المرفأ وشوبال متماسكين. «ولكن»، كرر السيد ياكوب وتقدم بخطوات شبه جامدة من كارل وتابع، «إذن أنا خالك ياكوب وأنت ابن أختي العزيز. كنت أحدس بذلك طوال الوقت!» قال ذلك مخاطبًا القبطان، قبل أن يعانق ويقبِّل كارل، الذي ترك كل شيء يجري وهو صامت.

بعد أن أحس كارل بأنه قد تركه، سأله بكل تهذيب، ولكن دون أي تأثر: «وما هو اسمك؟»، وبذل جهده لتوقع العواقب التي قد تتمخض عن هذا الحدث الجديد بالنسبة إلى الوقاد. حاليًا لم تظهر أي مؤشرات تدل على إمكانية استفادة شوبال من هذا الأمر. «هلا أدركت حظك أيها الشاب»، قال القبطان، ظنًا منه أن سؤال كارل قد جرح كرامة السيد ياكوب، الذي توجه إلى النافذة، ومن الجلي لئلا يرى الآخرون وجهه المنفعل والذي أخذ فوق ذلك يمسحه بمنديل جيبه. «إن مَن قدَّم نفسه إليك بصفته خالك، هو السيناتور الأمريكي إدوارد جيكوب. وعلى نقيض توقعاتك حتى الآن، ثمة مستقبل باهر ينتظرك. فحاول أن تستوعب ذلك ما أمكنك في هذه اللحظة، وتماسك!».

«أنا لي في أمريكا فعلًا خال اسمه ياكوب»، قال كارل ملتفتًا إلى القبطان، «ولكن إنْ كنتُ قد فهمتُ بشكل صحيح، فإن جيكوب هو فقط كنية السيد السيناتور». –«وهو كذلك»، قال القبطان بكل احترام. فتابع كارل: «حسنًا، إن خالي ياكوب، الذي هو أخو أمي، يدعى باسم عماده ياكوب، في حين أن كنيته هي طبعًا نفس كنية أمي قبل الزواج وهي بِنْدِلماير».

«يا سادتي!» قال السيناتور، الذي عاد منتعشًا من وقفته التي أراحته عند النافذة، فانفجر الجميع ضاحكين عدا موظفَي المرفأ، بعضهم كما لو كان متأثرًا، وبعضهم بالعدوى الجماعية. «لم يكن ما قلته مضحكًا على الإطلاق»، فكّر كارل. «يا سادتي»، كرر السيناتور، «إنكم، رغمًا عني ورغمًا عنكم، تشاركون في مشهد عائلي صغير، ولهذا لابد لي من أن أقدم لكم إيضاحًا، لا يعرفه بتفاصيله فيما أعتقد سوى السيد القبطان»، وقد أدى هذا التنويه إلى تبادل الانحناء بين الاثنين. «الآن يجب عليّ حقًا الانتباه إلى كل كلمة»، قال كارل في نفسه، وسرَّه عندما لاحظ بنظرة جانبية أن الحياة تدب من جديد في جسم الوقاد.

«إني أعيش من بداية السنين الطويلة من إقامتي الأمريكية -وكلمة إقامة لا تناسب هنا بالتأكيد المواطن الأمريكي، الذي هو أنا قلبًا وقالبًا-، أعيش إذن طوال هذه السنوات المديدة في انقطاع تام عن أقربائي الأوروبيين، لأسباب لا مجال لذكرها هنا أولًا، والتي إنْ سردتها ثانيًا فسيستغرق ذلك وقتًا طويلًا حقًا. حتى أني أخشى اللحظة، التي سأجد نفسي فيها مضطرًا إلى سردها لابن أختي العزيز، إذ عندها للأسف، لا يمكنني تجنب كلمة صريحة بحق والديه وعائلتيهما».

«إنه خالي، بلا ريب، ربما لجأ إلى تغيير اسمه»، قال كارل في نفسه وهو ينصت باهتمام.

«إن ابن أختي العزيز –ولنستخدم الآن الكلمة التي تُوصِّف الواقعة فعليًا– قد أبعده والداه جانبًا ببساطة، مثلما يرمي المرء قطة خارج الباب عندما تزعجه. أنا لا أريد أبدًا التهوين من أمر ما فعله ابن أختي، كي يُعاقَب بهذه الطريقة، إلا أن ذنبه هو من النوع، الذي ينطوي مجرد ذكره على عذر كاف».

«هذا يستحق الإصغاء»، فكر كارل، «لكني لا أريده أن يروي كل شيء. غير أنه على كل حال لا يعرف كل شيء. ومن أين له أن يعرف؟».

وتابع الخال متكئًا مع شيء من الميلان المتكرر على عصا الخيزران المثبتة أمامه على الأرض، فأفلح بذلك فعلًا في تجريد الموضوع من الجدية، التي كانت لتكسوه في ظرف آخر: «فقد تم إغواؤه من قِبَل خادمة تدعى يوهنَّا برومَّر وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها. لا أريد بتعبير «تم إغواؤه» أن أجرح شعور ابن أختي إطلاقًا، ولكن من الصعب العثور على تعبير آخر يطابق المعنى».

وكارل الذي كان قد اقترب كثيرًا من الخال، استدار ليستقرئ من وجوه الحاضرين الانطباع الذي خلفته الرواية. لم يضحك أحد، بل أنصت الجميع بصبر وجدية. ففي نهاية المطاف ما من أحد يضحك على ابن أخت سيناتور في أول فرصة سانحة. بل كان بوسع المرء بالأحرى أن يقول، إن الوقاد قد ابتسم لكارل، ولو بصورة خفيفة جدًا، وهذا أولًا

مدعاة سرورٍ باعتباره علامة حياة جديدة، وهو معذور ثانيًا، لأن كارل في المقصورة قبل حين، كان يريد إبقاء هذه المسألة سرًا خاصًا، لكنها باتت مكشوفة عمومًا الآن.

وتابع الخال قائلًا: «برومر هذه أنجبت من ابن أختي طفلًا، صبيًا صحيح البنية، مُنِح في عماده اسم ياكوب، وكان ذلك لا شك تيمنًا بشخصي المتواضع، على الرغم حتمًا من قلة ذكر ابن أختي لشخصي أمامها، وفي أحاديث عرضية لا ريب، الأمر الذي ترك انطباعًا كبيرًا في نفس المرأة، ولحسن الحظ في رأيي. فبما أن والديه تجنبًا لدفع النفقة وما إلى ذلك، إضافة إلى الفضيحة التي كانت ستطالهما شخصيًا –أنا لا أعرف، ولابد لي من التأكيد على ذلك، لا القوانين السارية هناك ولا الأوضاع الأخرى للوالدين –فتجنبًا لدفع النفقة وفضيحة كارل، ابن أختي العزيز، قاما بترحيله إلى أمريكا، ودون تجهيزه كفاية، بشكل قطعًا غير مسؤول، حسبما ترون. ولكان على هذا الفتى، لولا المعجزات التي لاتزال متوفرة نوعًا ما في أمريكا، أن يعتمد على نفسه فحسب. كان سيتعفن فورًا في أحد أزقة مرفأ نيويورك، لو أن تلك الخادمة لم توجه إليّ رسالة، وصلتني أول أمس فقط بعد رحلات تيه طويلة، كتبت لي فيها القصة كلها ولم تغفل ذكر أوصاف ابن أختي، وكانت حكيمة بذكرها اسم السفينة أيضًا. لو كان في نيتي أيها السادة أن أسليكم، لقرأت لكم فقرات من هذه الرسالة»، وأخرج من جيبه صفحتين من القياس الكبير مزدحمتين بخط دقيق ولوَّح بهما، ثم أردف «كانت ستؤثر فيكم بالتأكيد، لأنها مكتوبة بنوع من المكر الساذج والحسن النية دائمًا وبكثير من الحب لوالد الطفل. لكنني لا أبغي إلهاءكم بأكثر مما هو ضروري للإيضاح، ولا أن أجرح مشاعر ابن أختي منذ استقبالي إياه، هذه المشاعر التي لربما مازالت قائمة حتى الآن، وإذا كانت لديه الرغبة فبوسعه قراءة الرسالة للتعلم منها في سكينة غرفته التي تنتظره بعد أن أُعِدَّت له».

غير أن كارل لم يكن يحمل أية مشاعر إزاء تلك الفتاة. كانت في زحمة ذكرياتِه عن ماضٍ يتراجع باستمرار، تجلس في مطبخها بجانب خزانة المطبخ ساندة كوعها على رف قسمها السفلي، وتنظر إليه كلما أتى إلى المطبخ ليجلب لوالده كأسًا لشرب الماء أو لينقل إليها تعليمات من أمه. وفي وضعية الجلوس غير المريحة هذه، كانت أحيانًا تكتب جانبيًا على

الرف رسالة، مستوحية الإلهام من وجه كارل. وكانت في بعض الأحيان تغطي عينيها بكف يدها، وفي هذه الحالة لم يكن الكلام يصل إليها، وفي أحيان أخرى كانت تركع في حجرتها الصغيرة الضيقة المجاورة للمطبخ وتصلي لصليب خشبي؛ عند ذلك كان كارل أثناء عبوره يراقبها بحياء من خلال فتحة الباب الموارب قليلًا. وكانت أحيانًا تتواثب بهياج في أنحاء المطبخ وتطلق ضحكات كالساحرات إذا اعترض كارل طريقها. وفي مرات أخرى كانت تغلق باب المطبخ بعد أن يدخله كارل وتبقى متشبثة بيدها بالأكرة إلى أن يطالب بالخروج. وكانت في مرات أخرى تأتي بحاجات لا يريدها كارل وتضغطها بصمت في يديه. إلا أنها خاطبته ذات مرة قائلة: «كارل» وقادته، وهو مندهش من طريقة الخطاب غير المتوقعة، مكشرة ومتنهدة إلى حجرتها الصغيرة وأقفلت بابها. طوقت عنقه بذراعيها حتى كاد يختنق، وفيما رجته أن يعرّيها، قامت في واقع الأمر بتعريته وأضجعته في سريرها وكأنها منذ الآن لم تعد تريد التخلي عنه لأي شخص آخر وتريد أن تداعبه وتعتني به حتى قيام الساعة، مرددة «كارل، آه منك يا كارلي!» وكأنها تراه وتؤكد لنفسها امتلاكه، في حين أنه لم يرَ أي شيء وشعر بالانزعاج من كثرة الأغطية الدافئة التي يبدو أنها قد كوَّمتها خصيصًا له. ثم اضطجعت إلى جانبه وطلبت منه أن يخبرها بأسرار ما، لكنه لم يجد ما يخبرها به، فتظاهرت بالغضب وربما كانت جادة، ثم هزته وأصغت إلى نبض قلبه، وعرضت عليه صدرها ليصغي بدوره إلى قلبها، دون أن تتمكن من جعله يقوم بذلك، فضغطت بطنها العاري على جسده، وأخذت تبحث بيدها بين ساقيه بطريقة مقرفة جعلت كارل يرفع رأسه وعنقه عن المخدة ويهزهما، ثم صدمت بطنها ببطنه عدة مرات –وانتابه إحساس بأنها جزء من ذاته، وربما لهذا السبب دهمه شعور مزعج بالحاجة إلى المساعدة-، وأخيرًا بعد كثير من أمنيات تجدد اللقاء من جانبها، وصل إلى سريره باكيًا. كان هذا كل ما جرى، ومع ذلك تمكن الخال من تحويله إلى قصة كبيرة. إذن، لقد فكرت الطباخة فيه، وأعلمت الخال بوصوله. لقد تصرفت على نحو جميل، وذات يوم سيعرف كيف يرد لها الجميل.

«والآن»، قال السيناتور، «أريد أن أعرف منك صراحة، ما إن كنتُ خالك أم لا».

«أنت خالي»، أجابه كارل وقبَّل يده، فقوبل بقبلة على جبينه. ثم أردف قائلًا: «أنا في غاية السرور للقائي بك، لكنك تخطئ، إذ تظن أن والديَّ لا يذكرانك إلا بالسوء. وبغض النظر عن هذه الناحية، فقد انطوت خطبتك على بعض الأخطاء، بمعنى، ما أقصده هو أن ما كل شيء قد جرى في الواقع على هذا النحو. كما لا يمكنك حقًّا أن تحاكم من هنا الأمورَ هناك على نحو منصف. وأظن فوق ذلك أنه ما من ضرر جسيم سيقع، إذا علم السادة بعضَ تفاصيل مسألةٍ لا تهمهم كثيرًا، على نحو خاطئ قليلًا».

«أحسنت الكلام»، قال السيناتور وقاد كارل نحو القبطان الذي كان بادي الاهتمام وسأله: «أليس ابن أختي رائعًا؟».

«يسعدني»، أجاب القبطان مع انحناءة لا يتقنها إلا من تلقى تدريبًا عسكريًا، «التعرف على ابن أختك يا سيدي السيناتور. وإنه لشرف استثنائي لسفينتي أنها كانت مكانًا لمثل هذا اللقاء، لكن السفر في الدرجة الدنيا كان لا شك سيئًا جدًا، نعم، ومن أين لنا معرفة كل من يركب السفينة. إلا أننا نبذل كل ما في وسعنا للتخفيف ما أمكن من ظروف السفر في الدرجة الدنيا، أكثر بكثير مثلًا من خطوط الملاحة الأمريكية، أما تحويل مثل هذه السفرة إلى متعة، فإننا لم نبلغه حتى اليوم».

«لكنها لم تضيرني»، علق كارل.

«إنها لم تضيره»، كرر السيناتور مع ضحكة عالية. «إلا أني أخشى أن أكون قد أضعت حقيبتي» –وبهذا تذكر كارل كل شيء، ما حدث وما يجب أن يحدث بعد. تلفت حوله ورأى جميع الموجودين، ساكتين احترامًا ودهشة في أماكنهم نفسها ونظراتهم موجهة إليه، عدا موظَفي المرفأ، اللذين قرأ من وجهيهما، حسبما يوحيان به من رضًا ذاتي صارم، أسفهما لقدومهما في الوقت غير الملائم، وأن ساعة الجيب الموضوعة أمامهما الآن كانت بالنسبة إليهما، على ما بدا، أهم من كل شيء يجري في الغرفة الآن، وربما مما يحتمل أن يجري.

واللافت أن أول من عبر عن اهتمامه بما جرى، بعد القبطان، كان الوقاد. «أهنئك من قلبي»، قال وصافح يد كارل، راغبًا في التعبير أيضًا عن نوع من الاعتراف بالجميل. وعندما أراد التوجه إلى السيناتور بالتهنئة نفسها، تراجع هذا خطوة إلى الوراء، وكأن الوقاد بذلك قد تجاوز حدوده؛ فتخلى الوقاد فورًا عن مبادرته. أما الآخرون فقد أدركوا الآن ما عليهم فعله، وشكلوا من فورهم جلبة حول كارل والسيناتور. وهكذا حدث أن تلقى كارل تهنئة حتى من شوبال، وقبِلها مع الشكر. وبعد خفوت الجلبة كان موظفا المرفأ آخر من تقدم، وقالا كلمتين بالإنجليزية، ولَّدتا انطباعًا مضحكًا. كان السيناتور في ذروة مزاجه لتذوق المتعة كاملة، باستعادة لحظات ثانوية له وللآخرين، الأمر الذي استُقبل من جميع الآخرين طبعًا، لا بصبر وحسب، بل باهتمام أيضًا. فلفت انتباههم إلى أنه كان قد دوَّن في دفتر ملاحظاته أبرز ملامح التعرف على كارل من تلك التي كتبتها الطباخة في رسالتها إليه، للاستعانة بها إذا دعت الضرورة. وفي أثناء ثرثرة الوقاد التي لا تُحتمل، ولإلهاء نفسه عنها فحسب، وليس لأي غرض آخر، أخرج دفتر الملاحظات وحاول على سبيل اللعب، ربط ملاحظات الطباخة، التي لا تتسم طبعًا بدقة رجل التحري، مع مظهر كارل. وختم كلامه بجملة: «وهكذا أيها السادة يعثر المرء على ابن أخته!»، بلهجة من يرغب في تقبل التهاني ثانية. «وماذا سيحصل الآن بشأن الوقاد؟» سأل كارل باترًا بذلك حكاية خاله الأخيرة، ظنًا منه، أنه في وضعه الجديد، يمكنه أن ينطق بكل ما يفكر به.

«الوقاد سيحصل على ما يستحق»، أجاب السيناتور، «وعلى ما يراه السيد القبطان خيرًا. أعتقد بأننا قد اكتفينا من الوقاد بل وزيادة، الأمر الذي سيوافقني عليه جميع السادة الحضور». –«ليس هذا هو المهم، عندما يتعلق الأمر بعدالة قضية»، قال كارل. كان واقفًا بين القبطان وخاله واعتقد ربما بتأثير موقعه هذا، بأنه يمتلك القرار في يده.

وعلى الرغم من ذلك بدا أن الوقاد لم يعد يأمل بشيء لنفسه. كان واضعًا يديه حتى النصف في حزام بنطاله، وبسبب حركاته المضطربة ظهر الحزام للعيان مع شريط عرضاني من قميصه المخطط. ولم يأبه لذلك على الإطلاق؛ لقد اشتكى من عذابه كله، وليرى الناس فوق ذلك الآن هذه الخرق التي يلبسها، وليحملوه من ثم إلى خارج المكتب. وفكر بأن على

الخادم وشوبال، الاثنين الأدنى مرتبة هنا، أن يقدما له هذه الخدمة الأخيرة. وعندها سيرتاح بال شوبال ويقلع عن اليأس، حسب تعبير كبير المحاسبين. وسيتمكن القبطان من ثم من تشغيل ما يشاء من الرومانيين، وسيتم الكلام باللغة الرومانية في كل مكان في السفينة، وعندها لربما سيتحسن حقًا كل شيء. فما من وقاد سيثرثر من بعد في مكتب كبير المحاسبين، لكن ثرثرته هو وحسب سيتذكرها الناس بود عميق، باعتبارها، كما عبر السيناتور بوضوح، السبب المباشر للتعرف على ابن أخته. وابن الأخت هذا، على كل حال، كان قد حاول مساعدته عدة مرات، ولهذا فإنه لقاء معروفه في عملية إعادة التعارف قد شكره بصورة أكثر من كافية؛ فلم يخطر في بال الوقاد إطلاقًا الآن أن يطلب منه شيئًا آخر. وبالمناسبة ليكن ابن أخت السيناتور، لكنه لم يصبح قبطانًا بعد، في حين أن القرار السيئ سيصدر الآن من فم هذا القبطان. -وانسجامًا مع رأيه أيضًا لم يحاول الوقاد النظر باتجاه كارل، ولكن في غرفة الأعداء هذه لم يبق نقطة ارتياح أخرى لعينيه للأسف.

«لا تسئ فهم الموضوع»، قال السيناتور لكارل، «ربما كان الموضوع يتعلق بالعدالة، لكنه في الوقت نفسه يتعلق بالنظام. كلاهما، ولاسيما الأخير، يخضعان هنا لحكم السيد القبطان».

«هذا صحيح»، همهم الوقاد. ومَن انتبه وفهم، ابتسم مستغربًا.

«أما نحن، فوق ذلك، فقد أعقنا السيد القبطان عن واجبات عمله، التي تكثر بالتأكيد بشكل لا يصدق خاصة عند الوصول إلى نيويورك، لذلك آن الأوان بالنسبة إلينا لمغادرة السفينة، كيلا نثقِل بتدخل لا ضرورة له بتاتًا في تحويل هذا الشجار التافه بين ميكانيكيين إلى حدث. إني أتفهم تصرفك يا ابن أختي العزيز بصورة تامة، وهذا تحديدًا يخولني حق إبعادك من هنا بأسرع ما يمكن».

«سوف آمر فورًا بإنزال مركب لكما»، قال القبطان، ولدهشة كارل، دون أن يعترض أدنى اعتراض على كلمات الخال، التي يمكن أن تعتبر لا شك بمثابة إذلال ذاتي للخال. وهرع

كبير المحاسبين بعجلة كبيرة إلى طاولة المكتب ونقل بالهاتف أمر القبطان إلى مسؤول المراكب.

«الوقت يضيق»، قال كارل في نفسه، «لكني لا أستطيع أن أفعل شيئًا دون أن أسيء إلى جميع هؤلاء. لا أستطيع ترك خالي الآن، بعد أن لم يكد يعثر عليّ. صحيح أن القبطان مهذب، ولكن هذا كل شيء، فعند النظام يتوقف مفعول تهذيبه، ولا شك في أن الخال قد نطق بما يشعر به القبطان. مع شوبال لا أريد الكلام، حتى أني أشعر بالأسف لمصافحته. وكل الآخرين هنا لا أهمية لهم».

بمثل هذه الأفكار في رأسه مشى كارل ببطء نحو الوقاد، سحب يده اليمنى من الحزام وأمسكها مداعبًا بين يديه.

«لماذا لا تقول شيئًا؟» سأله، «لماذا ترضخ لكل شيء؟».

قطب الوقاد جبينه وحسب، وكأنه يبحث عن التعبير الملائم لما عليه أن يقول، ونكس رأسه ناظرًا إلى يده ويدي كارل».

«لقد أصابك ظلم كما لم يصب أي شخص أخر على متن السفينة، أنا أعرف ذلك حق المعرفة». وحرك كارل أصابعه بين أصابع الوقاد، الذي أخذ ينظر حوله بعينين لامعتين، كمن غمرته بهجة يرجو ألا يؤاخذه أحد بسببها.

«ولكن يجب أن تدافع عن نفسك، أن تقول نعم ولا، وإلا لن يعرف الناس الحقيقة. يجب عليك أن تعدني، بأن تتبع خطاي، لأنني أخشى شخصيًا، ولأسباب عديدة، أني لن أتمكن من مساعدتك بعد الآن». ودمعت عينا كارل وهو يقبِّل يد الوقاد، وأخذ اليد المتشققة والفاقدة الحياة تقريبًا وضغطها على خده، وكأنها كنز لابد للمرء من التخلي عنه. –ولكن سرعان ما صار خاله السيناتور بحذائه وسحبه بعيدًا، قسرًا وإن برفق.

«يبدو أن الوقاد قد سحرك»، قال ونظر بكل تفهم من فوق رأس كارل إلى القبطان، «شعرتَ بنفسك معزولًا، وعثرت على الوقاد، وتشعر الآن بالامتنان له، هذا أمر يستحق الثناء. ولكن لأجل خاطري لا تبالغ، وتعلم أن تراعي مكانتك».

نشأت جلبة وراء الباب وسُمعت صيحات، وبدا الأمر وكأن هناك مَن يصدم أحدهم بالباب بعنف. دخل بحار منكوش الهيئة وقد التف بمئزر فتاة. «هناك أناس في الخارج»، قال وأخذ يدفع بكوعيه من حوله، وكأنه مازال في الزحام. تماسك أخيرًا وأراد أداء التحية أمام القبطان، فانتبه لوجود المئزر، فنزعه عنه ورمى به أرضًا وصاح: «هذا مقرف، لقد ألبسوني مئزر فتاة». ثم صفَق كعبيه معًا وأدى التحية. حاول أحدهم أن يضحك، لكن القبطان قال بحزم: «يبدو الجو هازلًا تمامًا. مَن الذين في الخارج؟».

«إنهم شهودي»، قال شوبال متقدمًا خطوة، «أرجو بكل احترام أن تعذروا سلوكهم غير اللائق، فالناس في ختام رحلة بحرية يكونون أحيانًا كالمجانين».

«استدعِهم إلى هنا فورًا!» أمره القبطان، والتفت في اللحظة نفسها إلى السيناتور وقال بودٍ ولكن بسرعة: «تفضل حضرة السيناتور المحترم واتبع مع السيد ابن أختك هذا البحار، الذي سيوصلكما إلى المركب. لا حاجة بي لأن أؤكد مدى السرور والشرف الذي هيأه لي التعرف إليك شخصيًا يا حضرة السيناتور. وأتمنى في أقرب فرصة أن نتمكن ثانية يا حضرة السيناتور من متابعة حديثنا الذي انقطع حول أوضاع الأسطول الأمريكي، على أمل أن ينقطع مجددًا بنفس الطريقة السارة كما اليوم».

«حاليًا سأكتفي بابن أختي هذا»، أجاب الخال ضاحكًا، «والآن تقبل عميق شكري للطفك وكنْ بخير. وبالمناسبة قد لا يكون لقاؤنا القادم مستحيلًا» –وضم كارل إليه بحب– «ففي رحلتنا القادمة إلى أوروبا قد تسنح الفرصة للالتقاء بك مطولًا».

«سيكون هذا من دواعي سروري»، قال القبطان. تصافح السيدان، في حين لم يتمكن كارل سوى من مد يده صامتًا وبصورة سطحية إلى القبطان، الذي انهمك بالمجموعة التي تقارب

الخمسة عشر شخصًا، الذين دخلوا المكتب بقيادة شوبال، مذهولين نوعًا ما، ولكن بضجة عالية. رجا البحار من السيناتور أن يسمح له بأن يتقدمه، ثم قسم المجموعة لنفسه ولكارل بحيث تمكنوا بسهولة من المرور بين الناس الذين انحنوا احترامًا. بدا أن هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم الطيبة وحسن النية، قد اعتبروا الشجار بين شوبال والوقاد مزاحًا، لا ينتهي تأثير سخافته حتى أمام القبطان. لاحظ كارل وجود فتاة المطبخ لينِه بينهم، وقد غمزته بمرح، وهي تعقد حول خصرها رباط مئزرها، الذي رماه لها البحار. تبعا البحار، فغادرا المكتب وانعطفا إلى ممر صغير أوصلهم بعد بضع خطوات إلى باب صغير، يهبط منه درج قصير يؤدي إلى المركب، الذي أعدَّ لهما. نهض بحارة المركب وأدوا التحية، فيما قفز قائدهم دفعة واحدة من الدرج إلى وسط المركب. كان السيناتور ينبه كارل إلى ضرورة الحذر عند هبوط الدرج، عندما انفجر كارل على الدرجة العليا في بكاء مرير. وضع السيناتور يده اليمنى تحت ذقن كارل وضمه إليه بقوة، وأخذ يربت عليه بيسراه. نزلا بهذه الوضعية درجة فدرجة وانتقلا مترابطين إلى المركب، حيث انتقى السيناتور لكارل مكانًا جيدًا للجلوس قبالته. وبناء على إشارة من السيناتور دفع البحارة المركب بعيداً عن السفينة وانهمكوا مباشرة في التجديف. لم يكونوا قد ابتعدوا أكثر من بضعة أمتار حتى اكتشف كارل على نحو غير متوقع، أنهم على ذلك الجانب من السفينة الذي تطل عليه نوافذ مكتب المحاسبة الرئيسي. النوافذ الثلاث كانت محتلة من قبل شهود شوبال، الذين لوحوا لهم مُحيِّين بكل ود، حتى أن السيناتور قد عبر عن شكره، كما قام أحد البحارة بحركة بارعة، بأن أرسل لهم من كفه قبلة عبر الهواء دون أن يتوقف عن التجديف. بدا الجو حقًا وكأن الوقاد لم يعد له وجود. ثبت كارل نظره على خاله، الذي كانت ركبتاه تلامسان ركبتيه، وانتابته شكوك، عما إذا كان هذا الرجل سيتمكن يومًا من أن يعوضه عن الوقاد. وتجنب الخال نظراته وأخذ يتابع الموج المحيط بمركبهم.

(٢) الخال

في بيت الخال سرعان ما تكيّف كارل مع الأوضاع الجديدة. كما لبى له الخال حتى أصغر رغباته بكل ود، فلم يضطر كارل أبدًا إلى الاتعاظ من خلال خبرات سيئة، مثلما يحصل غالبًا ويجعل مطلع الحياة في الغربة غاية في المرارة.

كانت غرفة كارل تقع في الطابق السادس من بناءٍ، طوابقه الخمسة السفلى إضافة إلى ثلاثة أخرى تحت الأرض، كانت مشغولة بشركة الخال التجارية. وكان الضوء الذي يتدفق إلى غرفته عبر نافذتين وباب شرفة يدهشه في كل مرة يدخلها صباحًا وهو قادم من حجرة نومه الصغيرة. أين كان يُفترَض به أن يسكن، بصفته مهاجرًا صغيرًا مسكينًا ينزل إلى بر البلد؟ ولربما ما كانت لتسمح له السلطات مطلقًا بدخول الولايات المتحدة، بل ستعيده إلى بلده، دون أن تبالي بأنه بات بلا وطن. وكان الخال يرجِّح هذا جدًا بناء على معرفته بقوانين الهجرة. فهنا لا يجوز للمرء التعويل على الشفقة، وهذا كان صحيحًا تمامًا، حسبما قرأ كارل عن أمريكا على هذا الصعيد؛ فهنا بدا أن المحظوظين وحدهم مَن يتمتع بحظه حقًا، بين الوجوه اللامبالية في وسطهم.

هناك شرفة ضيقة تمتد على طول غرفته. ولكن ما كان يمكن أن يعتبر في مسقط رأس كارل أعلى إطلالة على المدينة، فإنه لا يسمح بالإطلال هنا إلا على شارع ممتد باستقامة بين صفين من الأبنية الملساء التي تبدو حرفيًا كأنها قُطعت بسكين، ما يوحي بتشكيلها خطيّ منظور يبتعدان حتى نقطة التلاشي، حيث تنهض من الضباب الكثيف معالم كاتدرائية شاهقة الارتفاع.

وصباحًا كما مساءً وفي أحلام الليل، تدب في هذا الشارع حركة مرور متزايدة الازدحام، تبدو للناظر من الأعلى مثل خليط يتشكل باستمرار من بدايات جديدة، من هيئات بشرية مشوهة ومن سطوح مركبات من جميع الأنواع، يتصاعد منها خليط جديد آخر أكثر تنوعًا

وهياجًا من ضجيج وغبار وروائح، وقد أمسك بهذا كله وتغلغل فيه ضوءٌ باهر، يبعثره حشد الأشياء باستمرار ويبدده، ليعود بحميّة متجددة متجليًا للعين المفتونة كما لو كان ملموسًا، وكأن ثمة لوحًا زجاجيًا يغطي كل شيء فوق الشارع وسيتحطم بكل قوة في كل لحظة.

ولمّا كان الخال حذرًا في كل شيء، فقد نصح كارل، بألا ينهمك مؤقتًا بأي شيء على نحو جدي. بل يُفترَض به أن يتفحص كل شيء ويدقق النظر فيه، ولكن دون أن يؤخَذ به. فالأيام الأولى لأوروبي في أمريكا يمكن تشبيهها بعملية ولادة، وكيلا يصاب كارل بخوف لا مبرر له، فهنا أيضًا إذا تكيف المرء بسرعة أكبر، مما لو دخل من العالم الآخر إلى عالم البشر، فعليه أن يضع نصب عينيه، أن الحكم الأول على الأمور يقف دائمًا على قدمين ضعيفتين، فلا يجوز للمرء من خلاله، أن يُدخِل الاضطراب ربما على جميع الأحكام المستقبلية، التي سيتابع المرء حياته هنا بمعونتها. لقد عرف الخال مهاجرين حديثي الوصول، لم يتصرفوا وفق هذه المبادئ، بل وقفوا طوال أيام على الشرفة وحدقوا في الشارع تحتهم مثل خرفان تائهة. وهذا سيؤدي حتمًا إلى البلبلة! إن هذه العطالة المعزولة التي تسيء تفسير يومٍ نيويوركي حافل بالعمل، قد يكون مسموحًا بها لسائح ربما، ولكن ليس دون تحفظات، أما بالنسبة لمن يريد البقاء هنا فإنها مدمِّرة، نعم يمكن استخدام هذه الكلمة في هذه الحالة، وإن كان فيها بعض المبالغة. وفعلًا كان الخال يكشر وجهه باستياء إذا حدث في إحدى زياراته أن وجد كارل على الشرفة. وكان يزوره مرة واحدة في اليوم ولكن في أوقات مختلفة. سرعان ما لاحظ كارل الأمر، فتخلى نتيجة ذلك عن تسلية الوقوف على الشرفة ما أمكنه ذلك.

من الطبيعي أن الوقوف على الشرفة لم يكن التسلية الوحيدة المتاحة له، إذ كان في غرفته طاولة مكتب أمريكية من أفضل نوع، كالتي كان والده يتمناها لنفسه، وقد بحث في مختلف المزادات لشراء مثيلتها بسعر رخيص، دون أن ينجح ولو مرة في حدود إمكاناته المالية.

ومن الطبيعي أنه ما من مجال للمقارنة بين هذه الطاولة وتلك الأمريكية المزعومة التي كانت مطروحة في المزادات الأوروبية. فلهذه الطاولة الأصيلة مثلًا، في القسم الجداري المركب عليها، مئة رف جزئي بأحجام مختلفة، إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة نفسه كان سيجد مكانًا ملائمًا لكل ملف من ملفاته، يضاف إلى ذلك وجود منظِمٍ جانبي، وبتحريك ذراعه يتوصل المرء إلى مختلف التغييرات وإعادة تشكيل الرفوف في أوضاع جديدة حسب الرغبة والحاجة. ثمة جدران جانبية صغيرة ورقيقة تتحرك نزولًا ببطء لتشكل أرضيات رفوف جديدة أو سقوفها؛ وبإدارة الذراع دورة كاملة يتغير مظهر القسم الجداري كله، وكل شيء يجري وفق تحريك الذراع إما ببطء أو بسرعة فائقة. كان هذا أحدث ابتكار في تصميم طاولات المكتب، لكنه ذكَّر كارل على نحو بالغ الحيوية بتمثيليات صندوق فرجة ميلاد المسيح، التي كانت تُعرض في موطنه على الأطفال المدهوشين في ساحة احتفالات ميلاد المسيح. وكثيرًا ما كان كارل ملتحفًا ثيابه الشتوية يقف أمامها مراقبًا طوال الوقت حركة الذراع التي كان ينفذها رجل مسن، مقارنًا الحركة مع تأثيراتها في المشهد التمثيلي، ومع التقدم المتعثر للملوك الثلاثة المقدسين، ومع لمعان النجم، والحياة المرتبكة في الاصطبل المقدس. وكان يبدو له دائمًا أن أمه التي تقف وراءه لا تتابع بدقة جميع أحداث التمثيلية، فكان يشدها إليه حتى يشعر بالتصاقها بظهره، ويمطرها بصيحات تنبهها إلى ظواهر خافية عنها، مثل أرنب صغير بين الحشائش في المقدمة، ينهض تارة على قدميه الخلفيتين ويستعد للركض تارة أخرى، إلى أن تسد أمه فمه بيدها وتعود على الأغلب لتغرق في شرودها. طبعاً لم تكن الطاولة مصنوعة فقط لتذكره بمثل هذه الأشياء، ولكن في تاريخ الاختراعات كانت هناك علاقة مشابهة غامضة كما في ذكريات كارل. على خلاف كارل لم يكن الخال موافقًا أبدًا على هذه الطاولة، لكنه أراد وحسب أن يشتري له طاولة مكتب مرتبة، ومثل هذه الطاولات كانت كلها آنذاك مزودة بهذا الابتكار الجديد، الذي كانت تكمن ميزته في قابلية تركيبه على طاولات مكتب قديمة دون تكلفة كبيرة. وعلى كل حال لم ينس الخال نصح كارل بعدم تشغيل الذراع المنظم مطلقًا ما أمكن؛ ولدعم تأثير هذه النصيحة، زعم الخال بأن الآلية بالغة الحساسية، سريعة العطب، وتصليحها بالغ التكاليف. ولم يكن من الصعب إدراك أن هذه الملاحظات ليست أكثر من

حجج تهربًا من القول الآخر، بأن تصليح الذراع المنظم في غاية السهولة، وهذا ما لم يفعله الخال.

في أثناء الأيام الأولى، التي جرت فيها بطبيعة الحال محادثات متعددة بين كارل والخال، حكى كارل أيضًا أنه في بيت العائلة قد عزف على البيانو، قليلًا طبعًا، وبالاعتماد فقط على المعارف الأولية التي دربته أمه عليها. وكان كارل واعيًا جيدًا بأن حكيه هذا ينطوي في الوقت نفسه على رغبة في الحصول على بيانو، ولكن بعد أن كان قد لاحظ كفاية بأن الخال لا يحتاج بأي شكل من الأشكال للاقتصاد في مصاريفه. ورغم ذلك فإن رغبته هذه لم تتحقق فورًا، ولكن بعد مضي قرابة أسبوع قال له الخال، وتقريباً في لهجة اعترافٍ على مضض، بأن البيانو قد وصل، وبإمكان كارل، إنْ رغب، الإشراف على عملية نقله. كان الأمر عملًا سهلًا، غير أنه لم يكن أسهل بكثير من عملية النقل نفسها، إذ كان في العمارة مصعد خاص للأثاث، يتسع دون ازدحام لحمولة شاحنة أثاث، وفي هذا المصعد طار البيانو أيضًا صاعدًا إلى غرفة كارل. كان بوسع كارل أن يركب في المصعد نفسه مع البيانو وعمال النقل، ولكن بما أنه كان بجانبه مصعد خاص للأشخاص، وكان شاغرًا، فقد ركبه كارل وحافظ بمساعدة ذراع رافعة على الارتفاع نفسه دائمًا مثل المصعد الآخر، مراقبًا بتركيز عبر الجدران الزجاجية الآلة الموسيقية الجميلة، التي باتت الآن ملكه. وعندما صار البيانو في غرفته وضغط على الملامس مصدرًا الأصوات الأولى، غمره فرح جنوني، وبدلًا من أن يتابع العزف، قفز مبتعدًا قليلًا وفضل أن يملأ عينيه بمنظر البيانو عن بُعد واضعًا يديه على خصره. كما امتازت الغرفة بتوزيع ممتاز للصوت، ما ساعد في الاختفاء التام للانزعاج الأولي البسيط، الذي عاناه نتيجة شعوره بالسكن في بيت من الإسمنت المسلح. وفعليًا لم يكن المرء في داخل الغرفة ليلاحظ شيئًا من مواد البناء الحديدية، على الرغم من أن منظر العمارة الخارجي كان يوحي بذلك، كما لم يكن بوسع أحد اكتشاف أي شيء في الأثاث يمكن أن يؤثر سلبًا على الشعور الكامل بالراحة. في المرحلة الأولى أمل كارل الكثير من عزفه على البيانو، ولم يخجل من نفسه عندما فكر قبيل النوم على الأقل، بإمكانية تأثيرٍ مباشر على الظروف الأمريكية من خلال هذا العزف. لكن وقع ذلك كان مستغربًا، عندما

كان أمام النوافذ المفتوحة على الهواء المشبع بالضجيج يعزف أغنية جنود قديمة من موطنه، كان الجنود مساء عندما يستلقون وراء نوافذ الثكنات وينظرون إلى الفِناء المعتم في الخارج، يغنونها لبعضهم بعضا من نافذة إلى نافذة – ومن ثم عندما ينظر إلى الشارع تحت، يجده كما كان دون أي تغير، كجزء صغير من حلقة دوران كبيرة، لا يمكن للمرء عمليًا أن يوقفها، دون أن يعرف كافة القوى الفاعلة في عملية الدوران. لقد تحمل الخال عزف البيانو ولم يعترض عليه بكلمة، ولاسيما أن كارل حتى دون تنبيه، لم يسمح لنفسه بمتعة العزف إلا نادرًا؛ بل أحضر لكارل نوتات مارشات أمريكية والنشيد الوطني طبعًا، ولكن استمتاعه بالموسيقى وحده لا يكفي تفسيرًا لسؤاله كارل ذات يوم دون أثر للمزاح عما إن لم يكن يرغب أيضاً في تعلم العزف على الكمان وربما على البوق الفرنسي أيضًا.

من الطبيعي أن تعلم الإنجليزية كان واجب كارل الأكثر أهمية. في السابعة من صباح كل يوم كان يظهر في غرفة كارل معلم شاب من معهد عالٍ للتجارة ليجده جالسًا إلى طاولة مكتبه يراجع دفاتره أو ماشيًا ذهابًا وإيابًا وهو يذاكر. كان كارل مدركًا أن عليه امتلاك ناصية الإنجليزية في أسرع وقت وأنه يمتلك على هذا الصعيد أفضل فرصة ليفرح خاله فرحًا استثنائيًا بتحقيق خطوات تقدم سريعة. وفعلًا سرعان ما نجح في ذلك، ففي حين اقتصرت الإنجليزية في الأحاديث مع الخال بادئ الأمر على مفردات التحية والوداع، تحولت من ثم أجزاءٌ كبيرة من الحوارات إلى الإنجليزية، ما أدى في الوقت نفسه إلى التطرق إلى موضوعات أكثر خصوصية. وأول قصيدة أمريكية، في تصوير اندلاع حريق هائل، تمكن كارل من إلقائها على مسمع خاله، جعلت الخال في منتهى الجدية، نتيجة سروره ورضاه. كانا واقفين حينذاك عند نافذة في غرفة كارل، والخال ينظر إلى الخارج، حيث كان ضياء السماء كله قد تلاشى، وأخذ مع تفهمه للأبيات وإيقاعها يصفق بيديه ببطء وانتظام، بينما وقف كارل منتصبًا إلى جانبه بعينين جامدتين مستخلصًا من نفسه كلمات القصيدة الصعبة.

كلما تحسنت إنجليزية كارل، أبدى الخال رغبة أكبر في أن يجمعه بمعارفه، وقد رتب الأمر مؤقتًا لكل لقاء من هذا القبيل، بأن يتواجد معلم الإنجليزية دائماً إلى جانب كارل. وكان

أول هؤلاء المعارف، الذي تعرَّفه كارل ذات يوم قبل الظهر، شابًا رشيقاً بالغ المرونة، قاده الخال إلى غرفة كارل مصحوبًا بإطراء خاص. ومن الواضح أنه كان واحدًا من أبناء أصحاب الملايين، أولئك الخائبين من وجهة نظر الأهل، الذين تسير حياتهم، بحيث أن الإنسان العادي لا يستطيع أن يرافق أحد هؤلاء خلال يوم عادي في حياتهم دون ألم. وكان كأنما يعرف ذلك أو يخمّنه، وكأنما يواجه الأمر ما وسعه ذلك، وكانت تحيط بشفتيه وعينيه على نحو مستمر ابتسامة حظ، بدت موجهة إليه ذاتيًا وللشخص الذي يقابله وللعالم بأسره.

ومع هذا الشاب المدعو السيد ماك، تمت بموافقة الخال، التي لابد منها، مناقشة ركوب الخيل معًا في الخامسة والنصف صباحًا، سواء في مدرسة الفروسية أو في الخلاء. في البداية تردد كارل في إعطاء موافقته، إذ لم يسبق له أن ركب حصانًا سابقًا، وأراد أن يتعلم الركوب قليلًا قبل ذلك. ولكن لكثرة ما حاول الخال وماك إقناعه بأن ركوب الخيل مجرد متعة وتمرين صحي وليس فنًا أبدًا، وافق أخيرًا. وبناء على ذلك توجب عليه الآن مغادرة الفراش في الرابعة والنصف، وكثيرًا ما أسف جدًا لذلك، فمن شدة الانتباه الذي كان عليه أن يبذله هنا خلال النهار، كان يعاني من فرط النعاس، ولكن سرعان ما تبدد الأسف في حمّامه. فعلى جانبي حوض الاستحمام طولًا وعرضًا امتد رشاش الدوش –فأي من زملاء المدرسة في الوطن، مهما كان غنيًا، يمتلك مثل هذا ولوحده فقط فوق ذلك؟–، وفي هذا الحوض، حيث يستطيع أن يبسط ذراعيه، كان كارل يتمدد ويدع الرشاشات تهطل عليه بالتناوب، المعتدل فالساخن فالبارد، أو حسب رغبته، جزئيًا أو على مساحة الحوض كله صعودًا ونزولًا. كان يستلقي هناك كما في متعة النوم المستمرة قليلًا ويبدأ بسرور عارم بأن يلتقط بجفنيه المغمضين القطرات المفردة المتساقطة، ثم يفتحهما تاركًا الماء يسيل على وجهه.

في مدرسة الفروسية التي كان يصل إليها في سيارة خاله الفارهة، كان يجد معلم الإنجليزية في انتظاره، فيما لا يأتي ماك إلا متأخرًا دائمًا. وكان بوسعه أن يتأخر دونما قلق، لأن ركوب الخيل الفعلي النشط لم يكن يبدأ إلا عند وصوله. وعندها فقط تشب الجياد من حالة شبه النوم التي كانت فيها حتى لحظة دخوله، وتعلو أصوات السياط عبر المكان، ويظهر فجأة في الرواق المحيط أشخاص فرادى، متفرجون، ساسة خيل، تلاميذ ركوب أو

مهما كانت صفاتهم. أما كارل فكان يستغل الوقت حتى وصول ماك، لممارسة التمارين البدائية الأولية في الركوب. كان هناك رجل طويل القامة تصل ذراعه إذا رفعها قليلًا إلى أعلى ظهر حصان، وهو الذي كان يدرب كارل على هذا التمرين الذي لا يتجاوز ربع الساعة. ونجاحات كارل في ذلك لم تكن كبيرة جدًا، وكان بوسعه دائمًا أن يتعلم المزيد من مفردات الشكوى الإنجليزية، التي كان يطلقها وهو يلهث أثناء هذه التمارين، باتجاه معلم الإنجليزية، الذي كان يستند دائمًا إلى دعامة الباب والنعاس غالبًا باديًا عليه. لكن كل التأفف من ركوب الخيل كان يتوقف، حالما يصل ماك، فيُصرفُ الرجل الطويل، وسرعان ما يبقى صوت خبب حوافر الجياد الشيء الوحيد المسموع في الصالة شبه المعتمة، كما لا يرى المرء شيئًا آخر سوى ذراع ماك المرفوعة موجهًا بها أمراً ما إلى كارل. وبعد نصف ساعة من هذه المتعة التي تمضي كالنوم يتوقف كل شيء. يكون ماك على عجلة كبيرة من أمره فيودع كارل، مربتًا أحيانًا على خده، خاصة إنْ كان راضيًا عن تمرين ركوبه، ويختفي حتى دون أن يواكب كارل إلى الباب، بسبب العجلة. وعندها كان كارل يأخذ معه المعلم في سيارة خاله، عائدين إلى درس الإنجليزية. كان السائق يقودهما غالبًا عبر دروب جانبية، لتجنب إضاعة كثير من الوقت بسبب الازدحام على الشارع الرئيسي، الذي يؤدي في الواقع بشكل مستقيم من عمارة الخال إلى مدرسة الفروسية. وبالمناسبة سرعان ما توقفت مرافقة معلم الإنجليزية إلى مدرسة الفروسية، لأن كارل الذي لام نفسه على جرّ الرجل المتعب معه بلا جدوى، لاسيما وأن التفاهم بالإنجليزية مع ماك كان في غاية البساطة، رجا خاله إعفاء المعلم من هذا الواجب. بعد بعض التفكير لبى الخال رجاءه.

نسبيًا طال الوقت إلى أن قرر الخال، السماح لكارل بالاطلاع ولو على نحو أولي، على عمل شركته، رغم طلب كارل ذلك عدة مرات. كان الأمر يتعلق بنوع من شركة سمسرة وشحن، ربما لا يوجد في أوروبا مثيلًا لها بعد، بقدر ما استطاعت ذاكرة كارل أن تسعفه. ويقوم العمل على الوساطة التجارية، ولكن ليس بمعنى توسيط البضائع بين المنتج والمستهلك أو ربما بين التجار، وإنما في توسيط كافة البضائع والمنتجات الأساسية لاحتكارات المصانع الكبيرة وفيما بينها. وهي بناء على ذلك شركة تقوم بالشراء والتخزين والشحن والبيع

بكميات هائلة، ويجب أن تعتمد على اتصالات هاتفية وبرقية دقيقة جدًا ومستمرة مع العملاء التجاريين. قاعة الاتصالات البرقية في الشركة لم تكن أصغر، بل أكبر من دائرة البرق في مسقط رأسه، التي عبرها كارل مرة ممسكًا بيد زميل مدرسة معروف هناك. وفي صالة الاتصالات الهاتفية كانت أبواب الكبائن تفتح وتغلق باستمرار أينما نظر المرء، وكان رنين الهواتف يربك الحواس. فتح الخال أقرب هذه الأبواب إليه، فرأى المرء هناك تحت النور الكهربائي الساطع موظفًا، غير مبالٍ بضجيج الأبواب، وقد وضع حول رأسه حاملًا فولاذيًا يثبت السماعتين على الأذنين. كان ساعده الأيمن مستقرًا على طاولة صغيرة، وكأنه ثقيل جدًا، فلا يتحرك منه سوى أصابع اليد التي تمسك قلم رصاص، فترتعش بانتظام وسرعة بصورة غير إنسانية. كان مقتصدًا جدًا بالكلمات التي يصبها في قمع الكلام، وكثيراً ما كان يلاحظ المرء أنه كان يُضمِر الاعتراض على المتكلم، وأن يستفسر منه بدقة أكبر، إلا أن بعض الكلمات التي سمعها، أجبرته قبل أن ينفذ ما أضمره، على أن يخفض عينيه ويكتب. وهو أيضًا ليس مضطرًا إلى الكلام، حسبما أوضح الخال بصوت منخفض، لأن نفس المعلومات التي تلقاها هذا الموظف، سيتم تلقيها في الوقت نفسه من قبل موظفَين آخرَين ثم تتم مقارنتها، لتفادي الخطأ ما أمكن. في اللحظة نفسها عندما خرج الخال وكارل من الباب، عبَر متدرب إلى الداخل وخرج حاملًا الورقة المكتوبة. في منتصف الصالة كانت هناك حركة دؤوب لأناس مسرعين ذهابًا وإيابًا. لا أحد يلقي التحية، فقد ألغي تبادل التحية، وكل موظف يتبع خطوات الذي سبقه ناظرًا إلى الأرض التي يريد أن يتقدم عليها بسرعة أو أن يلتقط بنظره بعض الأرقام أو الكلمات من أوراق يمسكها بيديه وهي ترفرف من سرعة خطاه. وذات مرة أثناء إحدى مثل هذه الجولات في الشركة، والتي يحتاج الاطلاع عليها كلها إلى أيام كثيرة، حتى إنْ اكتفى المرء فقط بمشاهدة كل قسم، قال كارل لخاله: «لقد حققت الكثير حقًا»، فأجابه الخال: «وليكن في علمك أني أسست كل شيء بنفسي قبل ثلاثين سنة. حينذاك كان عندي في حي المرفأ محل صغير، وإذا تم هناك تفريغ خمسة صناديق يوميًا، كان هذا إنجازًا كبيرًا وكنت أرجع إلى البيت فخورًا بنفسي. واليوم بت أملك ثالث أكبر المستودعات في المرفأ، وذاك المحل بات غرفة طعام وحجرة أدوات المجموعة الخامسة والستين من الحمالين في شركتي».

«هذا يقارب حدود الإعجاز»، قال كارل.

«جميع التطورات تجري هنا بسرعة كبيرة»، قال الخال قاطعًا الحديث.

ذات يوم جاء الخال قبيل موعد تناول الغداء، الذي فكر كارل بتناوله وحده كالعادة، وطلب منه أن يلبس بذته السوداء مثله وأن يرافقه لتناول الطعام، الذي سيشاركهما فيه صديقا عمل. وبينما كان كارل يبدل ثيابه في الغرفة المجاورة، جلس الخال إلى طاولة المكتب وألقى نظرة على واجب اللغة الإنجليزية الذي أنهاه كارل لتوه، ثم ضرب كفه على الطاولة وقال بصوت عالٍ: «فعلًا ممتاز!».

عندما سمع كارل هذا الثناء، سهُلت عليه لا شك عملية تبديل الملابس، لكنه كان حقًا قد تمكن من إنجليزيته.

في غرفة طعام الخال، التي مازالت في ذاكرة كارل منذ مساء اليوم الأول لوصوله، نهض لتحيتهما سيدان طويلان وبدينان، أحدهما يدعى غرين والثاني بولّوندر، حسبما تبيّن من سياق الحديث حول المائدة. فقد راعى الخال عدم ذكر أي كلمة ولو عرَضًا عن أي من معارفه، وترك لكارل دائمًا التوصل عن طريق الملاحظة إلى ما هو ضروري أو مثير للاهتمام. لم يدر الحديث في أثناء تناول الطعام إلا حول شؤون تجارية خاصة، وكان ذلك درسًا مفيدًا لكارل فيما يتعلق بالمصطلحات التجارية، وتُرك ليهتم بطعامه بهدوء، وكأنه طفل لابد من أن يأكل حتى يشبع أولًا. ومن ثم انحنى السيد غرين نحو كارل وسأله مع بذل جهد واضح لينطق ما أمكنه بإنجليزية فصيحة، عن أولى انطباعاته العامة عن أمريكا. أجاب كارل في الصمت المطبق من حوله، ومع بعض النظرات الجانبية إلى خاله، بشيء من التفصيل، وحاول كتعبير عن شكره أن يلوِّن طريقته في لفظ الإنجليزية بشيء من اللهجة النيويوركية. حتى أنه عند لفظه أحد التعبيرات تداخلت ضحكات الثلاثة معًا، فخشي كارل أن يكون قد ارتكب غلطة خشنة؛ ولكن لا، بل استخدم تعبيرًا ناجحًا جدًا، حسبما شرح السيد بولوندر، الذي بدا بصورة عامة أن كارل قد لاقى إعجابه. وبينما عاد الخال والسيد غرين إلى الحديث في الشؤون التجارية طلب السيد بولوندر من كارل أن يقترب بكرسيه

منه، واستفسر منه في بداية الأمر عن أمور متعددة تتعلق باسمه وأصله ورحلته، ومن ثم، وليريح كارل قليلًا، ضحك وسعل وأخذ يحدثه بسرعة عن نفسه وابنته التي تعيش معه في مزرعة صغيرة قرب نيويورك، إلا أنه لا يستطيع أن يتواجد هناك إلا مساء، لأنه مصرفي، وعمله يتطلب منه البقاء في نيويورك طوال النهار. ثم دعا كارل بكل ترحاب لزيارة هذه المزرعة، فأمريكي حديث العهد مثل كارل يحتاج لا ريب لأن يريح نفسه من نيويورك أحيانًا. وفورًا طلب كارل الإذن من خاله لقبول هذه الدعوة، ووافق الخال ظاهريًا بفرح على هذه الدعوة، ولكن من دون أن يحدد تاريخًا ولو تقريبيًا، حسبما توقع كارل والسيد بولوندر.

ولكن في اليوم التالي مباشرة طُلِب من كارل الحضور إلى أحد مكاتب الخال (كان للخال في هذه العمارة وحدها عشرة مكاتب)، حيث وجدَ الخال والسيد بولوندر غارقين شبه صامتين في كنبتين.

«جاء السيد بولوندر»، قال الخال، الذي كان غير واضح المعالم في غسق الغرفة، «ليصحبك معه إلى مزرعته، حسبما جرى الحديث أمس».

«لم أعرف أن الأمر يُفترض أن يكون اليوم، وإلا لهيأت نفسي»، أجاب كارل.

«إن لم تكن متهيئًا، فمن الأفضل أن نؤجل الزيارة إلى وقت قادم»، كان رأي الخال.

«ولماذا التهيؤ مسبقًا!» قال السيد بولوندر، «الشاب يكون دائمًا مستعدًا».

«ليس لأجله»، قال الخال ملتفتًا إلى ضيفه، «ولكن عليه بكل الأحوال أن يصعد إلى غرفته، وهذا سيؤدي إلى تأخيرك».

«هناك وقت كاف لذلك. لقد حسبت حساب تأخير ما، فأنهيت عملي مبكرًا»، قال السيد بولوندر.

«ها أنت ترى الإزعاجات التي تسببها زيارتك منذ الآن»، قال الخال.

«أنا آسف، لكنني سأعود فورًا»، أجاب كارل وهو على وشك الانطلاق.

«لا تتعجل»، قال السيد بولوندر، «إنك لا تسبب لي أي إزعاج، بالعكس، زيارتك تسرني جدًا».

«ستفوّت غدًا درس الفروسية، هل اعتذرت عنه؟»، سأله الخال.

«لا»، أجاب كارل. هذه الزيارة التي سره أن يقوم بها، بدأت تشكل عبئًا، «لم أكن أعرف..».

«ورغم ذلك، تريد الذهاب؟»، سأله الخال.

لكن السيد بولوندر، هذا الإنسان الودود، هب لنجدته: «على طريقنا سنتوقف عند مدرسة الفروسية ونرتب الأمر».

«هذا اقتراح معقول»، قال الخال، «لكن ماك سيكون في انتظارك».

«لن يكون في انتظاري أنا، لكنه سيأتي في كل الأحوال»، قال كارل.

«وإذن؟» قال الخال وكأن جواب كارل لم يبرر أي شيء.

وثانية قدم السيد بولوندر الكلام الحاسم: «لكن كلارا» –ابنة السيد بولوندر- «تنتظره أيضاً ومساء اليوم، وأظن أن الأسبقية لها قبل ماك؟».

«بالتأكيد»، قال الخال. «اركض إلى غرفتك إذن»، وضرب لا إراديًا عدة مرات بيده على ذراع الكنبة. كان كارل عند الباب عندما استوقفه الخال بسؤال: «لكنك ستكون هنا غدًا باكرًا لدرس الإنجليزية، أليس كذلك؟».

«ولكن!» قال السيد بولوندر وهو يستدير في كنبته بقدر ما تسمح له سمنته، «ألا يحق له على الأقل أن يمضي نهار غد في المزرعة؟ سأعيده معي بعد غد باكرًا».

«ولا بأي حال من الأحوال»، أجاب الخال. «لا يمكنني السماح للفوضى أن تدب في دراسته. لاحقًا، عندما ينخرط في حياة مهنية، لنقل منتظمة، سوف أسمح له بكل سرور بإجازة أطول، كأن يلبي مثل هذه الدعوة الودية والمشرفة».

«يا لهذه التناقضات!» فكّر كارل.

حزن السيد بولوندر وقال: «لأمسية واحدة وليلة واحدة، لا أرى فعلًا ما يستحق العناء».

«وهذا كان رأيي أيضًا»، علق الخال.

لكن السيد بولوندر ضحك وقال: «على المرء أن يأخذ ما يُعطى»، ثم خاطب كارل: «إذن، أنا بانتظارك». وبما أن الخال لم يضف شيئًا، انطلق كارل. وعندما عاد جاهزًا للرحلة لم يجد في المكتب سوى السيد بولوندر، أما الخال فقد غادر. هز السيد بولوندر يديّ كارل بكل سعادة، وكأنه يؤكد لنفسه بما يمكن من الثقة، أن كارل سيغادر معه حقًا. وكارل الذي كان يلهث من السرعة في تحضير نفسه، هز أيضًا يدي السيد بولوندر مسرورًا بتمكنه من القيام بهذه النزهة.

«هل انزعج الخال من ذهابي؟».

«ولكن لا! إنه لم يكن في ذلك جادًا إلى هذا الحد. لكنه مهتم جدًا بدراستك».

«هل قال لك بنفسه إنه لم يكن جادًا إلى هذا الحد بما قاله سابقًا؟».

«طبعًا»، أجاب السيد بولوندر مادًا الألف مبرهنًا بذلك على أنه لا يمكن أن يكذب.

«من الغريب كم كان غير راضٍ عن السماح لي بزيارتك، رغم أنك صديقه».

رغم أن السيد بولوندر لم يعترف بالأمر علنًا، لكنه هو أيضًا لم يجد تفسيرًا لذلك. وعندما غادر الاثنان بسيارة السيد بولوندر عبر المساء الدافئ، بقيا يفكران بالأمر، رغم تبادلهما الحديث في أمور أخرى.

جلسا متقاربين جدًا أحدهما من الآخر، وأثناء حديثه أمسك السيد بولوندر يد كارل في يده. أراد كارل أن يسمع الكثير عن الآنسة كلارا، وكأنه كان نافد الصبر من طول المسافة، وكأن الحديث عن كلارا يساعده في الوصول بأسرع من الواقع. ورغم أن كارل لم يسبق أن عبر بالسيارة مساءً شوارع نيويورك، محاطًا بالضجيج الذي يتحرك على الطرقات والأرصفة معًا، مبدلًا الاتجاه باستمرار في كل لحظة، وكأن مسببه ليسوا البشر، بل عنصر غريب، فإنه لم يبدِ، خلال محاولته فهم كلام السيد بولوندر بدقة، اهتمامًا حقيقيًا بأي شيء آخر سوى صديري السيد بولوندر الداكن، الذي استراحت عليه عرضانيًا سلسلة داكنة أيضًا. ومن الشوارع الرئيسية، حيث كان الجمهور يغذ في السير بعجلة واضحة والسيارات مندفعة في أقصى سرعة ممكنة خشية التأخر على المسارح، انتقلا عن طريق معابر جانبية إلى الضواحي، حيث كان رجال الشرطة على جيادهم يحوِّلون سيارتهما باستمرار إلى طرقات جانبية، لأن عمال الصناعات التعدينية المضربين عن العمل كانوا يحتلون الشوارع، ولم تسمح الشرطة بالعبور عند التقاطعات إلا في حالات الضرورة القصوى. وعندما كانت سيارتهما، القادمة من أزقة أكثر عتمة وأقل ضجة، تعبر أحد الشوارع العريضة الأشبه بالساحات، كان يبدو لهما الأفق من الجانبين ممتدًا بلا نهاية والأرصفة حاشدة بكتلة بشرية تتحرك بخطوات زاحفة، وغناؤها يعلو أكثر اتحادًا مما لو كان صوت إنسان واحد. ولكن في مسرب الشارع الخالي من المتظاهرين كان يرى المرء هنا وهناك شرطيًا على جواده الساكن أو أحد حملة الأعلام أو اللافتات المكتوبة والمشدودة بالحبال فوق الشارع أو أحد القادة العماليين محاطًا بمساعدين ومنظمين أو حافلة ترام لم تسرع كفاية لتنجو من المظاهرة فتوقفت خالية ومُطفِئة أنوارها، فيما جلس السائق والجابي على منصة الركوب. وكانت هناك مجموعات صغيرة من الفضوليين تقف بعيدًا عن المتظاهرين الحقيقيين، ولم تبرح أماكنها، رغم بقائها جاهلة بحقيقة الأحداث. أما كارل فاستند بسرور إلى ذراع السيد

بولوندر التي أحاطه بها، مبتهجًا إلى حد كبير بقناعة أنه عما قريب سيكون ضيفًا مرحبًا به، في منزل ريفي مضاء، محاط بالجدران وتحرسه الكلاب. ومع أنه بسبب نعاس بدأ يغشاه، لم يعد يستوعب كل ما يقوله السيد بولوندر دون أخطاء، أو على الأقل دون انقطاعات، فقد أخذ بين الحين والآخر يمسك بزمام نفسه ويمسح عينيه، ليتأكد لفترة أخرى من أن السيد بولوندر لم يلحظ نعاسه، فهذا هو ما أراد تجنبه بأي ثمن.

(٣) منزل ريفي قرب نيويورك

«لقد وصلنا»، قال السيد بولوندر، وتحديدًا في إحدى لحظات شرود كارل. توقفت السيارة أمام منزل ريفي، كان حسب طراز بيوت الأثرياء الريفية في محيط نيويورك، أوسع مساحة وأعلى ارتفاعًا مما هو ضروري عادة بالنسبة إلى بيت ريفي لخدمة أسرة واحدة لا غير. ولمّا كان الطابق الأول فقط مضاءً، لم يكن بمقدور المرء تقدير مدى ارتفاعه. في المقدمة كانت هناك أشجار كستناء تصدِر حفيفًا، وبينها كانت بوابة الحديقة مفتوحة، وثمة درب قصير يؤدي إلى الدرج الخارجي للمنزل. نتيجة شعوره بالتعب أثناء ترجله من السيارة اعتقد كارل أن السفرة قد استغرقت وقتًا طويلًا حقًا، وفي العتمة بين أشجار الكستناء سمع صوت فتاة إلى جانبه يقول: «أخيرًا ها هو السيد جيكوب». «اسمي روسمَن»، قال كارل وأمسك يد الفتاة الممدودة إليه، وقد تبيَّن الآن ملامح جسمها.

«إنه ابن أخت السيد جيكوب»، قال السيد بولوندر موضحًا، «واسمه هو كارل روسمَن».

«هذا لا يغير شيئًا من سرورنا باستضافته لدينا»، قالت الفتاة التي لم تبدِ اهتمامًا بالأسماء.

ورغم ذلك سأل كارل وهو يمشي بين السيد بولوندر والفتاة باتجاه المنزل: «وأنتِ الآنسة كلارا؟».

«نعم»، قالت وقد سقط من إضاءة المنزل بعض الضوء على وجهها الذي أدارته نحو كارل، «لكنني لم أرغب في أن أقدم نفسي هنا في العتمة».

«هل كانت بانتظارنا عند بوابة الحديقة؟» تساءل كارل في نفسه وقد بدأ أثناء المشي يصحو تدريجيًا.

«بالمناسبة لدينا ضيف آخر هذا المساء»، قالت كلارا. –«لا يمكن!» قال السيد بولوندر بانزعاج. –«السيد غرين»، قالت كلارا.

«متى وصل؟» سأل كارل، كمن تملكه حدس.

«قبل لحظة. ألم تسمعا سيارته أمام سيارتكما؟» أجابت كلارا.

رفع كارل نظره إلى السيد بولوندر ليستطلع حكمه على الأمر، لكنه كان واضعًا يديه في جيبي بنطاله وقد ثقلت خطواته على الدرب.

«لا فائدة، فأن يسكن المرء على مسافة قريبة من نيويورك فقط، لن ينجيه من الإزعاجات. لابد لنا حتمًا من أن ننقل مقر إقامتنا إلى مكان أبعد، ولو اضطررت لقضاء نصف الليل في قيادة السيارة حتى أصل إلى البيت».

وبقوا واقفين عند الدرج الخارجي.

«لكن السيد غرين لم يزرنا هنا منذ وقت طويل»، قالت كلارا، التي كانت على ما بدا موافقة كليًا على رأي أبيها، غير أنها أرادت إخراجه من ضيقه كي يهدأ. –«ما سبب مجيئه مساء اليوم تحديدًا»، قال السيد بولوندر وتدحرجت الكلمات بغضب على شفته السفلى الغليظة، التي ترجرج لحمها الثقيل في حركة شديدة.

«فعلًا!».

«ربما سيغادر بعد قليل ثانية»، علق كارل مندهشًا من نفسه لحالة التفاهم التي وجد نفسه فيها مع أناس كانوا بالأمس غرباء عنه كليًا.

«لا، أبدًا»، علقت كلارا، «لديه صفقة كبيرة للبابا، وقد تطول مناقشتها جدًا، كما هددني مازحًا بأن عليَّ، إذا أردتُ أن أكون مضيفة لطيفة، أن أصغي حتى الصباح».

«وهذا أيضًا إذًا. هذا يعني أنه سيبقى الليلة هنا!» قال السيد بولوندر بانزعاج، وكأن حد السوء الأقصى قد بُلِغ. «لدي رغبة حقيقية»، قال من ثم مستعيدًا لطفه مع الفكرة الجديدة، «لدي رغبة حقيقية يا سيد روسمَن أن آخذك بالسيارة مجددًا وأعيدك إلى خالك. مساء هذا اليوم فسد من أوله، ومَن يدري متى سيسمح لك خالك بزيارتنا ثانية. أما إذا أعدتك إليه اليوم، فلن يستطيع عما قريب أن يرفض الزيارة».

وأمسك بيد كارل لكي ينفذ خطته. لكن كارل لم يتحرك، ورجت كلارا أباها أن يتركه هنا، فعلى الأقل هي وكارل لن يتمكن السيد غرين من أن يزعجهما إطلاقًا، وأخيرًا أدرك السيد بولوندر بنفسه أن قراره لم يكن الأصوب. وفوق هذا وذاك كان الأشد حسمًا للأمر ربما، هو سماعهم صوت السيد غرين وهو يصيح بهم من أعلى الدرج: «ماذا جرى معكم؟».

«تعالا»، قال السيد بولوندر وانعطف إلى الدرج الخارجي، فتبعه كارل وكلارا اللذان تفحصا أحدهما الآخر تحت ضوء الدرج.

«يا لشفتيها الحمراوين» قال كارل في نفسه وفكر بشفتي السيد بولوندر وبجمال ما صارتا إليه عند الابنة.

«بعد تناول طعام العشاء»، هكذا قالت كلارا، «سنذهب فورًا، إن كان هذا يناسبك، إلى جناحي، كي نخلص على الأقل من السيد غرين هذا، ما دام على البابا أن ينشغل معه. وأنت ستكون بالغ اللطف فتعزف لي على البيانو، إذ حكى لي البابا عن جودة عزفك، في حين أني للأسف لست قادرة على ممارسة الموسيقى، ولا ألمس جهاز البيانو، على الرغم من حبي الشديد للموسيقى».

كان كارل موافقًا تمامًا على اقتراح كلارا، وإن كان يرغب بكل سرور أيضًا في سحب السيد بولوندر إلى جلستهما. ولكن أمام ضخامة السيد غرين –كان كارل قد تعود على ضخامة السيد بولوندر-، التي أخذت تتجلى أمامهم وهم يصعدون الدرج، تراجع أي أمل لكارل في استدراج السيد بولوندر بطريقة ما من هذا الرجل.

استقبلهم السيد غرين في غاية التعجل، وكأن ثمة الكثير مما يجب استدراكه، فأخذ بذراع السيد بولوندر ودفع كارل وكلارا أمامه إلى غرفة الطعام، التي بدت احتفالية جدًا، مؤكدة بصورة مزدوجة، الأسف لوجود السيد غرين، وذلك بمنظر الورود المنسقة على الطاولة وكأنها تتوثب من بين الأوراق النضرة. وكارل الذي وقف بجانب الطاولة منتظرًا جلوس الآخرين، ومبتهجًا بأن الباب الزجاجي الكبير المطل على الحديقة سيبقى مفتوحًا، لأن عطرًا قويًا كان يسري إلى الداخل كما لو تحت تعريشة، رأى السيد غرين يتوجه لاهثًا ليغلقه، منحنيًا نحو المزلاج السفلي ثم منتصبًا نحو العلوي، وكل ذلك بسرعةٍ كما لو كان شابًا، بحيث أن الخادم القادم مسرعًا لم يجد ما يفعله. وأولى كلمات السيد غرين على المائدة كانت تعبيرًا عن دهشته لحصول كارل من خاله على الإذن للقيام بهذه الزيارة. كان يملأ ملعقته بالحساء مرة تلو أخرى ويرفعها إلى فمه، وهو يشرح لكلارا إلى يمينه وللسيد بولوندر إلى يساره، سبب دهشته الكبيرة ورعاية الخال الكبيرة لكارل وأن حبه له قد بلغ درجة تجاوزت ما يمكن تسميته بحب خال لابن أخته.

«لا يكفي أن يتدخل هنا بلا ضرورة، فيتدخل في الوقت نفسه بيني وبين الخال»، فكر كارل ولم يستطع أن يبلع حتى ملعقة واحدة من الحساء الذهبي اللون. لكنه لم يبغ أن يُلاحَظ عليه مدى انزعاجه، فأخذ يبلع الحساء بصمت. جرى تناول الطعام في بطء وكأنه بلاء. السيد غرين فحسب وكحد أقصى كلارا أيضًا كانا نشيطين ووجدا الفرصة أحيانًا لضحكة مقتضبة. لم يتدخل السيد بولوندر في الحديث إلا لمامًا، عندما كان السيد غرين يتطرق لأمور تجارية. ومع ذلك سرعان ما كان ينسحب من مثل هذه الأحاديث، ليفاجئه بها السيد غرين على نحو غير متوقع بعد حين. إلا أن السيد غرين أكد بوضوح –وهنا كان كارل يتنبه وكأن ثمة ما يُهدِّد، فتُضطر كلارا إلى لفت نظره إلى أن اللحم المشوي أمامه يبرد وهو جالس إلى مائدة العشاء-، أنه لم يكن ينوي القيام بهذه الزيارة غير المتوقعة. فحتى لو كانت الصفقة، التي سيتم الحديث فيها لاحقًا، ذات أهمية ملحّة، فأهم ما فيها على الأقل كان يمكن مناقشته في المدينة اليوم، وتأجيل الأمور الثانوية إلى الغد أو إلى وقت لاحق. وفعليًا قبل انتهاء الدوام بوقت طويل ذهب إلى مكتب السيد بولوندر، لكنه لم

يجده هناك، ما اضطره للاتصال ببيته هاتفيًا وإبلاغهم أنه سيتغيب هذه الليلة، والمجيء بسيارته إلى هنا.

«إذًا يجب عليّ أن أقدم اعتذاري»، قال كارل بصوت عالٍ قبل أن تتاح الفرصة لأحد آخر للإجابة، «فالذنب ذنبي أنا في خروج السيد بولوندر من مكتبه باكرًا اليوم، وهذا يؤسفني جدًا».

غطى السيد بولوندر الجزء الأكبر من وجهه بفوطة المائدة، في حين وجهت كلارا ابتسامة لكارل، لكنها لم تكن ابتسامة مشاركة، بقدر ما ابتغت بطريقة ما التأثير فيه.

«لا داعي للاعتذار»، قال السيد غرين، الذي كان في تلك اللحظة يقطِّع حمامة بسكينه الحادة، «بالعكس تمامًا، فأنا مسرور جدًا بوجودي هذا المساء في هذه الصحبة المريحة، بدل أن أتعشى وحدي في البيت، حيث تخدمني مدبرة شؤون بيتي العجوز، التي بات يصعب عليها دون عناء، أن تخطو من الباب حتى طاولتي، إلى درجة أن بإمكاني الجلوس طويلًا ومرتاحًا على كنبتي، إذا أردت مراقبتها وهي تقطع هذه المسافة. قبل مدة قصيرة أصريت على أن يجلب الخادم الأطعمة حتى باب غرفة الطعام، أما الجزء الباقي من الباب حتى طاولتي فهو لها وحدها، حسبما فهمتُ منها».

«يا إلهي، ما أشد إخلاصها!» قالت كلارا.

«نعم، مازال هناك إخلاص في هذه الدنيا»، قال السيد غرين وساق لقمة إلى فمه، تلقفها لسانه بحركة سريعة، حسبما لاحظ كارل صدفة، ودهمه شعور بالغثيان فنهض واقفًا. في الوقت نفسه تقريبًا أمسك السيد بولوندر وكلارا بيده، كل من جهته.

«عليك أن تبقى جالسًا»، قالت له كلارا، وعندما جلس ثانية، همست له: «نحن الاثنان سنختفي معًا عما قريب، فاصبر قليلًا».

في أثناء ذلك تابع السيد غرين الانشغال بطعامه بهدوء، وكأن من واجب السيد بولوندر وكلارا تهدئة كارل، عندما يسبب هو له شعورًا بالغثيان.

ونتيجة الدقة التي كان السيد غرين يتعامل بها مع كل صحن من صحون الوجبة، استطال وقت تناول الطعام، ولاسيما أنه كان يرحب دونما تعب بكل صحن جديد، الأمر الذي ولَّد انطباعًا حقيقيًا بأنه إنما يبغي استراحة جذرية من مدبرة بيته العجوز. وكان بين الحين والآخر يمتدح فن الآنسة كلارا في إدارة شؤون المنزل، الأمر الذي أرضى شعورها بوضوح، فيما كان كارل أميل إلى صده ظنًا منه أن غرين يهاجمها. لكن غرين لم يكتف بها فقط، بل أبدى أسفه مرارًا، دون أن يرفع نظره عن صحنه، لفقدان كارل بشكل يثير الانتباه لشهية الأكل. فدافع السيد بولوندر عن حالة شهية كارل، في حين أنه كمضيف، كان يُفترض به تشجيع كارل على الأكل. ونتيجة شعور كارل بالمعاناة من الضغط عليه طوال مدة تناول الطعام، ارتفعت حساسيته، بحيث فسر ملاحظة السيد بولوندر على أنها غير لطيفة، رغم أن إدراكه السليم كان ينفي ذلك. وانطلاقًا من حالته هذه، اندفع لفترة قصيرة في أكل سريع وكثير بصورة غير ملائمة، ليعود من ثم ولمدة طويلة إلى ترك الشوكة والسكين من يديه بتعب، فبات الأقل حركة بين الجماعة، ما أربك الخادم الذي كان يقوم على ملء الصحون، فلم يدر كيف يتصرف معه. «غدًا سوف أحكي للسيد السيناتور كيف أنك بعدم أكلك أسأت إلى الآنسة كلارا»، قال السيد غرين، واكتفى للتعبير عن نية المزاح في كلماته، بالطريقة التي حرك بها الشوكة والسكين بين يديه.

«يكفي أن تنظر إلى الفتاة لترى مدى حزنها»، تابع غرين وأمسك بأسفل ذقن كلارا. تركته يفعل ذلك وأغمضت عينيها.

«يا صغيرتي المسكينة»، هتف واستند إلى ظهر كرسيه وضحك بوجهه الشديد الاحمرار وبقوة الرجل المتخم. حاول كارل دونما جدوى تفسير سلوك السيد بولوندر، الذي كان جالسًا أمام صحنه محدقًا فيه، وكأن الحدث الفعلي المهم يجري فيه. لم يجذب كرسي كارل إلى جانبه، وإذا قال شيئًا، كان يخاطب به الجميع، فلم يكن لديه كلام خاص ليوجهه

إلى كارل تحديدًا، وفوق ذلك صبر على أن غرين، هذا الأعزب العتيق والمجرب النيويوركي يلمس كلارا بنيةٍ صريحة، ويهين كارل ضيف بولوندر أو يعامله على الأقل كطفل، ومن يدري أية أفعال يُبيّت وقد استعد لها.

بعد أن رُفعت المائدة -كان غرين أول من نهض، إذ شعر بالمزاج العام، فنهض الجميع معه- ذهب كارل وحده نحو إحدى النوافذ الضخمة، المجزأة بشرائح خشبية ضيقة بيضاء، المؤدية إلى الشرفة الأرضية، والتي تبيّن له عندما اقترب منها، أنها في واقع الأمر أبواب فعلية. ما الذي تبقى من النفور الذي أبداه السيد بولوندر وابنته في بادئ الأمر تجاه غرين، والذي بدا لكارل في حينه غير مفهوم نوعًا ما؟ إنهما يقفان الآن معه ويومئان له برأسيهما. كان الدخان المنبعث من سيجار غرين، الذي ضيَّفه إياه السيد بولوندر، ينتشر في القاعة حاملًا معه نفوذ غرين إلى أركان وزوايا، ما كان ليدخلها بشخصه أبدًا. وكان السيجار من ذلك النوع الثخين جدًا، الذي اعتاد والده في الوطن أن يحكي عنه أحيانًا، كمن يحكي عن حقيقة، ربما لم يسبق له أن رآها بعينيه أبدًا. وعلى الرغم من وقوف كارل بعيدًا، فقد أحس بحكة في أنفه من الدخان، كما بدا له سلوك السيد غرين مهينًا، مع أنه من موقعه البعيد لم يشمله إلا بنظرة وحيدة وسريعة. ولم يعد من المستبعد الآن بالنسبة إليه أبدًا، أن يكون سبب تأخر خاله في منحه الإذن للقيام بهذه الزيارة، هو معرفته بضعف شخصية السيد بولوندر، فتوقعَ نتيجة لذلك، دون أن يتنبأ به بدقة، بل استشفه كاحتمال، أن يُساء إلى كارل في هذه الزيارة. والفتاة الأمريكية لم تنل إعجابه، رغم أنه لم يتصور أبدًا أن تكون أجمل مما هي عليه. حتى أنه فوجئ، منذ أن انشغل بها السيد غرين، بالجمال الكامن في وجهها، ولاسيما ببريق عينيها اللتين لا تفتران عن الحركة. كما لم يسبق له أن رأى ثوبًا مشدودًا بهذه الطريقة على الجسم مثل ثوبها، ولاسيما أن الثنايا الصغيرة في القماش المتين الناعم، الذي يميل لونه إلى الصفرة، كانت تُبرز قوة هذا الشد. ومع ذلك لم يأبه كارل بأي شيء يتعلق بها، وكان بوده الاستغناء بسرور عن أن تقوده إلى غرفتها، لو كان بوسعه بدلًا من ذلك، فتح هذا الباب، الذي وضع كلتا يديه على أكرته، لأي احتمال بأن يخرج ويركب السيارة، وفي حال كون السائق نائمًا، أن يمشي لوحده حتى نيويورك. كانت الليلة

ذات السماء الصافية مع القمر البدر الذي يحبه ملكًا مشاعًا لأي كان، وأن ينتابه ربما الخوف في العراء خارجًا بدا له بلا معنى. فتخيل –وشعر لأول مرة في هذه القاعة بالارتياح– كيف سيفاجئ خاله صباحاً –إذ إنه حتمًا لن يصل إلى البيت مشيًا قبل الصباح. صحيح أنه لم يدخل غرفة نوم خاله مطلقًا ولا يعرف حتى موقعها، لكنه أراد أن يسأل عنها، وأراد من ثم أن يقرع الباب، وعند سماعه بالنبرة الرسمية «ادخل!»، سيدخل راكضًا ليفاجئ خاله جالسًا في سريره بالبيجاما ملتفتًا نحو الباب بعينين مندهشتين، وهو الذي لم ير خاله حتى الآن إلا في كامل ثيابه المزررة حتى العنق. قد لا يكون هذا في الواقع أمرًا كبيرًا، ولكن على المرء تصور نتيجته المحتملة. فقد يتناول الفطور لأول مرة مع خاله سوية، الخال في فراشه، وهو على الكنبة، والفطور على طاولة صغيرة بينهما، وقد يتحول هذا الفطور المشترك إلى ترتيب دائم، وبناء على هذا النوع من الفطور، يُحتمل، الأمر الذي سيصعب تجنبه، أن يلتقيا عدة مرات في اليوم، بدلًا من مرة واحدة، ما سيؤدي إلى أن أحاديثهما المتبادلة ستصير أكثر صراحة. ففي نهاية المطاف كان نقص هذه الأحاديث الصريحة هو السبب في أنه كان اليوم أقل طاعة لخاله، والتعبير الأفضل، أكثر عنادًا. وإذا اضطر اليوم لقضاء الليلة هنا –وهو الأرجح للأسف، حسبما بدا، رغم تركهم إياه واقفًا هنا بجانب الباب ليسلي نفسه بنفسه-، فلربما تتحول هذه الزيارة التعيسة إلى منعطف نحو الأفضل في العلاقة مع الخال، ولربما خطرت في بال الخال أفكار مشابهة في هذا المساء.

كان يشعر بشيء من الارتياح عندما استدار، ليجد كلارا واقفة بجانبه وهي تقول: «ألم يعجبك أبدًا الحال عندنا؟ ألا تريد أن تشعر ولو قليلًا كأنك في بيتك؟ تعال معي، أريد أن أجرب المحاولة الأخيرة».

قادته عبر القاعة إلى الباب. كان السيدان جالسين إلى طاولة جانبية يشربان من كأسين طويلين مملوءين بشراب ذي رغوة خفيفة، لا يعرفه كارل واشتهى أن يتذوقه. كان السيد غرين يسند كوعه على الطاولة وقد اقترب بوجهه ما أمكن من السيد بولوندر؛ ولو أن المرء لا يعرف السيد بولوندر لظن بكل ثقة، أنهما يتباحثان في مسألة إجرامية وليس تجارية. وفيما تابع السيد بولوندر كارل حتى الباب بابتسامة ودودة، لم يلتفت السيد غرين إطلاقًا

نحو كارل، علمًا بأن المرء عادة يتبع لا شعوريًا اتجاه نظرات محدثه قبالته. وبدا أن سلوك غرين هذا يعبر عن قناعته بأن على كل منهما، كارل وغرين، أن يحاول هنا الاعتماد على قدراته ليدبر أموره، والرابطة الاجتماعية الضرورية فيما بينهما ستوجد بمرور الوقت إما بانتصار أحدهما أو بإفنائه. «إذا كان هذا هو قصده»، قال كارل في نفسه، «فهو لا شك مجنون. فأنا حقًا لا أبغي أي شيء منه وعليه أن يدعني لشأني».

ما أن وطأت قدمه الدهليز حتى خطر في باله أنه لربما تصرف بقلة احترام، فبعينيه المثبتتين على غرين، ترك لكلارا تقريبًا أن تجره من القاعة جرًا. لكنه من ثم مشى بحذائها بطواعية أكبر. على الطريق عبر الدهاليز لم يثق بعينيه أول الأمر، إذ رأى كل عشرين خطوة خادمًا في زي الخدم الرسمي، يقف حاملًا بكلتيّ يديه شمعدانًا ذا ساعد ثخين.

«التمديدات الكهربائية الجديدة لم تصل عندنا إلا إلى قاعة الطعام»، شرحت كلارا، «فهذا المنزل اشتريناه منذ وقت قريب فقط، وكلفْنا ورشة بإعادة بنائه جذريًا، بقدر ما يمكن للمرء إعادة بناء بيت ذي طراز معماري عتيق».

«إذن هناك بيوت عتيقة في أمريكا أيضًا»، قال كارل.

«طبعًا»، قالت كلارا ضاحكة وهي تسحبه معها، «لديكَ مفاهيم عجيبة عن أمريكا».

«لا يجوز أن تسخري مني»، قال بانزعاج، فهو في الحساب الأخير يعرف أوروبا وأمريكا، وهي تعرف أمريكا فقط.

في أثناء عبورهما مدت كلارا ذراعها قليلًا ودفعت بابًا وهي تقول دون أن تتوقف: «هنا سوف تنام».

وطبعًا أراد كارل أن يلقي نظرة فورًا على الغرفة، لكن كلارا أوضحت بنفاد صبر وبصوت أشبه بالصراخ بأن هناك وقتًا لذلك وعليه الآن أن يأتي معها. ولبرهة تبادلا الشد والجذب في الدهليز، وأخيرًا قرر كارل أنه ليس مجبرًا على تنفيذ رغبة كلارا في كل شيء، فانتزع

نفسه منها ودخل إلى الغرفة. فاجأته عتمة من النافذة المفتوحة، تبين أن سببها أغصان قمة شجرة تتمايل هناك بكامل انتشارها. سمع تغريد عصافير. في الغرفة نفسها لم يكن من الممكن تمييز أي شيء، فضوء القمر لم يصل إليها بعد. شعر كارل بندم لأنه لم يحضر معه مصباح الجيب الذي أهداه إياه خاله. ففي هذا المنزل ثمة ضرورة ملحة لمصابيح الجيب، فلو كان هناك عدد منها، لتمكن المرء من إرسال الخدم إلى النوم. جلس على رف النافذة وأصاغ سمعه إلى الخارج. فزع عصفور وبدا أنه يشق طريقه إلى عمق الشجرة العتيقة. سُمعت صافرة قطار ضواحي نيويورك من مكان ما. عدا ذلك كان السكون مهيمنًا. ولكن ليس طويلًا، إذ سرعان ما دخلت كلارا مسرعة وصاحت بغضب واضح: «ما معنى هذا؟» وضربت بيدها على ثوبها. أراد كارل في البداية أن يجيبها، لو كانت أكثر تهذيبًا، لكنها مشت نحوه بخطوات واسعة وهي تقول: «وإذن! أتريد أن تأتي معي أم لا؟» ودفعته في صدره بقوة، إما عامدة وإما بسبب انفعالها، بحيث كاد أن يسقط من النافذة لو لم ينزلق في اللحظة الأخيرة من رف النافذة إلى أرض الغرفة.

«كدت أهوي إلى الخارج»، قال لائمًا.

«للأسف أن هذا لم يحدث. ما سبب شقاوتك بهذا الشكل! سأرميك مرة ثانية إلى الأسفل».

وفعلًا طوقته وحملته -وقد نسي نتيجة ذهوله أن يُثقِل نفسه– بجسمها الذي صقلته ممارسة الرياضة، حتى النافذة تقريبًا، حيث صحا لنفسه وفتل ردفيه فحرر نفسه منها وطوقها بساعديه، فقالت فورًا: «أنت تؤلمني». لكنه كان يرى بأنه لا يجوز له أن يفلتها الآن. وترك لها إمكانية أن تخطو كما تشاء، وتبع حركاتها دون أن يفلتها، ولاسيما أن ثوبها الضيق المشدود كان يُسهِّل تطويقها.

«اتركني»، همست ووجهها المتقد لصق وجهه تقريبًا، وكان عليه أن يجهد نفسه ليتمكن من رؤيتها، فإلى هذا الحد كانت ملتصقة به. «اتركني، سأعطيك شيئًا جميلًا». «لماذا تتنهد بهذه الطريقة»، فكر كارل، «لا يمكن أن تكون متألمة، فأنا لا أضغط عليها»، ولم يفلتها. ولكن فجأة، بعد لحظة شرود ووقوف صامت، أحس ثانية بتنامي قوتها على جسمه، وتمكنت من

التملص من طوقه، وأمسكته من الأعلى إمساكًا محكمًا كاد يشل حركته، وصدت ساقيه بقدميها بتقنية مصارعة غريبة، ودفعته أمامها باتجاه الجدار بخطوات بالغة الانتظام مع حركة تنفسها. هناك كانت توجد أريكة، ألقت عليها كارل وقالت دون أن تنحني كثيرًا عليه: «تحرك الآن، إن كنت تستطيع».

«أنت قطة، قطة مسعورة»، هذا ما تمكن كارل أن يقوله في خضم مزيج الغضب والخجل الذي وجد نفسه فيه، «أنت مجنونة، أيتها القطة المسعورة!».

«انتبه إلى كلامك»، قالت وجعلت يسراها تنزلق على عنقه، وبدأت تخنقه بقوة، بحيث لم يكن قادرًا على فعل أي شيء آخر سوى التقاط أنفاسه، فيما لمست خده بيمناها، كمن يجرب لمسه، ثم أخذت ترفعها في الهواء أكثر فأكثر لتتمكن في أية لحظة من أن تهوي بها بصفعة، وهي تسأله: «ماذا لو أني أريد أن أعاقبك على سوء سلوكك تجاه سيدة، بصفعة مدوية ترافقك إلى بيتك؟ قد يفيدك هذا على طريق حياتك مستقبلًا، رغم أنه لن يكون ذكرى جميلة. إني أشفق عليك، فأنت فتى وسيم نوعاً ما، ولو أنك تعلمت مصارعة دْجيتْسو اليابانية لتمكنتَ ربما من أن توسعني ضربًا. ورغم ذلك، رغم ذلك، ثمة ما يغويني بقوة لأن أصفعك وأنت مرمي هنا الآن. قد أشعر بالندم لاحقًا، ولكن إنْ فعلتُها، فليكن بعلمك منذ الآن، أني أفعلها ضد إرادتي. وعندها لن أكتفي بصفعة واحدة فقط، بل سأصفعك يمينًا ويسارًا حتى يتورم خداك. ومن المحتمل أن تكون من ذوي الشهامة -أكاد أرغب في اعتقاد ذلك– فلن ترغب في متابعة حياتك مع هذه الصفعات، فتغادر هذه الدنيا باختيارك. ولكن لماذا كنتَ عدائيًا تجاهي بهذا الشكل؟ ألا أعجبك؟ ألا يستحق الأمر أن ترافقني إلى غرفتي؟ احذر! كدت الآن أن أصفعك سهوًا. إذن، إذا شئتَ أن أطلق سراحك اليوم، فليكن سلوكك من ثم لائقًا. أنا لست خالك، الذي بوسعك أن تعانده. إضافة إلى ذلك أريد أن أنبهك إلى أمر، إذا تركتك الآن دون أن أصفعك، فإياك أن تظن أن وضعك الحالي وصفعك فعليًا أمران متشابهان من منظور الشرف. وعلى فرض أنك تريد تصديق ذلك، فإني أفضل حقًا أن أصفعك. تُرى ماذا سيقول ماك إذا حكيت له عن كل ما جرى؟».

عند إيرادها ذكر ماك، رفعت قبضتها عن كارل، وفي خضم أفكاره المشوشة بدا له ماك محرِّرًا. بقي برهة شاعرًا بيد كلارا على عنقه، فحرك رقبته قليلًا ثم رقد ساكنًا.

أمرته أن ينهض واقفًا، فلم يجبها ولم يتحرك. أشعَلت في مكان ما شمعة، فأضيئت الغرفة، وظهر على السقف نموذج خطوط متعرجة زرقاء، أما كارل فكان راقدًا ورأسه على وسادة الأريكة في نفس الوضعية التي تركته عليها كلارا، دون أن يحركه قيد أنملة، فيما جالت كلارا في الغرفة وثوبها يحف حول ساقيها إلى أن توقفت لبرهة طويلة، ربما عند النافذة. ثم سمعها تسأل: «هل انتهيت من المعاندة؟».

صعُب على كارل ألّا يجد الراحة في هذه الغرفة، التي خصصها له السيد بولوندر لهذه الليلة. فهذه الفتاة تتجول في أركانها، تتوقف وتتكلم، وهو قد ضجر منها بصورة لا توصف. كانت رغبته الوحيدة أن ينام بسرعة ثم أن يغادر هذا المكان. لم يعد يريد أن يأوي إلى الفراش، بل أن يبقى هنا على الأريكة. وهو يترقب أن تغادر كي يقفز وراءها إلى الباب ويقفله، وليرمي نفسه من ثم على هذه الأريكة ثانية. كان يشعر بحاجة ملحة إلى أن يتمطى ويتثاءب، ولكن ليس في وجود كلارا. وهكذا بقي راقدًا يحدق في السقف مع الشعور بتنامي جمود وجهه، فيما تحوم ذبابة حوله وتومض أمام عينيه، دون أن يعرف حقًا ماهي. اقتربت كلارا منه ثانية وانحنت في اتجاه نظراته، ولو لم يملك زمام نفسه لاضطر إلى النظر إليها.

قالت: «سأذهب الآن. قد تشعر لاحقًا برغبة في المجيء إلي. باب غرفتي هو الرابع، محسوبًا من هذا الباب، على هذا الجانب من الدهليز. تتجاوز إذًا ثلاثة أبواب، والذي تصل إليه بعدها هو الصحيح. لكنك أتعبتني جدًا أنا أيضًا. أي أنني لن أجلس بانتظارك، ولكن إن أردت أن تأتي، فتعال. تذكر أنك وعدتني بأن تعزف لي على البيانو. ولكن ربما أكون قد أجهدتك تمامًا ولم تعد قادرًا على الحركة، في هذه الحالة ابق وخذ قسطك من النوم. حاليًا لن أذكر شيئًا لوالدي عن عراكنا؛ أقول هذا في حال أن الأمر يقلقك». ومن ثم غادرت الغرفة بقفزتين، رغم التعب المزعوم.

اعتدل كارل في جلسته فورًا، فهذا الاستلقاء لم يعد محتملًا. ولكي يحرك جسمه قليلًا مشى إلى الباب، فتحه وألقى نظرة على الدهليز. ما أحلك الظلام هناك! وشعر بالسرور عندما أغلقه وقفله وعاد للوقوف عند الطاولة في ضوء الشمعة. كان قراره عدم البقاء في هذا المنزل، بل النزول إلى السيد بولوندر في الطابق الأول وإخباره صراحة بكيفية تعامل كلارا معه –ولم يبالِ إطلاقًا بالاعتراف بهزيمته-، وبهذا السبب الكافي سيطلب إذنه للعودة إلى بيته، إما بالسيارة أو مشيًا. وإذا كان لدى السيد بولوندر أي اعتراض على العودة إلى البيت فورًا، فسيرجوه كارل كحد أدنى أن يأخذه أحد الخدم إلى أقرب فندق. بهذه الطريقة، حسبما خطط كارل، لا يتعامل المرء عادة مع مضيفين لطيفين، لكن الأكثر غرابة كانت طريقة التعامل مع الضيف، مثلما فعلت كلارا. ثم إنها قد اعتبرت عدم ذكرها شيئًا حاليًا للسيد بولوندر عن العراك معه، بمثابة بادرة ودّية، مع أنه أمر فاضح لا يصدق. نعم، فهل كان كارل مدعوًا لخوض مصارعة؛ وكم كان مخجلًا بالنسبة إليه أن تبطحه فتاة، أمضت معظم وقتها على الأرجح في تعلم حركات المصارعة؟ ولم ينقص سوى أن تتلقى تعليمها من ماك تحديدًا. فلتحكي له كل شيء؛ لا يهم، فهو حتمًا عاقل، وكارل يعرف ذلك، رغم أن الفرصة لم تسنح له قط ليتعرف بدقة على هذا الجانب منه. كما يعرف كارل أيضًا، أن ماك عندما سيعلِّمه، فسيحرز كارل خطوات تقدم أكبر بكثير مما كانت كلارا لتحققه. وحينذاك سوف يعود إلى هنا ذات يوم، دون دعوة على الأرجح، وسيفحص المكان مسبقًا طبعًا، لأن معرفتها بدقة كانت ميزة كلارا اليوم. ومن ثم سيحمل كلارا هذه وينفض بها هذه الأريكة الصغيرة نفسها، التي بطحته عليها اليوم.

أما الآن فالأمر المهم الوحيد، هو التعرف على طريق العودة إلى القاعة، حيث يُحتمل أنه قد وضع قبعته في مكان غير مناسب نتيجة شرود فكره أول الأمر. وأراد طبعًا أن يأخذ الشمعة معه، ولكن حتى بوجود ضوئها لن يكون من السهل عليه تعرف وجهته. فهو لا يعرف مثلًا إنْ كانت هذه الغرفة في الطابق نفسه كما القاعة. فكلارا في أثناء المجيء كانت تسحبه طوال الوقت، بحيث لم يتمكن من استطلاع ما حوله. كما أن السيد غرين والخدم حاملي الشمعدانات قد شغلوا باله؛ باختصار، إنه حقًا لا يعرف الآن، ما إنْ كانا قد اجتازا

درجًا واحدًا أو اثنين أو ربما لم يصعدا أي درج. من إطلالة النافذة استنتَج أن الغرفة مرتفعة، ولذلك بدأ يتخيل أنهما قد صعدا أكثر من درج أثناء المجيء، ولكن حتى للوصول إلى مدخل المنزل كان لابد للمرء من صعود عدة درجات، فلماذا لا يمكن أن يكون هذا الجانب من المنزل مرتفعًا أيضًا؟ ولكن على الأقل لو كان هناك بصيص نور منبعث من باب إحدى الغرف في الدهليز، أو صوت مهما كان خافتًا يتناهى إليه من بعيد! ساعة جيبه، وهي هدية من الخال، كانت تشير إلى الحادية عشرة. أخذ الشمعة وخرج إلى الدهليز. ترك الباب مفتوحًا، ففي حال أن بحثه كان سدى، سيتمكن على الأقل من العودة إليها، ومن ثم للوصول إلى باب غرفة كلارا في حالة الضرورة القصوى. وابتغاء التأكد، لئلا ينغلق الباب من نفسه، سده بكرسي. في الدهليز توضح الوضع السيء –مشى كارل يسارًا مبتعدًا عن باب كلارا– فواجه تيار هواء قادرًا رغم ضعفه على أن يطفئ الشمعة، ما اضطره لحماية اللهب بيده، وإلى التوقف بين الحين والآخر، كي يرتاح اللهب من ضغط تيار الهواء. لذلك كان تقدمه بطيئًا بحيث بدا الطريق مضاعف الطول. اجتاز كارل مسافات طويلة من جدران كانت خالية من الأبواب، ولا يمكن للمرء تصور ما يوجد وراءها. ثم عادت الأبواب للظهور متقاربة جدًا، حاول فتح معظمها، لكنها كانت مقفلة والغرف على الأرجح غير مأهولة. كان هدرًا للمكان لا مثيل له، وفكر كارل بأحياء نيويورك الشرقية، التي وعده خاله بأن يريه إياها، حيث يُفترض أن تسكن عدة عائلات في غرفة واحدة، وكل عائلة تشغل ركنًا منها، يحيط الأطفال فيه بوالديهم. وهنا تتواجد كثرة من الغرف الخالية، وسبب وجودها الوحيد هو أنْ تردِّد صدى الخواء عند قرع الباب. بدا السيد بولوندر لكارل مضللًا من قبل أصدقاء مزيفين، وقد أفسده فرط حبه لابنته. وحكم الخال عليه كان صائبًا لا شك، لكن تمسك الخال بمبدأ عدم التأثير في تقييم كارل للناس يحمل ذنب هذه الزيارة وهذه الجولات في الدهاليز. وأراد كارل أن يخبر خاله غدًا بهذا دون مواربة، فحسب مبدئه سينصت الخال إلى حكم ابن أخته بهدوء وسرور. وفي كل الأحوال فإن هذا المبدأ قد يكون الشيء الوحيد الذي لم يعجب كارل في خاله، لكن عدم الإعجاب هذا لم يكن مطلقًا.

وفجأة انتهى الجدار في أحد الجانبين وبدأ عوضًا عنه درابزين من المرمر الجليدي الملمس. وضع كارل الشمعة إلى جانبه وانحنى بحذر إلى الأسفل. هب في وجهه خواء مظلم. إذا كانت هذه هي قاعة المنزل الرئيسية –في بصيص الشمعة ظهر جزء من سقف مُقبّب– فلماذا لم ندخل إلى المنزل عبرها؟ ما الغرض من هذا الفضاء الواسع الشاهق؟ إن الوقوف هنا في الأعلى يشبه وقوف المرء في رواق الأعمدة العلوي في الكنيسة. كاد يندم على عدم قدرته على البقاء في هذا المنزل حتى الصباح، كان ليسره في ضوء الصباح أن يتجول في أنحاء المنزل بقيادة السيد بولوندر مع الاستماع إلى شروحاته. لم يكن الدرابزين طويلًا على أية حال، وسرعان ما تلقاه دهليز مغلق ثانية. عند انعطافٍ مفاجئ للدهليز اصطدم كارل بقوة بالجدار، ولولا حذره الدائم لحسن الحظ، وإمساكه شبه المتشنج بالشمعة، لسقطت من يده وانطفأت. ولمَّا لم يصل الدهليز إلى نهاية، ولم يمر كارل بأي نافذة تمنح إطلالة ما، ولم يشعر بأي حركة من أي جهة كانت، فكر بأنه إنما يتحرك طوال الوقت بشك دوراني، وأمل بأن يجد قريبًا ربما باب غرفته المفتوح، ولكن لا الباب ولا الدرابزين عادا ثانية. وحتى الآن كان كارل يتحفظ على أن يرفع صوته وينادي، إذ لم يشأ أن يثير ضجة في منزل غريب وفي هذه الساعة المتأخرة، لكنه أدرك الآن أن الأمر لن يجافي الصواب، في هذا المنزل غير المنار، وكان على وشك أن يطلق صيحتي «هالو!» في اتجاهيّ الدهليز، عندما لاحظ في الجهة التي جاء منها نورًا ضعيفًا يقترب منه. وعندها فقط تمكن من تقدير طول الدهليز المستقيم؛ كان المنزل معماريًا، حصنًا وليس ڤيللا. كان فرح كارل بالنور المنقذ شديدًا إلى درجة أنه نسي كل الحذر وركض باتجاهه؛ ومنذ القفزات الأولى انطفأت شمعته. لم يبال بالأمر، لأنه لم يعد بحاجتها، فها هو خادم عجوز يحمل فانوسًا قادم باتجاهه، وسوف يريه الطريق الصحيح.

«من أنت؟»، سأله الخادم ورفع الفانوس ليرى وجهه، فأنار بذلك وجهه أيضًا، الذي بدا جامدًا نوعًا ما وسط لحية كثة طويلة بيضاء، تنتهي على صدره بخصلات حريرية الطابع دائرية الشكل. «لابد وأن يكون خادمًا مخلصًا ليسمح له سيده بإطلاق مثل هذه اللحية»، فكر كارل وهو ثابت النظر على هذه اللحية بطولها وعرضها، دون أن يعيقه عن ذلك الشعورُ

بأنه هو نفسه كان قيد المراقبة. غير أنه أجاب من فوره بأنه ضيف السيد بولوندر، خرج من غرفته راغبًا في التوجه إلى قاعة الطعام، لكنه لم يستطع العثور عليها.

«هكذا إذن»، قال الخادم وأردف، «نحن لم نُدخِل الإنارة الكهربائية بعد».

«أعرف»، أجاب كارل.

«ألا تريد أن تشعل شمعتك من فانوسي؟» سأله الخادم.

«أرجوك»، قال كارل وناوله الشمعة.

«تيار الهواء قوي في الدهاليز، والشمعة تنطفئ بسهولة، لهذا أحمل فانوسًا»، قال الخادم.

«نعم، الفانوس عملي أكثر»، قال كارل.

«لقد امتلأت بدلتك بقطرات الشمع»، قال الخادم وأضاء البدلة بالشمعة.

«لم أنتبه للأمر نهائيًا!» قال كارل شاعرًا بأسف شديد لأنها بدلة سوداء، قال الخال إنها تناسبه أكثر من كل ثيابه الأخرى. ولا شك في أن العراك مع كلارا قد أساء إلى مظهرها أيضًا، تذكر الآن. كان الخادم بالغ اللطف وأخذ ينظف البدلة بقدر ما تسمح به العجلة؛ وأخذ كارل يدور أمامه ويريه لطخة هنا وأخرى هناك، والخادم يزيلها بطاعة.

«ما الذي يسبب تيار الهواء هنا؟» سأل كارل عندما تابعا السير.

«مازال هناك الكثير مما يجب بناؤه هنا. صحيح أن التعديلات المعمارية قد بُدِء بها، لكن الشغل بطيء جدًا. والآن أضرب عمال البناء أيضًا عن العمل، حسبما وصل إلى علمك ربما. ومثل هذا البناء يسبب الكثير من المشاكل المزعجة. فهناك الآن بعض الثغرات الكبيرة في الجدران، لم يسدها أحد، وتيارات الهواء تسري عبر المنزل كله. ولو لم أملأ أذنيَّ بالقطن لما استطعت تحملها»، قال الخادم.

«إذن عليَّ أن أرفع صوتي، أليس كذلك؟».

«لا، صوتك واضح»، قال الخادم وأضاف، «ولكن فيما يتعلق بهذا البناء؛ خاصة هنا قرب الكنيسة الصغيرة، التي لابد حتمًا من عزلها لاحقًا عن بقية البناء، التيار الهوائي لا يُحتمَل».

«هل الدرابزين الموجود في الدهليز الذي جئنا منه، يطل على كنيسة؟».

«نعم»، أجاب الخادم.

«هذا هو ما فكرت فيه فورًا»، قال كارل.

«إنها كنيسة صغيرة تستحق المشاهدة. ولو لم تكن كذلك لما اشترى السيد ماك البناء»، علق الخادم.

«السيد ماك؟ كنت أعتقد أن المنزل ملك السيد بولوندر»، قال كارل.

«بطبيعة الحال»، أجاب الخادم، «لكن السيد ماك كان له الرأي الحاسم في عملية الشراء. ألا تعرف السيد ماك؟».

«بل أعرفه. ولكن ما الصلة التي تربطه بالسيد بولوندر؟».

«إنه عريس الآنسة»، أجاب الخادم.

«هذا لم أكن أعرفه طبعًا»، قال كارل وتوقف.

«أإلى هذا الحد يدهشك الأمر؟»، سأله الخادم.

«بل أريد ترتيبه في ذهني وحسب، فعندما لا يعرف المرء مثل هذه العلاقات، يمكنه أن يرتكب أخطاء فادحة»، أجاب كارل.

«إني استغرب فقط أن لم يخبرك أحد بشيء من هذا»، علَّق الخادم.

«نعم، فعلًا»، أجاب كارل بخجل.

«لربما ظنوا أنك على علم بذلك، فالأمر ليس جديدًا»، قال الخادم وأضاف، «ها قد وصلنا»، وفتح بابًا ظهر وراءه درج ينحدر مباشرة إلى الباب الخلفي لقاعة الطعام، التي مازالت منارة جيدًا كما عند القدوم.

قبل أن يدخل كارل إلى القاعة، التي سُمعت منها أصوات السيد بولوندر والسيد غرين دون تغير، كما كانت عليه قبل نحو ساعتين، قال له الخادم: «إذا شئتَ، سأنتظرك هنا ثم سأقودك إلى غرفتك لاحقًا. إذ يصعب على المرء دائمًا أن يعرف طريقه هنا منذ المساء الأول».

«لن أرجع إلى غرفتي». قال كارل ولم يعرف لماذا أصابه الحزن بعد هذه المعلومة.

«لن يكون الأمر بالغ السوء»، قال الخادم مبتسمًا بشيء من التفهم، وربت على ساعده، إذ يحتمل أنه فسر كلمات كارل، على أنه ينوي البقاء طوال الليل في قاعة الطعام للمشاركة في الحديث مع السيدين والشرب معهما. لم يرغب كارل بأن يدلي باعترافات الآن، بالإضافة إلى أنه قد فكر بأن الخادم الذي أعجبه أكثر من بقية الخدم حتى الآن، يستطيع أن يرشده إلى الطريق المؤدي إلى نيويورك، فقال له: «إذا أردتَ أن تنتظر هنا، فهذا لا شك دلالة على لطف كبير من جهتك، وأنا أقبل ذلك شاكرًا. في كل الأحوال سأخرج إليك بعد قليل لأخبرك بما أنوي أن أفعل. إذ أعتقد أن مساعدتك لي ما زالت ضرورية».

«حسنًا»، قال الخادم، وضع الفانوس على الأرض وجلس على قاعدة تمثال واطئة، يُرجح أن فراغها يرتبط بتعديلات البناء، «سأنتظر هنا إذًا. ويمكنك ترك الشمعة عندي أيضًا»، أضاف عندما أراد كارل دخول قاعة الطعام حاملاً الشمعة المشتعلة معه.

«يا لِتشَتتي»، علّق كارل وناول الشمعة للخادم، الذي أومأ برأسه وحسب، دون أن يفهم المرء، ما إن كان قد فعل ذلك عامدًا، أم كان ذلك نتيجة لتلمسه لحيته بيده.

فتح كارل الباب، الذي أحدث دون قصدٍ صوتَ رجيجٍ عاليًا، إذ كان مصنوعًا من لوح زجاج واحد، يكاد ينحني، إذا فتحه المرء بسرعة وبقي ممسكًا به من الأكرة فقط. تركه كارل من يده مرعوبًا، فقد كان ينوي الدخول بمنتهى الهدوء. ومن دون أن يلتفت إلى الوراء، لاحظ كيف أن الخادم، الذي نهض عن القاعدة، قد أغلق الباب بحذر ودون أي ضجة.

«أعتذر إنْ كنت أزعجكما»، قال كارل للسيدين اللذين نظرا إليه بوجهيهما الكبيرين الممتلئين دهشة. وفي الوقت نفسه شمل بنظره القاعة بسرعة، عساه يجد قبعته في مكان ما. لكنه لم يرها في أي مكان، فالقاعة كانت قد رُتبت ونُظفت كليًا، ويُحتمل أن تكون القبعة قد حُملت إلى المطبخ، وهو أمر مزعج.

«أين تركتَ كلارا؟»، سأله السيد بولوندر، الذي بدا عليه بوضوح أن هذا الإزعاج كان مرحبًا به، إذ غيَّر فورًا وضعية جلوسه في كنبته، بحيث تحول بكامل جسمه إلى كارل. أما السيد غرين فتظاهر بكونه غير معني، سحب محفظة جيب، كانت من حيث حجمها وسماكتها فريدة جدًا في نوعها، وبدا أنه يبحث في جيوبها الكثيرة عن شيء معين، لكنه في أثناء البحث قرأ في عدة أوراق أخرى، مرت بين أصابعه عرَضًا.

«لدي رجاء أرجو ألا تفهمه بصورة مغلوطة»، قال كارل وتوجه بأقصى سرعة إلى السيد بولوندر، ووضع يده على مسند ذراع الكنبة، كي يكون أقرب ما يمكن إليه.

«وما هو هذا الرجاء يا ترى؟» سأله السيد بولوندر وهو ينظر إليه نظرات صريحة بلا تحفظ، «يمكنك اعتباره بحكم المُلبى طبعًا»، وأحاط كارل بذراعه وجذبه إلى ما بين ساقيه. صبر كارل على ذلك بطيب خاطر، رغم شعوره بصورة عامة بأنه قد كبر جدًا على مثل هذه المعاملة. إلا أن التصريح بطلبه صار الآن أصعب طبعًا. «وبالمناسبة كيف تجد الوضع عندنا؟» سأله السيد بولوندر وأردف «ألا يبدو لك أيضًا، أن الإنسان عندما يخرج من المدينة إلى الريف، كما يقال، يشعر بأنه على العموم قد تحرر أكثر؟» –مع نظرة جانبية نحو السيد غرين لا يمكن تأويلها على نحو خاطئ، سترها جزئيًا جسم كارل –«أنا عمومًا ينتابني هذا الشعور كل مساء».

وفكر كارل بأن السيد بولوندر يتحدث كمن لا يعرف شيئًا عن المبنى الشاسع، بدهاليزه التي لا نهاية لها، والكنيسة الصغيرة، والغرف الخالية، والعتمة في كل مكان.

«طيّب»، قال السيد بولوندر، «الرجاء!»، وهز بودٍ كارل، الذي كان يقف صامتًا.

«أرجو»، قال كارل، ومهما حاول تخفيف صوته، كان لابد لغرين الجالس جانبًا من أن يسمعه، وكان بود كارل جدًا أن يخفي عنه رجاءه، الذي يُحتمَل أن يُفهَم كإهانة للسيد بولوندر، «أرجو أن تسمح لي الآن، في الليل، بالعودة إلى البيت». وبما أن الأسوأ قد قيل، اندفعت كل الأشياء الأخرى بسرعة أكبر، فقال، دون اللجوء إلى أبسط أنواع الكذب، أمورًا لم يسبق له أن فكر فيها. «أرغب في الرجوع إلى البيت مهما كان الثمن. بودّي زيارتكم ثانية، فحيث توجد أنت يا سيد بولوندر، أود أنا أيضًا أن أكون. إلا أني اليوم لا أستطيع البقاء هنا. أنت تعرف أن خالي لم يأذن لي بهذه الزيارة عن طيب خاطر. لا شك في أن لديه أسبابه الوجيهة، كما لكل ما يفعل، وقد لجأت إلى استثناء نفسي، بما يتعارض مع رأيه الأصح، حرفيًا لانتزاع الإذن منه. لقد استغللت بكل بساطة حبه لي. مهما كانت تحفظاته على هذه الزيارة، لم تعد مهمة الآن، لكني أعرف بكل ثقة، أنه ليس في هذه التحفظات ما يمكن أن يسيء إليك يا سيد بولوندر وأنت من أفضل، بل أفضل أصدقاء خالي. وليس هناك بين الأصدقاء من يستطيع أن يقارن موقعه بأي شكل من الأشكال بالموقع الذي تحتله أنت بالنسبة إلى خالي. وهذا هو العذر الوحيد لخروجي عن طاعته، لكنه ليس عذرًا كافيًا. قد لا تكون لديك معرفة دقيقة بالعلاقة بيني وبين خالي، ولذلك لا أريد أن أتحدث إلا عن الأكثر جلاء فيها. ما دمتُ لم أنهِ بعد دراساتي في اللغة الإنجليزية ولم أطلع كفاية على التجارة العملية، فأنا أعتمد كليًا على كرم خالي، الذي يجوز لي، عمليًا، بحكم رابطة الدم أن أستفيد منه. لا يجوز لك أن تظن، أني قادر الآن وبطريقة ما -وليحمني الرب من الطرق غير الشريفة- على كسب رزقي بشرف. فتعليمي للأسف كان غير عملي إطلاقًا. لقد اجتزت أربعة صفوف في مدرسة ثانوية من النمط الأوروبي وكنت تلميذًا متوسط المستوى، وهذا يعادل على صعيد كسب المال أقل بكثير من لا شيء، فالمناهج التعليمية في ثانوياتنا متخلفة جدًا. قد تضحك إذا أخبرتك بما تعلمته. إذا تابع التلميذ تعليمه فأنهى المدرسة

الثانوية ودخل الجامعة، في هذه الحالة يتوازن كل شيء بطريقة ما على الأرجح، فيُحصِّلُ الطالب في الختام تعليمًا مرتبًا، يمكنه به أن يبدأ شيئًا ما، مزودًا بالعزيمة على مزاولة عمل يكسب به رزقه. أما أنا فقد انتُزِعت للأسف من تعليمي المنتظم؛ وأعتقد أحيانًا أني لا أعرف شيئًا، وبالمحصلة كان كل ما سأتعلمه هناك، قليلاً جدًا بالنسبة لأمريكا. في الآونة الأخيرة بُدِئ في أماكن متعددة في وطني بتأسيس ثانويات إصلاحية، حيث يتعلم التلميذ لغات حديثة وعلوم التجارة؛ عندما أنهيتُ المدرسة الابتدائية لم تكن هذه موجودة بعد. والدي كان يريدني أن أتعلم الإنجليزية، لكني أولًا ما كنت لأحدس حينذاك بالمصيبة التي ستنزل بي، وبأني سأحتاج جدًا إلى الإنجليزية، وثانيًا كان عليَّ أن أتعلم الكثير في الثانوية، بحيث لم يتبق لدي وقت كاف لاهتمامات أخرى. إني أذكر لك هذا كله، لأوضح لك مدى تبعيتي إلى خالي، ونتيجة لذلك مدى التزامي تجاهه. من المؤكد أنك ستقر، بأني في مثل هذه العلاقة لا أسمح لنفسي بأن أقوم بأي فعل يعاكس إرادته ولو حتى على صعيد التخمين. ولهذا السبب يجب علي، لتصحيح الخطأ ولو إلى حدٍ ما، الذي أقدمت عليه بحقه، أن أعود إلى البيت فورًا».

في أثناء هذه الخطبة الطويلة كان السيد بولوندر ينصت باهتمام، وكثيرًا ما كان على نحو غير ملحوظ يجذب كارل إليه، ولاسيما عندما يرد ذكر الخال، وفي بعض المرات كان يلتفت بجدية وتوقع إلى السيد غرين، الذي تابع انشغاله بمحفظة جيبه. أما كارل فكان، كلما ازداد في وعيه أثناء كلامه وضوح موقعه بالنسبة إلى الخال، ازداد قلقًا، وحاول لاإراديًا أن يحرر نفسه من ذراع السيد بولوندر، إذ أحس بأن كل شيء هنا يضيِّق عليه، في حين أن الطريق إلى الخال عبر الباب الزجاجي ثم الدرج وعبر الطريق المشجر ثم الطرق الريفية وعبر الضاحية إلى الشارع العريض المزدحم مروريًا والمؤدي إلى عمارة الخال بدا له كشيء مترابط بحزم، خاوٍ منبسطٍ ممتد أمامه ويناديه بصوت قوي. تلاشت طيبة السيد بولوندر وشناعة السيد غرين، ولم يعد يبغي أي شيء من هذه القاعة العابقة بالدخان سوى الإذن بالمغادرة. صحيح أنه كان يشعر بنفسه منعزلًا عن السيد بولوندر وجاهزًا للعراك مع

السيد غرين، لكنه كان ممتلئًا بخشية مبهمة عكّرت صدماتها عينيه. رجع خطوة إلى الوراء ووقف على المسافة نفسها من السيد بولوندر والسيد غرين.

«أليس لديك ما تقوله له؟» سأل السيد بولوندر السيد غرين وأمسك يده كمن يرجوه ذلك.

«لا أعرف ما يفترض بي أن أقوله له»، قال السيد غرين الذي سحب أخيرًا رسالة من جيبه ووضعها أمامه على الطاولة، «كونه يريد العودة إلى خاله أمر جدير بالثناء، ووفق التوقع الإنساني يُفترض أن هذا سيكون مدعاة سرور خاص لخاله. لا شك في أن عصيانه قد أغضب الخال غضبًا شديدًا، وهو أمر محتمل جدًا. في هذه الحالة من الأفضل أن يبقى هنا. في الواقع من الصعب قول شيء محدد بهذا الشأن؛ كلانا في الواقع صديقان للخال، ولابد من بذل جهد كبير للتعرف على اختلافات في درجة هذه الصداقة بيني وبين السيد بولوندر، لكننا لسنا قادرَين على الاطلاع على دخيلة الخال، ولاسيما من مسافة الكيلومترات الكثيرة التي تفصلنا هنا عن نيويورك».

«أرجوك يا سيد غرين»، قال كارل واقترب من السيد غرين دون رغبة منه في ذلك، «أستنتج من كلامك أنك أنت أيضًا ترى أن الأفضل هو أن أعود فورًا».

«أنا لم أقل هذا بتاتًا»، قال السيد غرين واستغرق في النظر إلى الرسالة، التي أخذ يمر على جوانبها بأصبعين من يده جيئة وذهابًا، راغبًا بذلك التنويه إلى أنه قد أجاب على السؤال الذي وجهه إليه السيد بولوندر، في حين أنه لا علاقة له في الواقع بشأن كارل.

في أثناء ذلك كان السيد بولوندر قد اقترب من كارل وسحبه بلطف بعيدًا عن السيد غرين باتجاه نافذة كبيرة، حنى رأسه إلى أذن كارل ومسح وجهه بمنديل جيب كتحضير للكلام، وتوقف عند أنفه ونفَّه، ثم قال: «عزيزي السيد روسمَن، إنك حتمًا لا تظن أني أريد الاحتفاظ بك هنا رغمًا عن إرادتك. هذا غير وارد إطلاقًا. لا يمكنني وضع السيارة في خدمتك، لأنها مركونة بعيدًا عن هنا في كراج عمومي، لأني لم أجد الوقت الكافي بعد لبناء كراج خاص هنا، لاسيما وأن كل شيء قيد الإنشاء. والسائق لا ينام هنا في المنزل، وإنما

قرب الكراج، وأنا فعلًا لا أعرف أين. يضاف إلى ذلك أن ليس من واجبه أن يكون الآن في بيته، واجبه يتحدد بأن يتواجد هنا مع السيارة في الوقت المحدد باكرًا. لكن هذا كله لا يشكل عائقًا أمام عودتك الفورية، فإنْ كنتَ مصرًا عليها، سأرافقك فورًا إلى أقرب محطة لقطار المدينة، لكنها في الواقع بعيدة جدًا، بحيث أنك لن تصل إلى بيتك في وقت أبكر بكثير مما لو انطلقت معنا باكرًا –نحن ننطلق من هنا في السابعة».

«في هذه الحال يا سيد بولوندر، أفضل أن أسافر بقطار المدينة»، قال كارل، «لم يخطر في بالي قطار المدينة أبدًا. أنت قلت إني سأصل بالقطار في وقت أبكر من بسيارتك صباحًا».

«لكن الفارق صغير جدًا»، علق السيد بولوندر.

«رغم ذلك، رغم ذلك يا سيد بولوندر»، قال كارل، «نظرًا للطفك ومودتك سأرغب بسرور دائمًا في القدوم لزيارتك، طبعًا إذا بقيت راغبًا في دعوتي بعد سلوكي اليوم، وربما في المرة القادمة سأتمكن على نحو أفضل من التعبير عن أهمية رغبتي اليوم في التبكير ما أمكن لرؤية خالي»، وكما لو أنه حصل على إذن المغادرة أضاف: «ولكن لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تقوم بمرافقتي، إذ لا ضرورة لذلك أبدًا. خارج القاعة ينتظرني خادم سيسره أن يرافقني إلى المحطة. ما عليَّ الآن سوى البحث عن قبعتي»، ومع كلماته الأخيرة مشى عابرًا القاعة، في محاولة أخيرة للعثور على قبعته على الرغم من العجلة.

«ربما يمكنني مساعدتك بطاقية»، قال السيد غرين وأخرج من جيبه طاقية، «قد تكون بالصدفة مطابقة لمقاسك».

توقف كارل مندهشًا وقال: «لا يمكنني أن أجردك من طاقيتك. أستطيع ببساطة أن أمشي حاسر الرأس. لا أحتاج إلى أي شيء».

«إنها ليست طاقيتي. هيا خذها!».

«شكرًا إذن»، قال كارل وأخذ الطاقية كي لا يؤخر نفسه. لبسها وضحك بادئ الأمر لأنها طابقت مقاسه تمامًا، ثم تناولها بيده ثانية ودقق فيها النظر، لكنه لم يجد ذاك الشيء الخاص، الذي كان يبحث عنه فيها، فقال: «إنها مناسبة جدًا».

«إنها تناسبك إذن!» قال السيد غرين وضرب بيده على الطاولة.

تابع كارل متجهًا نحو الباب كي يُحضر الخادم، فنهض السيد غرين وتمطى بعد الوجبة الغنية والجلوس الطويل، خبط بيديه على صدره بقوة وقال بنبرة هي بين النصيحة والأمر: «قبل أن تغادر، عليك أن تودع الآنسة كلارا».

«نعم، يجب عليك»، قال السيد بولوندر أيضًا ونهض واقفًا. كانت لهجته توحي بأن الكلمات لم تصدر من قلبه، أخذ يضرب يديه بضعف على جانبي بنطاله، ثم أخذ يزرر جاكيته ويعاود فك أزراره عدة مرات. كان جاكيته قصيرًا جدًا وفق الموضة الأحدث ولا يكاد يصل إلى ردفيه، وهذا لا يبدو أنيقًا أبدًا على الرجال السمان مثل السيد بولوندر. وعندما يراه المرء واقفًا هكذا بجانب السيد غرين، يتشكل لديه انطباع واضح بأن سمنة السيد بولوندر غير صحية؛ فظهره الجسيم كان مقوسًا نوعًا ما، وبدا كرشه طريًا ورخوًا كعبء ثقيل، كما بدا وجهه شاحبًا ومجهدًا. في حين أن السيد غرين، الذي ربما كان أسمن من السيد بولوندر، بدت سمنته موزعة بتناسق متوازن. كانت قدماه مضمومتين في وقفة شبه عسكرية، ورأسه منتصبًا ومتمايلًا؛ فبدا مثل رياضي بارز، بل مثل مدربٍ قدوة.

«اذهب أولًا إذن إلى الآنسة كلارا»، تابع السيد غرين، «فهذا سيسرك لا شك ويتناسب جدًا مع توقيتي. إذ لدي في حقيقة الأمر، قبل أن تذهب من هنا، أمر مهم لأخبرك به، ويمكن أن يكون حاسماً على الأرجح بشأن عودتك. إلا أني مقيد للأسف بأوامر عليا، لا تسمح لي بإخبارك شيئًا قبل منتصف الليل. يمكنك أن تتصور كم يؤسفني هذا، لأنه يؤخر موعد نومي، إلا أني أتقيد بالمهمة التي كُلفتُ بها. الساعة الآن الحادية عشرة والربع، ما يسمح لي بإنهاء شغلي مع السيد بولوندر، ووجودك سيكون مزعجًا، في حين يمكنك قضاء مدة

قصيرة ومسلية مع الآنسة كلارا. عليك إذن أن تكون هنا في تمام الثانية عشرة، حيث سأطلعك على الأمر الضروري».

هل كان في وسع كارل رفض هذا الطلب، الذي لا يتطلب منه سوى الحد الأدنى من المجاملة والشكر تجاه السيد بولوندر، والذي طرحه فوق ذلك رجل فظ ولا مبال عادة، في حين أن السيد بولوندر، الذي يعنيه الأمر لم يتدخل لا بالكلمات ولا بالنظرات؟ وما هو ذاك الشيء المهم، الذي لا يجوز له الاطلاع عليه إلا عند منتصف الليل؟ لو أنه على الأقل لا يؤجِّل عودته إلى البيت ثلاثة أرباع الساعة، التي سوف يتأخرها الآن، لما اهتم به. لكن حيرته الأكبر تعلقت الآن بما إذا كان يريد أصلًا الذهاب إلى كلارا، التي كانت عدوته. لو كانت معه على الأقل فتَّاحة الرسائل الحديدية، التي أهداه الخال إياها لتثقيل الأوراق! فقد تكون غرفة كلارا مغارة خطيرة جدًا. ولكن الآن لم يعد ممكنًا بأي حال من الأحوال ذكر أبسط أمر ضد كلارا، لأنها ابنة بولوندر وعروس ماك، حسبما سمع قبل قليل. لو أنها تصرفت تجاهه على نحو مختلف قليلًا فقط، لكان قد أثنى صراحة على صِلاتها. كان لا يزال يفكر في هذه الأمور، عندما انتبه إلى أن الآخرين لا ينتظرون أفكاره، إذ فتح السيد غرين الباب وقال للخادم، الذي نهض عن القاعدة بسرعة: «خذ هذا الشاب إلى غرفة الآنسة كلارا».

وعندما قاده الخادم جريًا تقريبًا وهو يلهث من عجز الهرم، على الطريق الأقصر إلى غرفة كلارا، فكر كارل «هكذا يتم تنفيذ الأوامر». وأثناء اجتيازهما غرفة كارل، التي مازال بابها مفتوحًا، أراد كارل دخولها للحظات، ربما ليهدئ نفسه قليلًا، لكن الخادم لم يسمح له بذلك قائلًا: «لا، عليك الذهاب إلى الآنسة كلارا، لقد سمعت الأمر بنفسك».

«لن أبقى في الداخل سوى لحظات»، قال كارل وأراد على سبيل التغيير، أن يستلقي على الأريكة قليلًا، كي يمر الوقت بسرعة أكبر نحو منتصف الليل.

«لا تُصعِّب عليِّ تنفيذ مهمتي»، قال الخادم. «يبدو أنه يعتبر الأمر، بضرورة ذهابي إلى الآنسة كلارا، بمثابة عقوبة»، فكر كارل ومشى معه بضع خطوات، ثم توقف ثانية معاندًا.

«فلنتابع أيها السيد الشاب ما دمتَ قد صرْت هنا»، قال الخادم، «أعرف أنك أردت أن تذهب في الليل، لكن الأمور لا تسير كلها حسبما نرغب، وقد قلت لك مباشرة أن الأمر شبه مستحيل».

«نعم، أريد الذهاب ولسوف أذهب»، قال كارل، «كل ما تبقى هو أن أودع الآنسة كلارا».

«هكذا؟» قال الخادم، ولاحظ كارل من وجهه أنه لم يصدق كلمة مما قاله. وأردف الخادم: «ولماذا تتردد إذن في الذهاب لتوديعها؟ هيا تعال».

«مَن هناك في الدهليز؟» صدح صوت كلارا وشوهدت تنحني من أحد الأبواب نحو الدهليز حاملة بيدها مصباح طاولة كبيرًا ذا مظلة حمراء. أسرع الخادم إليها وأخبرها بمهمته، فيما لحق به كارل متمهلًا، فقالت له كلارا: «لقد تأخرت في القدوم».

لم يجبها كارل فورًا، بل قال للخادم بصوت خافت ولكن بلهجة آمرة، بما أنه قد تعرّف طبيعته: «انتظرني أنت قرب هذا الباب!».

«كنت على وشك الخلود إلى النوم»، قالت كلارا ووضعت المصباح على الطاولة. وكما في الأسفل عند قاعة الطعام، قام الخادم هنا أيضًا بإغلاق الباب بهدوء من الخارج، فيما أردفت كلارا: «الوقت تجاوز الحادية عشرة والنصف».

«تجاوز الحادية عشرة والنصف؟» كرر كارل سائلًا، كالمرعوب من هذه الأرقام، وأضاف «إذن عليّ أن أودعك فورًا. إذ يجب عليّ في تمام الثانية عشرة أن أكون في قاعة الطعام».

«يا لأمورك المستعجلة!» قالت كلارا وهي ترتب بشرود ثنايا قميص نومها السائبة. كان وجهها متوهجًا ولم تتوقف عن الابتسام. فأدرك كارل أن لا خطر من معاودة الشجار معها. ثم قالت: «ألا يمكنك مع ذلك أن تعزف لي قليلًا على البيانو حسبما وعدني البابا أمس وأنت اليوم؟».

«ولكن ألم يتأخر الوقت كثيرًا؟» سألها كارل. كان بودّه جدًا أن يجاملها، فقد كانت الآن مختلفة كليًا عما سبق، وكأنها بطريقة ما قد ارتفعت إلى مستوى بولوندر، وإلى مستوى ماك أيضًا.

«نعم، لقد تأخر»، قالت وبدت كأنما الرغبة في الموسيقى قد فارقتها، فأضافت: «ثم إن أبسط صوت سيتردد صداه في البناء كله، أنا واثقة أنك إذا عزفت، فسيستيقظ الخدم أيضًا، في العليّة تحت سطح البناء».

«إذن سأتخلى عن العزف. آمل أن أزوركم ثانية؛ وبالمناسبة إن لم يكن في الأمر مشقة، ليتك تأتين لزيارة خالي وتلقين نظرة بهذه المناسبة على غرفتي. عندي بيانو فاخر جدًا، أهداني إياه الخال. عندها سأعزف لك، إذا كان هذا يناسبك، جميع مقطوعاتي الصغيرة، إنها ليست كثيرة للأسف، كما أنها لا تناسب أبدًا مثل هذه الآلة العظيمة، التي لا يجوز أن تُعزَف عليها سوى روائع العباقرة. ولكن سيكون بإمكانك الحصول على هذه المتعة أيضًا، إذا أخبرتني بزيارتك مسبقًا، فالخال يريد قريبًا، أن يكلف معلمًا مشهورًا لتدريبي –يمكنك تصور مدى فرحي بذلك-، وعزفه سيكون في كل الأحوال مناسبة للقيام بزيارة خلال وقت الدرس. إذا أردتُ أن أكون صادقًا، سأعترف لك بفرحي لتأخر الوقت بالنسبة للعزف، لأني مازلت لا أتقن عزف أي شيء، كنتِ ستندهشين من قلة ما أعرف. والآن اسمحي لي أن أودعكِ، فقد حان حقًا موعد النوم». ولأن كلارا نظرت إليه بطيبة، دون أن تحمل تجاهه أي ضغينة بسبب العراك، أضاف مبتسمًا ومادًا يده إليها: «في وطني يقول الناس: نومًا هانئًا وأحلامًا طيبة».

«انتظر»، قالت، دون أن تصافح يده، «رغم ذلك ربما سيكون من الأفضل أن تعزف». واختفت عبر باب جانبي بجوار البيانو.

«ما الأمر الآن؟» فكر كارل، «لا يمكنني الانتظار طويلًا، مهما بلغ لطفها». سمع نقرًا على الباب، والخادم الذي لم يجرؤ على فتح الباب كليًا، همس عبر شق صغير: «اعذرني، لقد تم استدعائي توًا، ولم يعد بإمكاني الانتظار».

«اذهب إذن»، قال له كارل، الذي بات واثقًا من قدرته على معرفة طريقه لوحده إلى قاعة الطعام، وأضاف: «ولكن اترك لي الفانوس وراء الباب. كم صارت الساعة؟».

«تقارب الثانية عشرة إلا ربعًا»، أجاب الخادم.

«كم يمضي الوقت ببطء!» قال كارل. أراد الخادم أن يغلق الباب، فتذكر كارل أنه لم يعطه بخشيشًا بعد، فتناول شلنًا من جيب بنطاله –بات يحمل دائمًا فراطة ترن في الجيب وفق العادة الأمريكية، في حين يحتفظ بالعملة الورقية في جيب صديريه– وناوله للخادم قائلًا: «لقاء خدماتك الجيدة».

كانت كلارا في أثناء ذلك قد دخلت واضعة يديها على تصفيفة شعرها الدائمة، عندما خطر في بال كارل أنه ما كان يُفترض به أن يصرف الخادم، إذ مَن الذي سيقوده إلى محطة قطار المدينة؟ حسنًا، لا شك في أن السيد بولوندر سيجد له خادمًا، ومن المحتمل أن يكون هذا الخادم قد استُدعي إلى قاعة الطعام، وسيكون بالتالي جاهزًا للخدمة.

«إني أصر على رجائي أن تعزف لي قليلًا، إذ نادرًا ما يُسمع هنا عزف موسيقى، ولذلك لن يُفوِّت المرء أي فرصة لسماعها»، قالت كلارا.

«عليَّ أن أبدأ فورًا إذًا»، أجاب كارل دون أن يفكر بأي شيء آخر، وجلس إلى البيانو مباشرة.

«أتريد نوتات؟».

«شكرًا، إني لا أحسن قراءة النوتة جيدًا بعد»، أجاب كارل وبدأ يعزف. كانت مقطوعة صغيرة، يعرف كارل أنها يجب أن تُعزف ببطء، كي يفهمها الغرباء خاصة، لكنه عزفها على نحو أخرق وبسرعة أسوأ مارش. وبعد أن أنهاها عاد الهدوء إلى حاله في المنزل، بعد أن خُرِق كما في حالة ازدحام شديد، وبقيا كلاهما ذاهلين بلا حراك.

«جميل جدًا»، قالت كلارا من ثم، لكن كل صيغ المجاملة ما كانت لتطري كارل بعد هذا العزف.

«كم الساعة الآن؟» سألها.

«الثانية عشرة إلا ربعًا».

«إذًا مازالت لدي برهة قصيرة»، قال وفكر في نفسه «إما – أو. لا ضرورة لأن أعزف المقطوعات العشر التي أعرفها، لكني أستطيع عزف إحداها جيدًا». وبدأ يعزف أنشودة الجندي التي يفضلها. وعزفها بدرجة من البطء، بحيث أن التوق إلى السماع الذي تشتت، كان يمط أذنه نحو النوتة التالية، التي احتفظ بها كارل ولم يفرج عنها إلا بصعوبة. إذ كان كارل مضطرًا عمليًا في كل مقطوعة، إلى البحث عن ملامس العزف الضرورية وجمعها معًا بعينيه، يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر في داخله ببداية معاناة، تبحث عن خاتمة أخرى لها بعد خاتمة الأنشودة ولا تستطيع أن تجدها. «إني لا أتقن شيئًا»، قال بعد نهاية الأنشودة ونظر إلى كلارا بعينين دامعتين. وفجأة دوى من الغرفة المجاورة تصفيق حاد. فصاح كارل وقد هزه ذلك: «هناك شخص آخر يستمع!».

«إنه ماك»، قالت كلارا بصوت خافت. ومباشرة سُمع صوت ماك يهتف: «كارل روسمَن، كارل روسمن!».

قفز كارل بكلتا قدميه من فوق مقعد البيانو وفتح الباب. فرأى ماك هناك جالسًا في سرير واسع بأربعة أعمدة، وقد ارتمى الغطاء سائبًا على ساقيه. وكانت المظلة الحريرية الزرقاء هي الشيء الوحيد، الذي أسبغ أبهة خرافية نوعًا ما، على السرير البسيط عدا ذلك والمصنوع من خشب ثقيل بزوايا قائمة. وعلى منضدة السرير الصغيرة كان هناك فقط شمعة مشتعلة، لكن بياضات السرير وقميص ماك كانوا ناصعي البياض، بحيث أن ضوء الشمعة الساقط عليهم كان ينعكس منهم كشعاع مبهر؛ المظلة أيضًا كانت تضيء، على الأقل بأطرافها ذات التموجات غير المشدودة بثبات. ووراء ماك مباشرة غرق السرير وكل

شيء آخر في عتمة كاملة. استندت كلارا بجسمها إلى أحد أعمدة السرير ولم تعد ترى أمامها سوى ماك.

«أحييك»، قال ماك مادًا يده لمصافحة كارل، وأضاف «إنك تعزف جيدًا، لم أكن أعرف حتى الآن سوى مهارتك في ركوب الخيل».

«إني لا أتقن هذا ولا ذاك»، قال كارل وأضاف «لو أني عرفت أنك تستمع، لما عزفت بالتأكيد. لكن الآنسة» –قاطع نفسه مترددًا في أن يقول «عروسك»، بما أن ماك وكلارا كما يبدو واضحًا قد ناما مع بعضهما.

«لقد حدست ذلك»، قال ماك، «ولذلك كان على كلارا أن تستدرجك من نيويورك إلى هنا، وإلا لما سمعتُ عزفك أبدًا. وهو إلى حد كبير عزف مبتدئين، وحتى في هذه المقطوعات الصغيرة، التي لا شك في أنك قد تمرنت على عزفها والتي تعد بدائية التلحين جدًا، قد ارتكبتَ بعض الأخطاء، إلا أني في كل الأحوال سررت جدًا، بغض النظر عن أني لا أزدري عزف أي إنسان. ولكن ألا تريد أن تجلس وتبقى معنا قليلًا؟ كلارا، أعطه كرسيًا».

«إني شاكر لكما»، قال كارل متلعثمًا، «لا يمكنني البقاء، رغم رغبتي في ذلك. عرفت متأخرًا جدًا بوجود مثل هذه الغرف المريحة في هذا المبنى».

«إني أعيد بناء كل شيء على هذا النحو»، قال ماك.

في تلك اللحظة قُرِعت اثنتا عشرة ضربة ناقوس، متتالية بسرعة، كل ضربة تُقرع في ضجة سابقتها. أحس كارل بموجات حركة النواقيس العظيمة على خديه. ما هذه القرية التي تمتلك مثل هذه النواقيس! «أزف وقتي»، قال كارل مادًا يديه نحو ماك وكلارا دون أن يصافحهما، وخرج مسرعًا إلى الدهليز. لم يجد الفانوس هناك وأسف على إعطائه البخشيش للخادم.

أراد أن يتلمس طريقه على الجدار إلى باب غرفته المفتوح، لكنه لم يمش بالكاد نصف المسافة حتى رأى السيد غرين حاملًا شمعة عاليًا وهو يتقدم نحوه متمايلًا وبسرعة، وفي يده التي تحمل الشمعة كانت هناك رسالة أيضاً.

«روسمَن، لماذا لا تأتي؟ لماذا تتركني أنتظر؟ ماذا فعلت عند الأنسة كلارا؟».

«أسئلة كثيرة!» فكر كارل، «وها هو فوق ذلك يلصقني بالجدار»، فقد وقف عمليًا لصق كارل المستند بظهره إلى الجدار. في هذا الدهليز تضخم حجم غرين بصورة مضحكة، فتساءل كارل في نفسه، أيكون يا ترى قد التهم السيد بولوندر الطيب!

«أنت فعليًا لست رجلًا يحفظ وعده، وعدتني بالنزول في تمام الثانية عشرة، وبدلًا من ذلك تتسلل حول باب الآنسة كلارا. أما أنا فقد وعدتك بأمر مهم عند منتصف الليل، وها هو معي هنا». وناول كارل الرسالة. كان مكتوبًا على الغلاف «إلى كارل روسمَن. تُسلم إليه شخصيًا حيثما وجِد».

وفيما كان كارل يفتح الرسالة قال السيد غرين: «وأخيرًا أعتقد أنه لأمر يستحق الثناء، أني بسببك قد غادرت نيويورك وحضرت إلى هنا بسيارتي، ولكن لا لكي أركض وراءك في الدهاليز».

«إنها من الخال!» قال كارل ما أن ألقى نظرة على داخل المغلف، «كنت أتوقعها»، أضاف ملتفتًا إلى السيد غرين.

«سواء توقعتَها أم لا، لا يهمني إطلاقًا. هيا اقرأ!» قال غرين وقرَّب الشمعة إليه.

وفي ضوئها قرأ كارل:

«ابن أختي الحبيب! لابد أن تكون قد أدركت، خلال مدة حياتنا المشتركة والقصيرة جداً للأسف، أني رجل مبادئ قلبًا وقالبًا. وهذا حال غير مريح ومحزن جدًا لمحيطي ولي

شخصيًا. لكنني مدين لمبادئي بكل ما أنا عليه، ولا يجوز لأحد أن يطالبني بأن أتنكر لطبيعتي، لا أحد، ولا حتى أنت يا ابن أختي الحبيب، ولو كنتَ في طليعة المجموعة التي ستقوم بهجوم عام ضدي، هذا إذا خطر في بالي ذات يوم أن أسمح به. في هذه الحالة سيكون الأحب إلى نفسي أن ألتقطك أنت تحديدًا بيديّ هاتين -اللتين أمسك بهما الورقة وأكتبها- وأرفعك عاليًا. ولكن مع عدم وجود مؤشر حاليًا يدل على أن هذا يمكن أن يقع ذات يوم، فعليَّ حتمًا بعد حادثة اليوم أن أبعدك عني، وأرجوك بإلحاح ألا تزورني بنفسك وألا تحاول الاتصال بي عن طريق الرسائل أو الوسطاء. لقد اتخذتَ قرارك بنفسك وضد إرادتي بأن تغادرني هذا المساء، ليكن، ولكن تمسك بقرارك طوال حياتك، فعند ذلك فقط سيكون قرارَ رجل. لقد اخترتُ السيد غرين لينقل إليك هذه الرسالة، إنه أفضل أصدقائي، ولاريب في أنه ليخفف عنك سيجد الكلمات المناسبة، التي لا تحضرني في واقع الأمر الآن. إنه رجل ذو نفوذ، ولخاطري سوف يعرف كيف ينصحك ويدعمك في خطواتك المستقلة الأولى. وبغية فهم انفصالنا، الذي يبدو لي غير مفهوم الآن مع اقترابي من خاتمة هذه الرسالة، لابد من أن أجدد قولي لنفسي: من طرف عائلتك يا كارل لا يأتي أي خير. إذا نسي السيد غرين تسليمك حقيبتك ومظلتك، فذكره بهما. مع أفضل أمنياتي بالخير لمستقبلك.
خالك المخلص ياكوب».

«هل انتهيت؟» سأله غرين.

«نعم»، قال كارل، «هل أحضرت لي حقيبتي ومظلتي؟» سأله كارل.

«ها هي»، قال غرين ووضع على الأرض حقيبة سفر كارل القديمة، التي كان يخفيها حتى الآن بيده اليسرى وراء ظهره.

«والمظلة؟» سأل كارل ثانية.

«إنها هنا»، قال غرين وأخرج المظلة، التي كان يعلقها بجيب بنطاله الأيمن، وأضاف: «هذه الأغراض أحضرها رجل يدعى شوبال، يعمل كبير الميكانيكيين على الخط الملاحي

هامبورغ -أمريكا وزعم أنه وجدهما في السفينة. يمكنك أن تشكره إذا سنحت لك الفرصة».

«لقد استعدت أغراضي القديمة ثانية على الأقل»، قال كارل ووضع المظلة على الحقيبة.

«عليك أن تحافظ عليها جيدًا في المستقبل، يقول لك السيد السيناتور»، علق السيد غرين، ثم سأل نتيجة فضول شخصي على الأرجح: «ماهذه الحقيبة الغريبة الشكل؟».

«إنها من نوع الحقائب التي يحملها الجنود في بلدي عندما يلتحقون بالعسكرية»، أجاب كارل، «إنها حقيبة أبي العسكرية القديمة. وعدا ذلك هي عملية جدًا، بشرط ألا ينساها المرء في مكان ما»، أضاف مبتسمًا.

«تجربتك باتت كافية على كل حال»، علق السيد غرين، «ولا يبدو أن لديك خالًا ثانيًا في أمريكا. وها أنا أقدم لك بطاقة سفر بالدرجة الثالثة إلى سان فرانسيسكو. لقد قررت أنا لك هذه الرحلة، أولًا لأن فرص العمل في الغرب بالنسبة إليك أفضل بكثير، وثانيًا كل الأمور الممكنة بالنسبة إليك هنا، يدا خالك مهيمنة فيها، ولابد حتمًا من تجنب أي لقاء بينكما. في سان فرانسيسكو يمكنك العمل باطمئنان؛ ابدأ من أسفل السلم وحاول تدريجيًا أن تشق لنفسك طريق الصعود».

لم يلمس كارل في هذا الكلام أي خبث، ثم إن الخبر السيئ الذي كان متواريًا في غرين طيلة المساء، تم إيصاله، ومنذئذ لم يعد يبدو كرجل مصدرًا للخطر، بل يمكن تبادل الحديث معه بصراحة أكثر من أي شخص آخر. إن أفضل إنسان يتم انتقاؤه، دون أن يكون له يد في الأمر، رسولًا لقرار سري ومؤلم، لابد أن يبدو مريبًا، طوال حمله إياه.

قال كارل متوقعًا تأكيد رجل خبير: «سوف أغادر هذا المنزل فورًا، إذ لم يتم استقبالي فيه إلا بصفتي ابن أخت خالي، في حين أني كغريب لا مكان لي هنا. هلا تفضلت وأريتني المخرج، وأرشدتني إلى الطريق المؤدي إلى أقرب فندق!».

«وبسرعة، فإزعاجاتك لي ليست قليلة».

عندما رأى كارل الخطوة الواسعة التي مشاها غرين فورًا، تردد، إذ يا لها من عجلة مريبة، وأمسك بغرين من أسفل جاكيته وقال في إدراك مفاجئ لحقيقة الأمر: «هناك أمر مازال عليك تفسيره لي: على غلاف الرسالة التي سلمتني إياها، كُتب فقط أن عليّ استلامها عند منتصف الليل، حيثما وجِدتُ. لماذا استبقيتني هنا إذن بحجة هذه الرسالة تحديدًا، عندما أردتُ المغادرة في الحادية عشرة والربع؟ لقد تجاوزتَ بهذا مهمتك».

بدأ غرين جوابه بحركة من يده، للدلالة بمبالغة على سخف ملاحظة كارل، ثم قال: «وهل كُتب على الغلاف أيضًا أن عليّ ربما أن أنهك نفسي من أجلك؟ وهل يُستنتج من مضمون الرسالة تأويلك أنت للملاحظة على الغلاف؟ لو لم أستبقيك لكان عليّ أن أسلمك الرسالة عند منتصف الليل على طريق الضاحية».

«لا»، قال كارل بحزم، «ليس الأمر هكذا تمامًا. على الغلاف كُتب: «تسلم بعد منتصف الليل». فإن كنتَ منهكًا، لما كنتَ ستتمكن من اللحاق بي، أو لكنتُ أنا قد وصلت إلى خالي عند منتصف الليل، الأمر الذي نفى السيد بولوندر إمكانية تحققه، أو كان سيتوجب عليك في نهاية المطاف نتيجة إصراري على العودة، أن توصلني أنت إلى خالي بسيارتك، التي فجأة لم يعد يذكرها أحد. ألا تقول الملاحظة بصراحة جلية أن منتصف الليل هو آخر موعد مفترض لعودتي؟ وأنت المذنب في أن الموعد قد فاتني».

نظر كارل في وجه غرين بحدة وأدرك، على ما بدا، الصراع الدائر في نفس غرين بين عار انكشاف نيته وبين فرحه بنجاح مقصده. وأخيرًا أمسك غرين بزمام أمره وقال بلهجةٍ كأنما يقاطع كلام كارل، الذي كان في واقع الأمر صامتًا منذ برهة: «ولا كلمة أخرى!» ودفع كارل، الذي عاود حمل حقيبته ومظلته، عبر باب صغير فتحه، إلى الخارج.

وقف كارل خارج المنزل مندهشًا. كان على درجٍ بلا درابزين ملحق بالبناء يؤدي نزولًا إلى أرض الحديقة. لم يكن عليه سوى النزول والانعطاف يمينًا إلى الدرب المشجر الذي يؤدي

إلى الطريق العام. وفي ضوء القمر الساطع لا يمكن للمرء أن يتوه. في الحديقة تحت سمع نباح عدة كلاب مطلقي السراح ويتجولون في عتمة ظلال الأشجار. وفي السكون المخيم عدا ذلك، كان يسمع بوضوح صوت اصطدام قوائمهم بالأرض بعد قفزاتهم العالية.

دون أن يزعجه أي من هذه الكلاب خرج كارل بنجاح من الحديقة. لم يكن قادرًا على التحديد بثقة الاتجاه المؤدي إلى نيويورك. أثناء المجيء بالسيارة لم يركز اهتمامه على ملاحظة التفاصيل، التي كانت ستفيده الآن. وأخيرًا قال في نفسه بأنه ليس مضطرًا إلى التوجه نحو نيويورك تحديدًا، حيث لا ينتظره أحد، وأحدهم بالتأكيد لا ينتظره. فاختار اتجاهًا لا على التعيين ومشى على الطريق.

(٤) طريق إلى رمسيس

بعد مسير قصير وصل كارل إلى نزل صغير، لم يكن في الواقع سوى محطة صغيرة أخيرة على خط قطار الشحن النيويوركي، ولذلك لم يكن يُستخدم للمبيت إلا نادرًا. وهنا طلب كارل أرخص سرير متوفر، فقد اعتقد بأن عليه البدء بالتوفير منذ الآن. وبناء على طلبه أحاله صاحب النزل بإشارة من يده، وكأنه مستخدم، ليصعد الدرج، حيث استقبلته امرأة عجوز شعثاء غاضبة بسبب إقلاق راحة نومها، مطالبة إياه بتحذيرات لا تنقطع بالتزام الهدوء، دون أن تستمع إليه تقريبًا، وقادته إلى غرفة وأغلقت بابها وراءه وهي تنفخ في وجهه: هس!

لم يعرف كارل في بادئ الأمر، ما إن كانت الستائر مسدلة فحسب، أم أن الغرفة بلا أي نوافذ، فإلى هذا الحد كانت العتمة مهيمنة؛ غير أنه لاحظ أخيرًا وجود كوة صغيرة مغطاة، فسحب قماش الستارة جانبًا، وبذلك تسلل إلى الغرفة شيء من ضوء القمر. كان في الغرفة سريران، لكنهما مشغولان كلاهما. رأى كارل عليهما شابين فتيين غارقين في نوم ثقيل، وبديا له غير أهل للثقة إلى حد ما، لأنهما دون سبب مفهوم نائمان بثيابهما؛ وأحدهما حتى بجزمته.

في اللحظة التي كشف كارل الستارة عن الكوة، رفع أحد النائمين ذراعيه وساقيه معًا قليلًا للأعلى، فكان المشهد على درجة من الغرابة، دفعت كارل للضحك في دخيلته، على الرغم من همومه.

وسرعان ما أدرك أنه، على الرغم من عدم توفر إمكانية أخرى للنوم، مع عدم وجود صوفا أو كنبة، لا يمكنه أن يخلد إلى النوم أصلًا، إذ لا يجوز له أن يعرض للخطر حقيبته المستردة حديثًا والنقود التي يحملها معه. وفي الوقت نفسه لم يرغب في أن يغادر، لأنه لم يجرؤ على المرور بالمرأة العجوز وصاحب النزل ثانية والخروج من حيث أتى مباشرة. وفي كل

الأحوال ربما كان المكان هنا أكثر أمنًا من الطريق العام. وما لفت انتباهه طبعًا كان عدم اكتشافه أي حقيبة في الغرفة كلها، بقدر ما وسعه التأكد في شبه العتمة هذه. ولكن ربما، بل على الأرجح أن يكون الشابان خادما النزل، وسرعان ما سيضطران إلى النهوض بسبب الضيوف، ولهذا ناما بثيابهما. ولكن في هذه الحالة لن يكون النوم معهما لائقًا تمامًا، إلا أنه أقل خطرًا. ولكن ما دام هذا الحال لا يخلو من الريبة، فلا يجوز له بأي حال من الأحوال أن يستلقي على الأرض وينام.

تحت أحد السريرين كانت هناك شمعة مع علبة ثقاب، تناولهما كارل بخطوات حذرة. ولم يخش من إشعال الشمعة، لأن الغرفة بناء على إيعاز صاحب النزل، تخصه مثلما تخص الآخرَين، اللذين قد نعما فوق ذلك بالنوم طوال نصف الليل، وهما باحتلالهما السريرين يتمتعان بميزة لا تقارن مع وضعه. ثم إنه توخى كل الحذر والحيطة في حركاته لئلا يوقظهما.

أراد بادئ الأمر أن يتفحص حقيبته، كي يشكل لنفسه فكرة عن حاجياته، التي لم يعد يتذكرها بوضوح، ولا شك في أن أثمن ما فيها قد ضاع، إذ عندما يضع شوبال يده على شيء ما، فالأمل ضعيف في أن يستعيده المرء سالمًا. لكن شوبال كان يتوقع الحصول على إكرامية كبيرة من الخال. ولكن من جهة أخرى، بإمكانه في حال فقدان بعض الأغراض، أن يبرئ نفسه بالإحالة إلى الحارس الحقيقي للحقيبة السيد بوترباوم.

عندما فتح الحقيبة جزع كارل للوهلة الأولى، فكم من الساعات أمضى أثناء عبور المحيط في ترتيب محتويات الحقيبة وإعادة ترتيبها من جديد، ليجد كل شيء الآن محشوًا داخلها في فوضى عارمة، بحيث قفز الغطاء عاليًا عند فتح القفل.

لكنه سرعان ما أدرك ولفرحه، أن سبب هذه الفوضى هو أن هناك مَن وضع في الحقيبة بدلته، التي كان يرتديها أثناء الرحلة، ولم يكن لها طبعًا في الأساس مكان فيها. لم ينقص من المحتويات أي شيء. وفي الجيب السري لجاكيت البدلة لم يجد جواز سفره فحسب، بل أيضًا النقود التي أخذها من البيت، وبذلك بات كارل، بإضافته هذه النقود إلى ما معه،

في بحبوحة مالية للوقت الحاضر. كما وجد في الحقيبة الملابس الداخلية، التي كانت على جسمه عند وصوله، مغسولة ومكوية. فخبَّأ من فوره الساعة والنقود في الجيب السري الآمن. إلا أن ما أسف له، هو أن قطعة السلامي الڤيرونية، الموجودة أيضًا، قد وزَّعت رائحتها على كل محتويات الحقيبة. وإن لم يتوصل إلى وسيلة لإزالتها، فسيبقى كارل يتجول طوال شهور مغلفًا بهذه الرائحة.

أثناء تفتيشه عن بعض الأغراض التي كانت في الأسفل -وكانت إنجيل الجيب وورق رسائل وصور الوالدين– سقطت الطاقية عن رأسه في الحقيبة. وفي بيئتها القديمة تعرّف كارل عليها فورًا، لقد كانت طاقيته، الطاقية التي أعطته أمه إياها كطاقية سفر. لكنه من باب الحذر لم يلبسها على متن السفينة، لأنه كان يعرف أن الناس في أمريكا عامة يفضلون لبس الطواقي على القبعات، وهذا ما دفعه إلى عدم استهلاكها قبل الوصول. إلا أن السيد غرين قد استخدمها الآن طبعًا ليسلي نفسه على حساب كارل. فهل كلفه الخال يا ترى بذلك أيضًا؟ وبحركة لا إرادية غاضبة حرَّك دونما قصد غطاء الحقيبة، فانغلق بضجة عالية.

ما من حيلة عادت تنفع الآن، لقد استيقظ النائمان. في بادئ الأمر تمطى الأول وتثاءب، فتبعه الثاني فورًا. وكان معظم محتويات الحقيبة منثورًا على الطاولة؛ فإن كانا لصين فلن يحتاجا إلا لأن يتقدما ويختارا. وليستبق هذا الاحتمال وليوضح واقع الأمر، ذهب كارل إلى السريرين حاملًا الشمعة بيده وأوضح بأي حق يتواجد في الغرفة. لم يبدُ عليهما أنهما كانا يتوقعان هذا التفسير، ولأن النعاس مازال غالبًا عليهما، ليتمكنا من الكلام، نظرا إليه فحسب، دون أي دهشة. كانا شابين فتيين جدًا، لكن العمل الشاق أو العوز أبرز عظام وجهيهما قبل الأوان، وقد أحاطت بذقنيهما لحيتان شعثاوان، وشعر رأسيهما غير المقصوص منذ وقت طويل كان يغطي الرأسين على نحو أشعث أيضًا، وأخذا يدعكان أعينهما الغائرة ويضغطان عليها بعظام أصابعهما.

أراد كارل أن يستغل وضع الضعف الذي هما فيه آنيًا، فقال: «اسمي كارل روسمَن وأنا ألماني. وبما أننا نشغل نفس الغرفة أرجو أن تذكرا لي اسميكما وجنسيتيكما. أريد أن

أوضح فورًا أني لا أطالب بسرير ما دمت قد وصلتُ متأخرًا جدًا، ولا نية لدي أبدًا بأن أنام. وإضافة إلى ذلك لا تنصدما من مظهر بدلتي، فأنا فقير تمامًا وبلا آمال».

أصغرهما، وهو الذي مازال يلبس الجزمة، أشار بذراعيه وساقيه وقسمات وجهه إلى أن هذا كله الآن لا يهمه أبدًا وعاود الاستلقاء ونام فورًا؛ الثاني ذو البشرة الداكنة عاود أيضًا الاستلقاء، لكنه قال قبل أن ينام، مشيرًا بيده باسترخاء: «ذاك اسمه روبنسُن وهو إيرلندي، أنا اسمي ديلامارش وأنا فرنسي وأرجو الهدوء الآن».

ما أن قال ذلك حتى نفخ على الشمعة بقوة فأطفأها ورمى رأسه على الوسادة.

«حاليًا تم صد هذا الخطر»، قال كارل في نفسه وعاد إلى الطاولة. إن لم يكن نعاسهما مجرد ذريعة، فالأمور بخير. لكن المزعج في الأمر أن أحدهما كان إيرلنديًا. لم يعد كارل يعرف بدقة في أي كتاب قرأ في البيت ذات يوم، أن على المرء في أمريكا توخي الحذر من الإيرلنديين. في أثناء إقامته عند الخال كانت لديه أفضل فرصة طبعًا لتقصي مسألة خطر الإيرلنديين، لكنه فوَّتها كليًا، لظنه بأنه محاط إلى الأبد برعاية جيدة. وأراد الآن تحت ضوء الشمعة على الأقل، التي أشعلها ثانية، أن يدقق النظر في هذا الإيرلندي. ووجد أنه مقبول الشكل أكثر من الفرنسي، فخداه على الأقل مازالا ممتلئين، ويبتسم في نومه برقة. هذا ما تمكن كارل من التثبت منه وهو واقف على رؤوس أصابع قدميه على مسافة من السرير.

بما أنه رغم ذلك كله، بقي مصرًا على عدم النوم، فقد جلس على الكرسي الوحيد في الغرفة، وأجّل مؤقتًا ترتيب الحقيبة، ما دام الليل كله أمامه، وأخذ يقلب قليلًا في صفحات الإنجيل دون أن يقرأ شيئًا. ثم تناول صورة والديه الفوتوغرافية، حيث يقف والده القصير منتصب القامة، فيما جلست والدته على الكنبة أمامه، غارقة فيها قليلًا. وضع والده إحدى يديه على مسند ظهر الكنبة، وكوّر الثانية كقبضة وسندها على كتاب مصورٍ مفتوح وموضوع على طاولة زينة صغيرة إلى جانبه. هناك صورة فوتوغرافية أخرى يظهر فيها كارل مع والديه، اللذين ينظران إليه فيها بصرامة، في حين كان عليه بناء على توجيه المصور أن ينظر إلى آلة التصوير. لكنه لم يأخذ هذه الصورة معه في رحلته. ولذلك دقق

النظر أكثر في هذه التي أمامه، محاولًا من جوانب مختلفة أن يلتقط نظرة أبيه. لكن أباه أبى أن يُبعث حيًا، مهما غير كارل موضع الشمعة، وشارباه الكثان المستقيمان أفقيًا لم يشبها الواقع أبدًا، لم تكن اللقطة جيدة. أما أمه فكان حالها في الصورة أحسن، إذ كان فمها متقلصًا كما لو كانت تتوجع وكما لو أنها تقسر نفسها على الابتسام. وبدا لكارل أن كل مَن يرى الصورة سينتبه للأمر جدًا، وفي اللحظة التالية بدا له وضوح هذا الانطباع قويًا جدًا ويكاد ينافي العقل. فكيف يستطيع المرء من صورة فوتوغرافية أن يتوصل إلى القناعة الراسخة باستشعاره إحساسًا مضمرًا فيها!

رفع نظره عن الصورة برهة، وعندما عاود النظر إليها، لفتت انتباهه يد الأم، التي كانت في مقدمة الصورة تماماً، متدلية من على ذراع الكنبة، قريبة لأن يُقبِّلها المرء. وفكر بما إذا لم يكن من الجدير به حقًا أن يكتب لوالديه، حسبما طلبا منه كلاهما فعليًا (وأخيرًا الوالد بكل حزم في هامبورغ). صحيح أنه قد أقسم يمينًا لا رجعة عنه حينذاك، عندما كشفت له الأم ذات مساء شنيع وهما واقفين عند النافذة، عن رحلة أمريكا، بأنه لن يكتب إليهما أبدًا. ولكن ما قيمة قسم فتى غرٍ هنا في الظروف الجديدة! حينذاك كان بوسعه أن يقسم أيضاً، بأنه بعد شهري إقامة في أمريكا سيصير جنرال الجيش الشعبي الأمريكي، بينما هو في واقع الأمر موجود مع صعلوكين في عليَّةِ نزلٍ قرب نيويورك، وعليه أن يعترف أيضًا بأنه هنا في الحقيقة قد وجد مكانه. وتفحص وجهي والديه مبتسمًا، وكأنه يستطيع أن يستشف منهما، ما إنْ كانا لا يزالان راغبين بالحصول على رسالة من ابنهما. ولاحظ بعد برهة من هذا التأمل بأنه فعليًا متعب جداً ولن يتمكن من الصمود عبر الليل كله. سقطت الصورة من يديه على الطاولة، ثم وضع وجهه على الصورة، التي أنعشت برودتها خده، ونام بشعور مريح. استيقظ في البكور على دغدغة في إبطيه. كان الفرنسي هو الذي سمح لنفسه بهذه السماجة. لكن الإيرلندي كان واقفًا عند طاولة كارل أيضًا، وكانا ينظران إليه باهتمام لا يقل عما أبداه كارل حيالهما في الليل. لم يستغرب أن استيقاظهما لم يوقظه، ولا يبدو أن تحركهما بهدوء كبير كان بسوء نية، فقد كان مستغرقًا جدًا في النوم، إضافة إلى أنه من الواضح تمامًا أن لبسهما واغتسالهما لم يكلفهما كبير عناء.

تبادلوا التعارف الآن بشكل مرتب وإنْ بشيء من الشكلية، وعرف كارل منهما أنهما كانا ميكانيكيي آلات، ولم يتمكنا لمدة طويلة في نيويورك من الحصول على عمل فتدهورت أحوالهما جدًا نتيجة لذلك. وعلى سبيل البرهان فتح روبنسُن جاكيته، فصار بوسع المرء أن يرى عدم وجود قميص تحته، الأمر الذي كان واضحاً أيضًا من ياقة قميصٍ وحسب، كانت مثبتة على الجاكيت وراء العنق. وكانا ينويان السير إلى بلدة بَتَرفورْد الواقعة على مسافة يومين مشيًا من نيويورك، حيث يُقال إن هناك أماكن عمل شاغرة. ولا مانع لديهما أن يرافقهما كارل، ووعداه أولًا بمساعدته في حمل حقيبته بين الحين والآخر، وثانيًا في حال حصولهما على عمل، بأن يدبرا له عملًا كمتدرب، وهو أمر في غاية السهولة إذا توفر الشغل أصلًا. لم يكد كارل يوافق حتى قدما له نصيحة ودية بأن يخلع البدلة الجميلة، لأنها ستشكل عائقًا عند كل تقدمٍ لطلب عمل. وفي هذا النزل تحديدًا هناك فرصة جيدة للتخلص من البدلة، فالمرأة العجوز تشتغل بشراء وبيع الثياب. وساعدا كارل، الذي لم يحسم أمره بشأن البدلة نهائيًا بعد، في خلعها وذهبا بها. وكارل الذي بقي وحيدًا وقد غلبه النعاس وهو يرتدي بدلة السفر القديمة ببطء، لام نفسه على بيع البدلة، فهي قد تكون عائقًا أمام الحصول على عملِ متدرب، لكنها قد تكون مفيدة في الحصول على عملٍ أعلى مرتبة، ففتح الباب ليطلب منهما الرجوع، فإذا به يصطدم بهما عائدين ليضعا له على الطاولة نصف دولار حصيلة البيع، راسمين على وجهيهما ابتسامة فرح كبيرة، تكاد تمنع المرء عن إقناع نفسه بأنهما قد حصلا لنفسيهما من البيع على نصيبهما من ربحٍ كبير يثير الحنق.

لم يكن هناك وقت على كل حال ليجهرَ بما لديه حول الموضوع، فقد دخلت المرأة الغرفة، نعسى جدًا كما كانت في الليل، وأخذت تدفع الثلاثة إلى الخارج، مفسرة ذلك بأنه لابد من تهيئة الغرفة لضيوف جدد. لكن كلامها لم يكن له علاقة بالحقيقة طبعًا، بل كانت تتصرف بسوء طوية وحسب. وكارل الذي كان يبغي لتوه ترتيب حقيبته، اضطر إلى مشاهدتها وهي ترمي أغراضه بكلتا يديها بقوة في الحقيبة، وكأنها حيوانات لابد من إسكاتها. حاول الميكانيكيان جهدهم لإلهائها، فأخذا يشدان تنورتها ويطبطبان على ظهرها، ولكن إنْ كانا بذلك يقصدان مساعدة كارل، فجهدهما لم يكن في محله. وعندما أغلقت المرأة الحقيبة

ووضعت مقبضها بقوة في يد كارل، نفضت عنها الميكانيكيين وطردت الثلاثة من الغرفة تحت تهديد عدم تقديم القهوة لهم إنْ لم يطيعوها. كان جليًا أن المرأة قد نست كليًا أن كارل لا ينتمي إلى الميكانيكيين منذ البداية، فقد كانت تعامل الثلاثة وكأنهم عصابة واحدة، ومن المؤكد أن الميكانيكيين قد باعاها بدلة كارل، فأثبتا بذلك عنصرًا مشتركًا فيما بينهم.

تحت في الدهليز، كان عليهم أن ينتظروا طويلا وهم يمشون جيئة وذهابًا، ولا سيما الفرنسي الذي تأبط ذراع كارل وأخذ يشتم باستمرار مهددًا بلكم صاحب النزل وبطحه أرضًا إذا جرؤ على الظهور، وكتحضير للأمر أخذ يدعك قبضتيه المكوّرتين ببعضهما بسرعة. وأخيرًا جاء صبي صغير بريء اضطر إلى أن يمط نفسه كي يناول الفرنسي دورق القهوة المعدني. وللأسف لم يتوفر إلا الدورق، كما لم يستطيعوا إفهام الصبي أنهم بحاجة إلى كؤوس أيضًا. وهكذا كان بوسع أحدهم فقط أن يشرب من الدورق، فيما يقف الآخران بجانبه منتظرين. لم يكن كارل راغبًا في شرب القهوة من الدورق، لكنه لم يرِد أن يجرح مشاعر الآخرين، فكان يقف عندما يأتي دوره دون أن يفعل شيئًا والدورق على شفتيه.

على سبيل التوديع رمى الإيرلندي دورق القهوة المعدني الفارغ على البلاطات الحجرية. ودون أن يراهم أحد غادروا النزل وغابوا في ضباب الصباح الكثيف الضارب للصفرة. كان على كارل أن يحمل حقيبته، وربما لن يحل أحدهما محله إلا إذا رجاه كارل ذلك. بين الحين والآخر كانت تنطلق سيارة بين الضباب، فكان الثلاثة يلتفتون برؤوسهم غالبًا نحو السيارات الهائلة الحجم، التي تلفت النظر جدًا بموديلاتها وبقصر مدة ظهورها، التي لا تكفي حتى لملاحظة وجود ركاب فيها. ولاحقًا ظهرت قوافل عربات النقل التي كانت تنقل مواد غذائية إلى نيويورك، وكانت تتشكل من خمسة أرتال تحتل عرض الشارع وتسير متراصة وراء بعضها بحيث لا يتمكن المرء من قطع الشارع. ولكن بين الحين والآخر كان يتسع عرض الطريق ليصبح ساحة، يقوم في وسطها مرتفع برجي الشكل، يخطو عليه جيئة وذهابًا شرطي مرور ليراقب كل شيء وينظم بعصا صغيرة بيده حركة المرور على الشارع الرئيسي والطرق الفرعية التي تصب في الساحة، وحتى الساحة القادمة وشرطيّها

تبقى حركة المرور بلا رقيب، لكنها تبقى منظمة كفاية وطوعيًا بانتباه صامت من قبل حوذية عربات النقل والسيارات. وأكثر ما أثار دهشة كارل كان الهدوء العام. فلولا خوار الحيوانات الغافلة المسوقة إلى الذبح، لما سمع المرء شيئًا عدا طقطقة حوافر حيوانات الجر وطنين موانع الانزلاق، علمًا بأن سرعة السير ليست هي نفسها دائمًا طبعًا. ففي ساحات معينة ونتيجة الضغط الكبير من الطرقات الفرعية، إذا كانت هناك حاجة ماسة لتغيير كبير في حركة المرور، كانت توقَف الأرتال كلها ثم تتحرك خطوة فخطوة، وقد يحدث أحيانًا لبرهة قصيرة أن يتحرك كل شيء بسرعة البرق، إلى أن يتباطأ مجددًا كل شيء معًا وكأنه محكوم بكابح واحد. ورغم ذلك لا يتصاعد من الطريق أي أثر لغبار، بل يتحرك كل شيء في أنقى هواء. لم يكن هنالك مشاة، فهنا لا تسير فلاحات منفردات في طريقهن إلى السوق في المدينة، كما في موطن كارل، ولكن كانت تظهر أحيانًا سيارات كبيرة مسطحة تقف عليها نحو عشرين امرأة مع سلال ظهر، ربما فلاحات سوق إذن، رافعات أعناقهن للاطلاع على حركة المرور، على أمل الوصول بسرعة. وكانت تُرى أحيانًا سيارات مشابهة عليها رجال فرادى، أيديهم في جيوب بناطيلهم ويتحركون جيئة وذهابًا.

على إحدى هذه السيارات التي تحمل كتابات مختلفة، قرأ كارل مع صيحة صغيرة: «مطلوب عمال ميناء لوكالة جيكوب للشحن». كانت السيارة تسير حين ذاك ببطء شديد، وكان يقف على درجات السيارة رجل قصير القامة محني الظهر، دعا المشاة الثلاثة بكل حيوية للصعود. توارى كارل وراء الميكانيكيين، وكأن خاله قد يكون على السيارة فيراه. وشعر بالفرح لرفض الاثنين الدعوة، لكن تعبير الرفض المتعجرف على وجهيهما، جرح مشاعره نوعًا ما، إذ لا يجوز لهما أن يعتقدا بأنهما أرفع من مستوى الدخول في خدمة الخال. وقد أفهمهما كارل ذلك فورًا، وإنْ ليس بصراحة بطبيعة الحال. وبناء على ذلك رجاه ديلامارش ألا يتدخل في مسائل لا يفهمها؛ فهذه الطريقة في جمع العمال تعتبر احتيالًا مشينًا، ووكالة جيكوب سيئة السمعة في جميع الولايات المتحدة. لم يجبه كارل، لكنه صار منذ تلك اللحظة أكثر التصاقًا بالإيرلندي، ورجاه أيضًا أن يحمل عنه الحقيبة قليلًا الآن، لكن الإيرلندي لم يلبِّ رجاءه، إلا بعد أن كرره كارل عدة مرات، ومن ثم لم يتوقف الإيرلندي عن الشكوى من ثقل الحقيبة، إلى أن تبين أنه لا يبغي إلا تخفيف وزنها من ثقل السلامي

القيروني، الذي أثار اهتمامه على نحو محبب منذ كانوا في النزل. فكان على كارل أن يُخرجه، وتناوله منه الفرنسي ليعالج غلافه بسكينه الخنجرية، وكاد أن يلتهمه كله لوحده، في حين كان يحصل الإيرلندي بين الحين والآخر على شريحة، أما كارل الذي عاد مضطرًا لحمل الحقيبة، لعدم رغبته بتركها على قارعة الطريق، فإنه لم يحصل حتى على شريحة واحدة، ولكأنه قد أكل حصته مسبقًا. بدا له من الصَغَار أن يتسول شريحة صغيرة، لكنه شعر بمرارته تكاد تنفجر غضبًا.

انقشع الضباب كليًا. وفي البعيد كان يظهر جبل عال بسلسلة ذرا متماوجة تغلفها شبورة الشمس. على جانب الطريق هناك حقول غير معتنى بها تحيط بمعامل كبيرة منتصبة بجدرانها المسودة في الأراضي الرحبة. وفي العمارات السكنية المُعدّة للإيجار القائمة على نحو عشوائي منعزلة عن بعضها، كانت النوافذ الكثيرة ترتجف بمختلف أشكال الحركة والإضاءة النهارية، وعلى الشرفات الصغيرة والهشة كان هناك نسوة وأطفال منهمكون بأعمال متنوعة، تحيط بهم قطع غسيل منشورة على حبال أو على الأسوار، فتحجبهم تارة وتكشفهم تارة أخرى وهي ترفرف وتنتفخ بقوة مع ريح الصباح. وعندما تبتعد النظرات عن العمارات يرى المرء القبرات في كبد السماء بينما يطير السنونو غير بعيد عن رؤوس العابرين في الشاحنات.

ثمة الكثير مما ذَكَّر كارل بوطنه، ولم يعرف ما إن كان يُحسِن عملًا بالابتعاد عن نيويورك نحو الداخل. في نيويورك هناك البحر والإمكانية المتوفرة دائمًا للرجوع إلى الوطن. وهكذا توقف عن السير وقال لمرافقيه، إنه يفضل البقاء في نيويورك. وعندما أراد ديلامارش ببساطة أن يدفعه كي يتابع معهما، لم يدعه يفعل ذلك وقال بأنه يملك حق التصرف بنفسه. فكان على روبنسُن أن يتوسط ويوضح بأن بترفورد أجمل بكثير من نيويورك، وكان على كليهما أن يلحا في رجائه إلى أن قبِل بمتابعة الطريق معهما. وحتى عند ذلك ما كان ليتابع، لو لم يقنع نفسه، بأن من الأفضل له التوجه إلى مكان، لا تكون فيه إمكانية الرجوع إلى الوطن أمرًا سهلًا. فمن المؤكد أنه سيشتغل عند ذلك ويتقدم دون أن تعوقه أفكار غير مجدية. فتحول الآن إلى موقف مَن يحث الآخَرين على المسير، ففرحا باندفاعه كثيرًا إلى

درجة أن تبادلا حمل الحقيبة عوضًا عنه، حتى دون أن يرجوهما ذلك. أما كارل فلم يفهم أبدًا، ما الذي بدر منه ليسبب فرحتهما هذه.

وصلوا إلى منطقة آخذة بالصعود، وعندما كانوا يتوقفون بين الحين والآخر ويستديروا إلى الخلف كان بوسعهم مشاهدة بانوراما نيويورك وميناءها وهي تتسع بتطور مستمر. والجسر الذي يربط نيويورك ببروكلِن كان معلقًا بليونة فوق إيست ريڤر، وإذا ما ضيَّق المرء عينيه كان يرى اهتزازه. بدا الجسر خاليًا من أي حركة مرور، وتحته امتد شريط الماء الأملس الخالي من الحياة. كما بدا كل شيء في المدينتين الضخمتين خاويًا وقائمًا بلا نفع. وعلى صعيد الأبنية لم يكن هناك أي فارق بين الكبيرة والصغيرة. وربما كانت الحياة في العمق اللامرئي للشوارع مستمرة وفق طبيعتها، ولكن ما من شيء كان مرئيًا على الشوارع نفسها سوى شبورة خفيفة، بدت ساكنة لا تتحرك، ولكن من السهل إزالتها دونما جهد يذكر. وحتى في الميناء، الأكبر في العالم، ساد هدوء، ولكن بين الحين والآخر كان يتهيأ للمرء، متأثرًا بذكرى نظرة سابقة من قرب، أنه يرى سفينة تتحرك لمسافة قصيرة، لكنه لا يتمكن من متابعتها طويلًا، لأنها تتوه عن العينين وتختفي.

لكن من الواضح أن ديلامارش وروبنسُن قد رأيا أكثر بكثير، كانا يؤشران نحو اليمين واليسار ويرسمان بأيديهما الممدودة أقواسًا فوق حدائق وساحات يذكران أسماءها. لم يستطيعا أن يستوعبا أن كارل طوال ما يزيد عن شهرين في نيويورك، لم يرَ من المدينة إلا شارعًا واحدًا. ووعداه في حال كان كسبهما جيدًا في بترفورد، أن يذهبا معه إلى نيويورك وأن يُرِياه كل ما يستحق المشاهدة، ولاسيما طبعًا تلك الأماكن بعينها، حيث يستمتع المرء حتى الشبع. وعقب ذلك مباشرة انطلق روبنسن يغني بملء فمه أغنية رافقها ديلامارش بصفقات إيقاعية، وعرفها كارل كلحن أوبريت من بلده، أعجبه هنا بالنص الإنجليزي على نحو أفضل بكثير من إعجابه به في الوطن. وهكذا قدموا عرضًا في الهواء الطلق شارك فيه الجميع، إلا أن المدينة هناك تحت، التي يُفترض أنها تستمتع بهذا اللحن، بدا أنها لا تعرف شيئًا عن الموضوع.

ومرةً سأل كارل عن موقع وكالة جيكوب للشحن، ورأى فورًا سبابتي ديلامارش وروبنسن ممدودتين وتشيران ربما إلى الموضع نفسه وربما إلى موضعين يبتعدان عدة أميال عن بعضهما. وعندما تابعا السير سأل كارل عن أقرب موعد يمكنهما فيه العودة إلى نيويورك بعد كسب كافٍ. فقال ديلامارش بأنه من المحتمل جدًا أن يكون بعد شهر، ففي بترفورد هناك نقص في الأيدي العاملة والأجور عالية. وهم بطبيعة الحال سوف يضعون أجورهم في صندوق مشترك، كي تتعادل فروق الأجور بينهم، باعتبارهم زملاء. فكرة الصندوق المشترك لم تعجب كارل، رغم أن أجره كمتدرب سيكون أقل طبعًا. وأضاف روبنسن إلى ذلك، أنهم في حال عدم توفر عمل في بترفورد، سيضطرون إلى متابعة تجوالهم، إما للشغل كعمال زراعيين في مكان ما، أو ربما للبحث عن الذهب في مياه كاليفورنيا، وهو الخطة المفضلة عند روبنسن حسبما يُستشف من حكاياته التفصيلية. فسأله كارل غير الراغب في الاستماع إلى ضرورة الارتحال البعيد وغير الآمن:

«لماذا صرتَ ميكانيكيًا، إذا كنت تريد الآن البحث عن الذهب؟».

«لماذا صرتُ ميكانيكيًا؟» كرر روبنسن وأردف: «من المؤكد طبعًا كي لا أموت جوعًا. هناك في أماكن البحث عن الذهب يوجد مكسب كبير».

«كان، ذات يوم»، قال ديلامارش.

«مازال حتى الآن»، علق روبنسن وحكى عن كثيرين من معارفه الذين اغتنوا من عمليات البحث، ومازالوا هناك حتى الآن، لكنهم توقفوا عن البحث طبعًا، وهم بسبب الصداقة القديمة سيساعدونه بطبيعة الحال مع زملائه في الوصول إلى الثراء.

«سوف نفوز بأماكن عمل في بترفورد»، قال ديلامارش، وكان يعبر بذلك عن توق كارل، لكن طريقة تعبيره لم تكن مطَمْئنة.

أثناء النهار توقفوا مرة واحدة فقط في مطعم وجلسوا خارجه إلى طاولة حديدية، حسبما بدت لكارل، وأكلوا لحمًا كاد يكون نيئًا، لم يمكنهم تقطيعه بالسكين والشوكة، وإنما تمزيقه. وكان للخبز شكل أسطواني، وفي كل رغيف كانت هناك سكين طويلة مغروزة. ومع هذا الطعام كانوا يقدمون مشروبًا أسود اللون يحرق الحلق. لكن ديلامارش وروبنسن استمتعا به، وكثيرًا ما كانا يرفعان كأسيهما عاليًا نخب تحقيق أمنيات متنوعة ويبقيان الكأسين برهة مرفوعين وملتصقين. على الطاولة المجاورة جلس عمال يلبسون قمصانًا ملطخة بالكلس، وكانوا كلهم يشربون الشراب نفسه. والسيارات التي تعبر بكثرة كانت تثير سحبًا من الغبار ترسو على الطاولات. وزِّعت على الجالسين جرائد بصفحات ذات حجم كبير، ودار كلام منفعل حول إضراب عمال البناء، وذُكر اسم ماك كثيرًا. استفسر كارل عنه وعلم أن المعني هو والد ماك، الذي يعرفه جيدًا، وأنه أكبر متعهد بناء في نيويورك. وقد كلفه الإضراب خسارة ملايين الدولارات وقد يهدد وضعه الاجتماعي. لم يصدق كارل أي كلمة من هذه الثرثرة الصادرة عن أناس سيئي الاطلاع والنوايا.

إضافة إلى ذلك شعر كارل بشيء من السخط مع انتهائهم من الأكل بسبب عدم وضوح طريقة دفع الحساب. كان الوضع الطبيعي أن يدفع كل منهم نصيبه، لكن ديلامارش وروبنسن أيضًا أشارا أحيانًا إلى أن آخر نقودهما قد ذهب أجرة مبيت الليلة الأخيرة. ولم يرَ كارل مع أي منهما ساعة أو خاتمًا أو أي شيء قابل للبيع. ولم يكن بوسعه اتهامهما بالكسب من بيع بدلته، لأن هذا كان سيُعتبر إهانة وبالتالي وداعًا نهائيًا. إلا أن المستغرب كان، أن أيًا منهما لم يبدِ أي قلق بشأن دفع الحساب، بل كانا في مزاج طيب، محاولين ما أمكنهما عقد صلة مع النادلة، التي كانت تتبختر بين الطاولات بخيلاء. كان شعرها على الجانبين يتدلى سائبًا نوعًا ما على جبينها وخديها، وكانت تعاود مرارًا دفعه بيديها إلى الوراء. أخيرًا وعندما توقع المرء أن يسمع منها أول كلمة ودية، وقفت واضعة كلتا يديها على الطاولة وسألت: «مَن سيدفع؟» لم يرَ كارل سابقًا أيادٍ تطير بالسرعة التي طارت فيها الآن يدا ديلامارش وروبنسن مشيرتين نحو كارل. لم يفزعه ذلك، لأنه كان يتوقعه، ولم يرَ ما يسيء في أن الزميلين، اللذين كان يتوقع منهما أيضًا بعض المنافع، قد جعلاه يسدد

عنهما بعض الأمور التافهة، لكن اللياقة كانت تملي عليهما التباحث معه في الأمر بوضوح قبل اللحظة الحاسمة. إلا أن ما أحرجه، هو اضطراره لإخراج النقود من الجيب السري أولًا. كانت نيته الأصلية هي حفظ النقود للطارئ الأخير، وأن يضع نفسه مؤقتًا مع زميليه في صف واحد. والميزة التي كان يملكها بهذا المال، وفي المقام الأول بكتمان امتلاكه عن زميليه، كانت تعادل وزيادة كونهما قد نشأا في أمريكا منذ الطفولة، وكونهما يملكان ما يكفي من المعرفة والخبرات لكسب المال، ولأنهما أخيرًا ليسا معتادين على ظروف معيشة أفضل من الحالية. ونوايا كارل الحالية بشأن نقوده ما كانت لتتأثر في حقيقة الأمر بدفعه هذا الحساب، فهو قادر في نهاية المطاف على الاستغناء عن ربع دولار، ولهذا بإمكانه أن يضع قطعة ربع دولار على الطاولة مع القول بأنها كل ما يملك، وأنه مستعد للتضحية بها من أجل الرحلة المشتركة إلى بترفورد. وبما أن الرحلة ستتم مشيًا، فإن هذا المبلغ كاف كليًا. إلا أنه لم يكن يعرف ما إن كانت الفراطة التي معه ستكفي، وفوق ذلك كانت الفراطة والأوراق النقدية المطوية موجودة في مكان ما في عمق الجيب السري، وأفضل طريقة للعثور على شيء فيه هي نفض جميع محتوياته على الطاولة. يضاف إلى ذلك أنه لا ضرورة إطلاقًا لأن يعرف زميلاه عمومًا بأمر هذا الجيب السري. وبدا الآن لحسن الحظ أن الزميلين أكثر اهتمامًا بالنادلة منهما بكيفية تدبير كارل مبلغ الحساب. فاستدرجها ديلامارش للانتظار بينه وبين روبنسن بمطالبتها بأن تكتب لهم تفاصيل الحساب، ولم تستطع ردع تحرشاتهما إلا بوضعها كفها على وجه هذا أو ذاك ودفعه بعيدًا عنها. في أثناء ذلك قام كارل تحت الطاولة، وهو يتصبب عرقًا من الجهد، بجمع قطع الفراطة في إحدى يديه، فيما الثانية تغوص في الجيب السري لاصطياد قطع أخرى وإخراجها، إلى أن اعتقد، على الرغم من عدم معرفته الدقيقة بقطع الفراطة الأمريكية، أن المجموع كافٍ حسب عدد القطع على الأقل، ووضعها على الطاولة. وفورًا قطع رنين النقود مداعبات الزميلين. لكن ما أثار غضب كارل وسبب دهشة عامة، هو أن مجموع القطع، حسبما تبين، كان يقارب دولارًا كاملًا. ومع أن لا أحدًا قد سأله، لماذا لم يذكر سابقًا هذا المبلغ الكافي لرحلة مريحة بالقطار إلى بترفورد، فقد ارتبك كارل جدًا. وببطء، بعد دفع الحساب، جمع بقية المبلغ ثانية، غير

أن ديلامارش أخذ قطعة من وسط يده، احتاجها إكرامية للنادلة وهو يعانقها ويشدها إليه بيد، ليناولها قطعة النقود باليد الأخرى.

أثناء متابعة الطريق كان كارل ممنونًا لهما، لعدم ذكرهما النقود بأية ملاحظة، إلى حد أن ساورته فكرة الاعتراف لهما بكل ثروته، لكنه تخلى عن الأمر، إذ لم تسنح فرصة مناسبة لذلك. مع حلول المساء وصلوا إلى منطقة شبه ريفية تبدو خصبة. حيثما التفت المرء كان يرى حقولًا غير مجزأة، تشمل بخضرتها اليانعة بعض الهضاب الناعمة، في حين أحاطت الڤيلات الريفية الفاخرة بالطريق العام. ومشوا طوال ساعات بين أسوار الحدائق المذهبة، وقطعوا عدة مرات النهر نفسه الذي ينساب ماؤه بهدوء، وكثيرًا ما سمعوا فوقهم على الجسور المعدنية ذات الأقواس أصوات قطارات عابرة مثل قصف الرعد.

كانت الشمس تنزل لتوها وراء الخط شبه المستقيم لأطراف غابات بعيدة، عندما رموا أنفسهم، ليرتاحوا من عناء الطريق، على حشائش ربوة وسط مجموعة صغيرة من الأشجار. استلقى كل من ديلامارش وروبنسن وأخذا يتمطيان ما وسعهما ذلك، فيما جلس كارل معتدلًا وأخذ ينظر إلى الطريق على عمق بضعة أمتار، حيث تنطلق السيارات كما طوال النهار مسرعة وراء بعضها، وكأن ثمة عددًا دقيقًا منها يُرسَل على نحو متتال من البداية النائية، ويُتوقَّع وصول العدد نفسه إلى النهاية النائية الأخرى. وطوال النهار منذ بكور الصبح لم يرَ كارل أي سيارة تتوقف ولا أي راكب يترجل.

اقترح روبنسون قضاء الليلة هنا، لأنهم جميعهم متعبون كفاية، وسيكون بإمكانهم من ثم الانطلاق صباحًا في وقت أبكر، ولأنهم أخيرًا لن يجدوا قبل هبوط الظلام مكان مبيتٍ أرخص وأفضل موقعًا. وافق ديلامارش، في حين أحس كارل بأنه ملزم أمامهما بالإشارة إلى أن لديه ما يكفي من النقود لدفع أجرة مبيتِ ثلاثتهم في فندق. فقال ديلامارش إنهم سيحتاجون إلى هذه النقود لاحقًا، وما على كارل سوى أن يحفظها جيدًا. ولم يخفِ ديلامارش إطلاقًا أنهما يعتمدان على نقود كارل. بما أن اقتراح روبنسن الأول لاقى القبول، فقد اقترح أيضًا، أن عليهم الآن قبل النوم ولتقوية أنفسهم للغد، أن يتناولوا وجبة دسمة،

وعلى أحدهم أن يجلب الطعام للجميع من الفندق القريب من الطريق العام والذي تضيء لافتته بكلمتي «هوتِل أوكسيدِنْتَل» (الفندق الغربي). وبما أنه الأصغر ولم يتقدم سواه، لم يتردد كارل بالقيام بالمهمة، وذهب إلى الفندق بعد أن طلبا منه إحضار لحم خنزير مدهِن وخبز وبيرة.

لابد من وجود مدينة كبيرة في الجوار، فأول قاعات الفندق التي دخلها كارل كانت مليئة بحشد صاخب، وعند البوفية التي امتدت على طول جدار صدري وجدارين جانبيين، كان عدد كبير من الندُل يتنقلون بلا توقف وهم يرتدون مرايل بيضاء تغطي صدورهم، دون أن يتمكنوا من إرضاء الضيوف نافدي الصبر، فطوال الوقت كان يسمع المرء من مختلف الأماكن لعنات تذمر وخبطات قبضات على الطاولات. لم يلتفت أحد إلى كارل؛ وفي القاعة نفسها لم يكن هناك خدمة. والضيوف الجالسون إلى طاولات صغيرة، كل واحدة منها محشورة بين ثلاث طاولات مجاورة، كانوا يجلبون بأنفسهم ما يرغبون به من البوفية مباشرة. وعلى كل طاولة كان هناك زجاجة زيت أو خل أو ما شابه من الحجم الكبير. وجميع الأطعمة التي كانت تُحضَر من البوفية، كان الضيوف يصبون عليها من هذه الزجاجة. ولو أراد كارل الوصول إلى البوفية، حيث ستبدأ المشاكل على الأرجح، بالنظر إلى كبر طلبه، لكان عليه أن يشق لنفسه طريقًا بين الطاولات الكثيرة، الأمر الذي مع كل الحذر طبعًا لن يمكن تنفيذه دون مضايقات مزعجة للضيوف، الذين كانوا يتقبلون كل شيء بلا إحساس تقريبًا، حتى عندما دفع أحدهم كارل باتجاه طاولة فكاد أن يسقطها. صحيح أنه قد اعتذر، ولكن من الواضح أن ما قاله لم يفهمه أحد، مثلما أنه لم يفهم شيئًا مما وجهوه إليه من كلمات.

عند البوفية وجد كارل بشق الأنفس موضعًا صغيرًا شاغرًا، حيث ولفترة طويلة، سدت مجموعة من أكواع جيرانه المستندة على الطاولات المجاورة، الرؤية أمامه. بدا الأمر عادة شائعة هنا عمومًا، أن يسند المرء كوعه على الطاولة وأن يسند صدغه على قبضة يده؛ ما استدعى إلى ذاكرة كارل مدى كره معلم اللغة اللاتينية الدكتور كرومبال لهذه الوضعية،

وكيف كان دائمًا يتقدم خلسة ويُسقِط فجأة، بحركة مازحة بمساعدة مسطرة تظهر على حين غرة، الكوعين المستندين على المقعد.

وقف كارل مضغوطًا إلى البوفية، إذ ما أن اصطف حتى وضِعت طاولة خلفه، وأحد الضيوف الذين جلسوا إليها كان كلما رفع رأسه ليتكلم يحك بطرف قبعته الكبيرة ظهر كارل. ورغم ذلك لم يكن ثمة أمل بالحصول على شيء من أحد الندل، وحتى بعد أن غادر جاراه الثقيلان البوفية راضيين. عدة مرات أمسك كارل من فوق الطاولة مريول أحد الندل، لكن النادل كان دائمًا ينتزع مريوله من يد كارل مكشرًا وجهه. ولم يستطع إيقاف أحد منهم، إذ كانوا يهرعون بلا هوادة. فقط لو كان بالقرب من كارل شيئًا يستحق الأكل والشرب، لأخذه كارل واستفسر عن السعر ووضع الثمن وغادر مسرورًا. لكن كل ما كان بقربه كانت صحافًا مملوءة بأسماك شبيهة بالرنجة، حراشفها السوداء تلمع بلون ذهبي عند أطرافها. ويُحتمل أن تكون باهظة الثمن من دون أن تشبع أحدًا. وبقربها وبمتناول يده كانت هناك براميل روم صغيرة، لكنه لم يبغ إحضار روم لزميليه، إذ بدا أنهما ينتهزان كل مناسبة لشرب الكحول المركز، وهو لا يريد أن يدعمهما في هذا. لم يتبق أمام كارل إذن، إلا البحث عن مكان آخر والبدء ببذل جهوده من جديد. لكن الوقت كان يتقدم أيضًا. الساعة المعلقة في الجانب الآخر من القاعة، والتي يشوش الدخان الكثيف رؤية عقربيها بوضوح، أشارت إلى ما بعد التاسعة. في الأماكن الأخرى على البوفية كان الازدحام أشد من المكان السابق المتطرف قليلًا. يضاف إلى ذلك أن الازدحام في القاعة كان يزداد كلما تقدم الوقت. فالضيوف الجدد كانوا يتدفقون باستمرار عبر المدخل الرئيسي مع صيحات هاللو عالية. وفي بعض المواضع أخلى الضيوف البوفية بكل ثقة بالنفس وجلسوا على منصتها وبدأوا يتبادلون الأنخاب، وكانت تلك أفضل الأماكن، فمنها يشرف الجالسون على القاعة بكاملها.

تابع كارل شق طريقه في زحام البوفية، إلا أنه في حقيقة الأمر فقد أمله في التوصل إلى شيء. أخذ يلوم نفسه لتبرعه بجلب هذا الطلب، وهو الذي يجهل الأجواء المحلية. وسيكون زميلاه محقين في تأنيبه ولومه، وقد يذهب بهما الظن إلى أنه لم يجلب شيئًا، فقط كي يقتصد في المصروف. وجد نفسه الآن في منطقة، حيث الضيوف على الطاولات

من حوله يأكلون لحومًا حمراء ساخنة مع بطاطا صفراء شهية؛ ولم يستوعب كيف تحصَّل الناس عليها.

في تلك اللحظة وعلى مسافة خطوات منه رأى امرأة كبيرة نوعًا ما، وبعض العاملين في الفندق على ما بدا، واقفة تتكلم ضاحكة مع أحد الضيوف، دون أن تتوقف عن غرز دبوس شعر في مواضع مختلفة من تسريحتها. وفورًا قرر كارل أن يتقدم بطلبه إلى هذه المرأة، لأنها بدت له كامرأة استثناء في القاعة كلها من الضجيج والتراكض، ولأنها بكل بساطة كانت موظفة الفندق الوحيدة المتواجدة حاليًا، بشرط طبعًا ألا تركض وراء أشغالها مع أول كلمة يوجهها إليها. لكن ما حدث كان العكس تمامًا. لم يكلمها كارل، بل وقف يراقبها قليلًا، وكما يحدث أحيانًا أثناء الحديث، عندما ينظر المتحدث جانبًا، التفتت نحو كارل، قطعت حديثها، وسألته بودٍ وبإنجليزية واضحة كالقواعد، عما إن كان يبغي شيئًا.

«بطبيعة الحال»، قال كارل، «فأنا لا أستطيع الحصول على أي شيء هنا».

«تعال معي إذن، يا صغير»، قالت وودعت محدثها، الذي رفع لها قبعته، الأمر الذي بدا هنا مجاملة لا تصدق، أمسكت بيد كارل وذهبت إلى البوفية، أزاحت ضيفًا جانبًا، فتحت بابًا قلابًا في منصة البوفيه، عبرت الممر وراء المنصة، حيث لا بد من توخي الحذر من حركة الندل الدائبة، فتحت بابًا أخر في الحائط المغلف بورق الجدران، فإذا بهما داخل مخزن المؤونة الكبير والبارد. «على المرء معرفة الآلية»، قال كارل في نفسه.

«إذن، ما الذي تريده؟» قالت المرأة وانحنت نحوه جاهزة للخدمة. كانت سمينة جداً، وكان جسمها يتأرجح، لكن وجهها، بالمقارنة نسبيًا طبعًا، كان ذا تكوين رقيق. أمام منظر أنواع المأكولات الكثيرة المصفوفة هنا بعناية على الرفوف، انتابت كارل غواية أن يطلب بسرعة طعام عشاء فاخر، ولاسيما مع توقعه الحصول على تخفيض في السعر من هذه المرأة ذات النفوذ الكبير، غير أنه لعجزه عن تذكر ما يناسب، لم يطلب سوى لحم خنزير مدهن وخبز وبيرة.

«لا شيء آخر؟» سألته المرأة.

«لا، شكرًا، ولكن لثلاثة أشخاص». أجاب كارل.

وردًا على سؤال المرأة عن الشخصين الآخرين، حكى لها كارل عن زميليه ببعض الجمل القصيرة، وكان مسرورًا بأن يُسألَ قليلًا.

«لكن هذا طعام مساجين»، قالت المرأة وكان جليًا أنها توقعت من كارل طلبات إضافية. لكنه خشي أنها ستهديه طعامًا ولن تقبل مالًا لقاءه، ولذلك صمت.

«سنرتب طلبك فورًا»، قالت المرأة ومشت، بمرونة تثير الإعجاب بالنسبة إلى سمنتها، إلى طاولة وقطعت عليها بسكينٍ منشارٍ طويلة قطعة كبيرة من لحم الخنزير المدهن، تناولت رغيف خبز عن أحد الرفوف، رفعت عن الأرض ثلاث زجاجات بيرة ووضعت كل شيء في سلة خفيفة من القش ناولتها لكارل. وفي أثناء ذلك شرحت له أنها قادته إلى هنا لأن الأطعمة على البوفية في القاعة تفقد الكثير من طزاجتها بسبب الدخان والإفرازات الكثيرة، على الرغم من سرعة الاستهلاك. وبالنسبة للجالسين هناك يعد كل شيء جيدًا بما يكفي. لم يعلق كارل بشيء على هذا الكلام، لأنه لم يعرف بماذا استحق هذه المعاملة الممتازة. فكر بزميليه، اللذين قد يكونا عارفين جيدين بأمريكا، لكنهما لم يدخلا مخزن مؤونة مثل هذا، وكانا سيكتفيان بالأطعمة الفاسدة من البوفية. لم يسمع المرء هنا أية أصوات من القاعة، لابد وأن الجدران كانت سميكة جدًا للحفاظ على البرودة في هذا القبو. مضت فترة والسلة في يد كارل، لكنه لم يفكر بدفع الحساب، كما أنه لم يتحرك من مكانه. ولكن فقط عندما أرادت المرأة أن تضيف إلى السلة زجاجة كتلك التي على الطاولات في القاعة، شكرها كارل رافضًا ومرتجفًا.

«أما زال طريق المشي أمامكم طويلًا؟» سألت المرأة.

«حتى بترفورد»، أجاب كارل.

«إنها مسافة بعيدة»، علقت المرأة.

«مازال أمامنا مسير يوم»، قال كارل.

«لا أكثر؟».

«لا»، أجاب كارل.

رتبت المرأة بعض الأشياء على الطاولات، دخل نادل وأخذ يفتش بعينيه عن شيء ما، فأرشدته المرأة إلى طشت كبير كانت فيه كومة واسعة من سمك السردين وقد نُثر فوقها بعض البقدونس، فحمل النادل الطشت بيديه عاليًا وخرج به إلى القاعة.

«لأي سبب تريد المبيت في العراء؟» سألته المرأة وأردفت: «لدينا هنا أماكن شاغرة كفاية. نم عندنا في الفندق».

كان هذا العرض مغريًا جدًا لكارل، لاسيما وأنه قد أمضى الليلة الفائتة على نحو سيء، فقال مترددًا وبشيء من العُجب: «حقيبتي هناك».

«اذهب واحضرها، ليس هذا عقبة»، قالت المرأة.

«لكن زميليّ!» قال كارل ولاحظ فورًا أنهما كانا عقبة.

«يجوز لهما طبعًا أن يبيتا هنا»، قالت المرأة وأضافت: «هيا تعال! لا تمانع على هذا النحو».

«زميلاي بالمناسبة شابان طيبان.. لكنهما ليسا نظيفين»، قال كارل.

«ألم تلاحظ الوسخ في القاعة؟» قالت المرأة وكشرت وجهها، ثم قالت: «في الواقع يمكن لأسوأ مَن عليها أن يأتي إلينا. إذن سآمر فورًا بتحضير ثلاثة أسرة، ولكنها ستكون في

العلية، فالفندق مشغول بكامله. أنا أيضاً انتقلت إلى العلية. إنها على أية حال أفضل من النوم في العراء».

«لا أستطيع إحضار زميليّ معي»، قال كارل وتخيل الضجة التي قد يُحدِثها الاثنان في دهاليز هذا الفندق الراقي؛ روبنسن سيوّسخ كل شيء وديلامارش لن يوفر حتى هذه المرأة من تحرشاته.

«لا أعرف ما يجعل الأمر مستحيلًا. ولكن إذا كان هذا هو ما تريده، فدع زميليك في العراء وتعال وحدك إلينا»، قالت المرأة.

«هذا لا يصح، لا يصح. إنهما زميلاي ويجب أن أبقى معهما»، قال كارل.

«أنت عنيد»، قالت المرأة والتفتت عنه، «نحن نريد لك الخير، نود أن نقدم لك المساعدة وأنت تمانع بكل قواك».

أدرك كارل هذا كله، لكنه لم يجد مخرجًا، ولم يجد ما يقول سوى: «لك مني أفضل الشكر للطفك». ثم تذكر أنه لم يدفع الحساب بعد، فسألها عن المبلغ.

«حاسبني عندما تعيد إليّ السلة. يجب أن تكون السلة عندي صباح الغد كحد أقصى»، قالت المرأة.

«حسنًا»، قال كارل.

فتحت بابًا يؤدي مباشرة إلى الخارج، وأضافت وهو يخرج مع انحناءة تحية: «تصبح على خير، لكنك لا تتصرف بطريقة صائبة»، وكان قد ابتعد بضع خطوات، فهتفت وراءه: «إلى اللقاء غدًا!».

لم يكد يصبح في الخارج حتى سمع مجددًا صخب القاعة المختلط الآن بعزف آلات نحاسية. فرح لعدم اضطراره للخروج عن طريق القاعة. كان الفندق الآن مضاءً كله

بطوابقه الخمسة، فأنار بذلك الطريق العام أمامه بكامل عرضه. مازالت هناك سيارات على الطريق، وإن على نحو متقطع، تأتي من البعيد بسرعة أكبر من النهار، متلمسة الأرض أمامها بشعاع أضوائها البيضاء، تخترق منطقة إضاءة الفندق بأضواء باهتة، لتدخل العتمة الممتدة من جديد بإضاءة عالية.

وجد كارل الزميلين في حالة نوم عميق، لكنه غاب عنهما مدة طويلة. كان على وشك أن يوزع الطعام الشهي الذي أحضره على أوراق وجدها في السلة، وأن يوقظهما بعد تحضير كل شيء، عندما رأى برعب أن حقيبته التي أقفلها قبل الذهاب ووضع مفتاحها في جيبه، مفتوحة كليًا ونصف محتوياتها منثور حولها على العشب.

«انهضا!» صاح بهما، «أنتما تنامان بينما يعبث اللصوص هنا».

«هل ينقص شيء؟» سأله ديلامارش، فيما مد روبنسون يده إلى البيرة وهو لم يصح بعد.

«لا أدري»، صاح كارل، «لكن الحقيبة مفتوحة. إنه لتهور منكما أن تناما تاركين الحقيبة دونما حراسة».

ضحك ديلامارش وروبنس، وقال الأول: «لا يجوز لك في المرة القادمة أن تطيل الغياب بهذا الشكل. الفندق يبعد عشر خطوات، وأنت احتجت للذهاب والإياب إلى ثلاث ساعات. كنا جائعين وفكرنا أنك يمكن أن تحتفظ في حقيبتك بما يؤكل، ودغدغنا القفل إلى أن انفتح. وبالمناسبة لم نجد فيها شيئًا، يمكنك الآن أن ترتبها بهدوء».

«هكذا إذن»، قال كارل وهو يحدق في السلة التي بدأت تفرغ بسرعة ويستمع إلى الصوت الغريب الذي يصدره روبنسن وهو يشرب، إذ كانت البيرة تنزل حتى حلقه أولًا ثم تفور صاعدة بصوت كالصفير، لتسيل من ثم باندفاع كبير إلى غوره، وسأل عندما هدأا للحظة كي يستردا أنفاسهما: «هل انتهيتما من الأكل؟».

«لماذا، ألم تأكل في الفندق؟» سأل ديلامارش، ظنًا منه أن كارل يطالب بحصته.

«إذا أردتما الاستمرار في الأكل، فأسرعا»، علق كارل ذاهبًا إلى حقيبته.

«يبدو أنه صاحب نزوات»، قال ديلامارش لروبنسن.

«لست صاحب نزوات»، قال كارل، «ولكن هل يصح في غيابي فتح حقيبتي عنوة ورمي أغراضي منها؟ أعرف أن على المرء بين الزملاء التغاضي عن بعض الأمور، وقد استعددت لهذا، لكن ما فعلتماه يتجاوز الحد. سوف أبيت في الفندق ولن أذهب إلى بترفورد. هيا كلا بسرعة، يجب أن أرجع السلة».

«أترى يا روبنسن، هكذا يكون الكلام»، قال ديلامارش، «هذا هو أسلوب الكلام الراقي، فهو ألماني. لقد حذرتني منه مبكرًا، لكنني كنت مجنونًا طيبًا وأصررت على أخذه معنا. لقد منحناه ثقتنا، حملناه معنا طيلة نهار، فضيعنا على الأقل نصف النهار، والآن –لأن هناك مَن أغراه في الفندق– يتركنا ببساطة. ولكن لأنه ألماني مزيف، فإنه لا يفعلها صراحة، بل يتحجج بموضوع الحقيبة، ولأنه ألماني فظ، لا يمكنه تركنا دون أن يهين شرفنا بأن يسمينا لصوصًا، لأننا مزحنا مع حقيبته مزحة خفيفة».

وكارل الذي رتب أغراضه من دون أن يلتفت، قال: «تابع كلامك بهذه الطريقة وخفف عني الذهاب. أنا أعرف جيدًا ما هي الزمالة. في أوروبا كان عندي أصدقاء أيضًا، وليس بينهم مَن يستطيع أن يتهمني بأني تصرفت حياله على نحو خاطئ أو حقير. التواصل بيننا مقطوع الآن طبعًا، ولكن إذا حدث وعدتُ إلى أوروبا ثانية، فسيتلقاني الجميع بسرور ويعترفون بي فورًا صديقًا لهم. وأنت يا ديلامارش وأنت يا روبنسن، تتهماني بخيانتكما، بعد أن كنتما ودودين جدًا تجاهي، وهو ما لن أخفيه أبدًا، فاهتممتما بأمري ووعدتماني بتأمين مكان عمل كمتدرب في بترفورد؟ إلا أن الأمر مختلف. إنكما لا تملكان شيئًا، وهذا لا يحط من شأنكما في ناظري إطلاقًا، لكنكما تحسداني على ملكيتي الصغيرة وتحاولان لهذا أن تذلاني، وهذا ما لا أستطيع تحمله. والآن بعد أن انتهكتما حقيبتي، لا تعتذران حتى بكلمة، بل تشتماني فوق ذلك وتشتمان شعبي أيضًا –إنكما بهذا تجرداني من أية إمكانية للبقاء

معكما. هذا في واقع الأمر لا يسري عليك يا روبنسن. إن ما أعترض عليه في شخصيتك هو تبعيتك المفرطة لديلامارش».

«ها نحن نرى»، قال ديلامارش وتقدم إلى كارل ودفعه دفعة خفيفة كمن ينبهه، «ها نحن نرى كيف تتكشف على حقيقتك. طوال النهار مشيتَ خلفي، تمسكتَ بسترتي، قلدتَ كل حركة من حركاتي وأنت صامت مثل فأر. لكنك الآن بعد أن أحسست بدعم ما في الفندق، تريد أن تقرأ علينا مواعظك المنمقة. أنت مكّار صغير، وأنا لا أعرف بعد، ما إنْ كنا سنمرر الأمر هكذا، ما إنْ كنا لن نطالبك بتعويض خبرة عمّا تعلمته منا طوال هذا النهار. اسمع يا روبنسن، يقول إننا نحسده على ملكيته الصغيرة. لكن يوم عمل في بترفورد، ناهيك نهائيًا عن كاليفورنيا، كاف لأن نحصل على عشرة أضعاف ما أريتنا إياه وما تخبئه في بطانة جاكيتك. فانتبه دائمًا لما ينطق به لسانك!».

كان كارل قد نهض عن الحقيبة ورأى الآن أن حتى روبنسن النعسان، الذي أنعشته البيرة قليلًا، يتقدم، فقال: «إذا أطلتُ البقاء هنا، فيحتمل أن أشهد مفاجآت أخرى. يبدو أنكما ترغبان في أن توسعاني ضربًا».

«صبرُنا نفد»، قال روبنسن.

«من الأفضل أن تصمت يا روبنسن»، قال كارل دون أن يرفع عينيه عن ديلامارش وأردف «أنت ضمنيًا تعطيني الحق، لكنك ظاهريًا يجب أن تعاضد ديلامارش».

«أتريد ربما أن ترشوه؟» سأله ديلامارش.

«لم يخطر هذا ببالي»، قال كارل وأضاف «أنا فرح بذهابي، ولا أريد أن أتعامل من ثم مع أي منكما. لكني أحب أن أضيف شيئًا، اتهمتماني بأني أملك نقودًا وأني أخبئها عنكما. لنفترض أن هذا صحيح، ألم يكن سلوكي صائبًا تمامًا، تجاه أناس تعرفت عليهم قبل ساعات فقط، وألا تصادقان بسلوككما الآن على صواب تصرفي ذاك؟».

«ابق هادئًا»، قال ديلامارش لروبنسن، رغم أن هذا لم يأتِ بأي حركة، ثم سأل كارل: «ما دمتَ بالغ الصدق إلى هذا الحد، فتابع صدقك، بما أننا نقف معًا مرتاحين، واعترف لماذا تريد الذهاب إلى الفندق».

اضطر كارل إلى التراجع خطوة عن الحقيبة، فإلى هذا الحد اقترب منه ديلامارش. لكن ديلامارش لم يحد عن غرضه، فدفع الحقيبة جانبًا، تقدم خطوة، بحيث وضع قدمه على قميص خارجي أبيض بقي مرميًا على العشب، وكرر سؤاله.

وبمثابة جواب، صعد من الشارع إلى المجموعة رجلٌ يحمل مصباح جيب مضاءً بقوة. كان نادلًا من الفندق. ما كاد يرى كارل حتى قال: «أبحث عنك منذ نصف ساعة تقريبًا، فتشت في جميع المنحدرات المشجرة على جانبي الطريق. فالسيدة كبيرة الطباخين تريد أن تقول لك، إنها بحاجة ماسة إلى السلة التي أعارتك إياها».

«ها هي السلة»، قال كارل بصوت مضطرب من الانفعال.

أما ديلامارش وروبنسن فقد وقفا جانبًا بكل تواضع ظاهري، مثلما يفعلان دائمًا في حُضرَة غرباء أوضاعهم جيدة.

رفع النادل السلة وقال: «ثم تود السيدة كبيرة الطباخين أن تسألك، عما إن كنت ربما قد فكرت وقررت المبيت في الفندق. والسيدان الآخران مُرحبٌ بهما أيضًا إذا أردتَ أن يرافقاك. الأسِرة باتت جاهزة. الليلة اليوم دافئة، ولكن هنا على منحدر الرابية، لن يكون النوم آمنًا أبدًا، كثيرًا ما ظهرت هنا ثعابين».

«بما أن السيدة كبيرة الطباخين على هذه الدرجة من اللطف، فسأقبل دعوتها»، قال كارل وانتظر جواب زميليه. لكن روبنسن وقف جامدًا هناك، وديلامارش وضع يديه في جيبيه وأخذ ينظر إلى النجوم. وبدا أن كلاهما قد اعتمد على أن كارل بداهة سيأخذهما معه.

«في هذه الحالة»، قال النادل «أمرتني بأن أقودك إلى الفندق وأن أحمل حقيبتك».

«إذن أرجو أن تنتظر لحظة»، قال كارل وانحنى ليجمع بعض الأغراض التي مازالت على العشب ليضعها في الحقيبة. لكنه فجأة اعتدل واقفًا. الصورة الفوتوغرافية ناقصة، كانت في الحقيبة فوق كل الأغراض ولم يجدها الآن في أي مكان. كان كل شيء موجودًا، لكن الصورة مفقودة. «إني لا أجد الصورة»، قال لديلامارش بلهجة راجية.

«أي صورة؟» سأل هذا.

«صورة والديّ»، أجاب كارل.

«نحن لم نرَ أية صورة»، قال ديلامارش.

«لم يكن هناك صورة، يا سيد روسمَن»، قال روبنسن أيضًا مؤكدًا.

«لكن هذا مستحيل»، قال كارل، ونظراته الباحثة عن مساعدة جذبت النادل ليقترب، «كانت هنا فوق كل الأغراض، واختفت الآن. ليتكما لم تعبثا بالحقيبة!».

«لا مجال لوقوع أي خطأ»، قال ديلامارش «في الحقيبة لم يكن هناك صورة».

«كانت بالنسبة إليّ أهم من كل شيء موجود في الحقيبة»، قال كارل للنادل، الذي تجول باحثًا بين الأعشاب، «فهي لا تُعوض، لن أحصل على صورة أخرى»، وعندما توقف النادل عن البحث اللامجدي بين الأعشاب، أضاف كارل «كانت الصورة الوحيدة التي بحوزتي لوالديّ».

بناء على ذلك قال النادل بصوت واضح ومن دون مواربة: «لماذا لا نفتش أيضًا في جيوب السيدين».

«نعم»، أجاب كارل فورًا، «يجب أن أجد الصورة، ولكن قبل أن أفتش الجيوب، أقول: مَن يعطيني الصورة طوعًا، أمنحه الحقيبة بكل ما فيها». بعد لحظات من الصمت العام قال كارل للنادل: «من الواضح أن زميليّ يريدان تفتيش الجيوب. ولكن حتى الآن مازلت عند

وعدي بإعطاء الحقيبة كلها للذي توجد الصورة في جيبه. لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك».

وفورًا بدأ النادل بتفتيش ديلامارش، الذي بدا له أكثر عسرًا من روبنسن، الذي تركه لكارل. ونبه كارل إلى ضرورة تفتيش الاثنين في وقت واحد، وإلا لقام أحدهما خلسة بالتخلص من الصورة. ما أن وضع كارل يده في جيب روبنسن حتى عثر على ربطة عنق تخصه، لكنه لم يستعدها، وصاح بالنادل: «مهما وجدتَ في جيوب ديلامارش، اتركه له رجاء، كل شيء. لا أريد شيئًا سوى الصورة، الصورة فقط».

لدى تفتيش جيوب الصدر لمس كارل صدر روبنسن الحار المدهن، وفكر بأنه قد يلحق بزميله ظلمًا كبيرًا. فأسرع ما أمكنه. لكن ذلك كله كان بلا طائل. إذ لم يعثرا على الصورة مع روبنسن ولا مع ديلامارش.

«لا فائدة»، قال النادل.

«ربما مزقا الصورة ونثرا المزق»، قال كارل «اعتقدت أنهما صديقان، لكنهما في الخفاء، لم يبغيا سوى الإضرار بي. ليس روبنسن في واقع الأمر، فما كانت هذه الفكرة لتخطر في باله أصلًا، أن للصورة كل هذه القيمة عندي، وإنما ديلامارش». لم ير كارل أمامه إلا النادل، الذي أنار مصباحه حلقة صغيرة، وكان كل ما عدا ذلك في العتمة، بما في ذلك روبنسن وديلامارش.

لم تعد هناك إمكانية للحديث عن أخذ الاثنين معه إلى الفندق. رفع النادل الحقيبة ووضعها على كتفه، وحمل كارل السلة ومشيا. كان كارل قد وصل إلى الشارع عندما قطع سلسلة أفكاره، توقف، وصاح في العتمة نحو أعلى المنحدر: «اسمعاني جيدًا، إذا كانت الصورة لا تزال مع أحدكما وأراد أن يحضرها لي إلى الفندق، فسيحصل مني على الحقيبة، وأقسم أني لن أبلغ عنه». لم يأته أي جواب صريح، وإنما سمع كلمة مبتورة، بداية نداء من روبنسن، الذي من الواضح أن ديلامارش قد سد فمه فورًا. انتظر كارل فترة طويلة، لعلهما

فوق قد غيرا رأيهما. ونادى مرتين بفارق زمني بينهما: «مازلتُ هنا!» لم يجبه أي صوت، مرة فقط تدحرج حجر على المنحدر، ربما بمحض الصدفة، وربما رمية أخطأت هدفها.

(٥) فندق أوكسيدِنْتال

في الفندق أُخِذ كارل فورًا إلى ما يشبه مكتبًا، حيث كانت كبيرة الطباخين تملي من مفكرة بيدها رسالة على ضاربة آلة كاتبة شابة. والإملاء البالغ الدقة والتحكم المرن بضربات لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة كانا يطغيان أحيانًا على تكّات عقارب ساعة الحائط المسموعة، والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف.

«وهكذا!» قالت كبيرة الطباخين وأغلقت مفكرتها، فقفزت ضاربة الآلة الكاتبة وأنزلت غطاء الآلة الخشبي، دون أن ترفع نظرها عن كارل، في أثناء قيامها بذلك آليًا. كانت لا تزال تبدو مثل طالبة مدرسة، إذ بدت بدلتها مكوية بعناية فائقة ومتموجة مثلًا على الكتفين، وتسريحة شعرها مرفوعة عالياً، وما كان مثيرًا للدهشة نوعًا ما بعد هذه التفاصيل، هو وجهها الجاد. وبعد انحناءاتِ تحيةٍ لكبيرة الطباخين أولًا ثم لكارل غادرت. ولاإراديًا نظر كارل إلى كبيرة الطباخين نظرة تساؤل. «ما أجمل أنك قد جئت أخيرًا»، قالت كبيرة الطباخين، ثم أضافت «وماذا عن زميليك؟».

«لم أحضرهما معي»، قال كارل.

«يبدو أنهما سينطلقان مبكرًا جدًا»، قالت كمن يوضح الأمر لنفسه.

«هل ستفكر أن عليّ الانطلاق معهما؟»، تساءل كارل في نفسه، ثم قال لاستبعاد أي شك في الأمر: «لقد افترقنا على خلاف».

بدا أن كبيرة الطباخين قد استقبلت الخبر بارتياح، فقالت: «أنت حر إذًا؟».

«نعم، أنا حر»، أجاب كارل، وليس ثمة ما بدا له أقل قيمة من حريته.

«اسمع، ألا ترغب في الحصول على عمل هنا في الفندق؟» سألته.

«بكل سرور»، أجاب كارل، «لكن خبراتي أقل من قليلة، فأنا مثلًا لا أعرف الكتابة بالآلة الكاتبة».

«ليس هذا هو الأهم»، قالت كبيرة الطباخين، «ستحصل مؤقتًا على عمل بسيط جدًا، وعليك من ثم أن تسعى إلى الترقي بالاجتهاد والاهتمام. لكني أعتقد على كل حال أن الأفضل لك والأكثر ملاءمة هو أن تثبت قدميك في مكان ما، بدلًا من التسكع في أنحاء العالم. أنت لا تبدو لي مخلوقًا لذلك».

«أعتقد أن الخال سيوافق على هذا كله»، قال كارل في نفسه وأومأ برأسه موافقًا. وتذكر في الوقت نفسه أنه رغم كل هذه الرعاية لم يعرِّفها بنفسه بعد، فقال: «أرجو المعذرة أني لم أعرفك بنفسي حتى الآن، اسمي كارل روسمَن».

«أنت ألماني، أليس كذلك؟».

«نعم، ولم يمض عليّ وقت طويل في أمريكا».

«من أي مدينة؟».

«من براغ في بوهيميا»، أجاب كارل.

«يا لمحاسن الصدف»، صاحت كبيرة الطباخين بألمانية ذات لكنة إنجليزية واضحة وكادت أن ترفع ذراعيها، «نحن أولاد بلد واحد إذًا، اسمي غريتِه ميتْسلبَخ وأنا من ڤيينا. وبراغ أعرفها بشكل ممتاز، لقد اشتغلت نصف سنة في فندق الإوزة الذهبية في ساحة ڤِنْتسِل. تصور ذلك!».

«متى كان ذلك؟» سألها كارل.

«كان ذلك قبل الكثير الكثير من السنوات».

«بناء الإوزة الذهبية القديم هُدِم قبل سنتين»، قال كارل.

«نعم، طبعًا»، قالت كبيرة الطباخين مستغرقة في أفكارها عن الأيام الخوالي. لكنها استعادت حيويتها دفعة واحدة وقالت بصوت عال وهي تمسك بيديّ كارل «بما أنه قد تبين الآن أنك ابن بلدي، فلا يجوز لك أن تترك هذا المكان بأي ثمن. لا يجوز لك أن تفعل بي هذا. هل لديك رغبة في أن تصير عامل مصعد مثلًا؟ قل نعم واعتبر نفسك قد صرت. إذا كنت قد جلت قليلًا، فستعرف أنه ليس من السهل الحصول على مثل هذه الأعمال، لأنها أفضل بداية يمكن أن يفكر بها المرء لنفسه. فستختلط بجميع الضيوف، الجميع يرونك دائمًا، قد يكلفونك بمهمات صغيرة؛ باختصار، سيكون لديك كل يوم إمكانية الوصول إلى شيء أفضل. كل ما عدا ذلك دعني أنا أهتم به».

«أود بكل سرور أن أصير عامل مصعد»، قال كارل بعد برهة قصيرة. وقد كان سيرتكب حماقة كبيرة إنْ تردد في قبول عمل عامل مصعد، معتمدًا على سنواته الدراسية الخمس في الثانوية. بل ثمة سبب هنا في أمريكا لأن يخجل من سنوات الثانوية. وفي كل الأحوال، كارل كان معجبًا دائمًا بعمال المصاعد، إذا كانوا يبدون له مثل زينة الفندق.

«أليست المعارف اللغوية ضرورية؟».

«أنت تتكلم الألمانية وإنجليزيتك جميلة، هذا كاف تمامًا».

«لم أتعلم الإنجليزية إلا هنا في أمريكا وخلال شهرين ونصف»، قال كارل، معتقدًا بأنه لا يجوز كتمان مزيته الوحيدة.

«في هذا ما يزكيك كفاية»، قالت كبيرة الطباخين «عندما أفكر بمعاناتي مع الإنجليزية. لكن هذا مضى عليه ثلاثون سنة. بالأمس فقط كنت أتحدث عن الموضوع، فالبارحة كان عيد ميلادي الخمسين». وحاولت مبتسمة أن تقرأ من وجه كارل الانطباع الذي يخلفه وقار هذه السن.

«أتمنى لك حظًا وافرًا إذًا»، قال كارل.

«الحظ هو ما يحتاجه المرء دومًا»، قالت وهزت يد كارل وقد عاودها شيء من الحزن المرتبط بهذا المثَل القديم من الوطن، والذي خطر في بالها لدى التحدث بالألمانية. ثم صاحت: «لكنني أأخِرك عن النوم وأنت لا شك متعب جدًا، ونهار غدٍ يمكننا مناقشة كل شيء على نحو أفضل بكثير. فرحة الالتقاء بابن البلد تجعل المرء يشرد. تعال، سأرشدك إلى غرفتك».

«لدي رجاء آخر يا سيدتي»، قال كارل وهو ينظر إلى جهاز التلفون المستقر على الطاولة، «يمكن غدًا باكرًا أن يُحضِر لي زميلاي السابقان صورة فوتوغرافية، أنا بأمس الحاجة إليها. فهل تتلطفين وتخبرين البواب هاتفيًا، بأن يرسلهما إليّ أو أن يستدعيني؟».

«بالتأكيد»، قالت كبيرة الطباخين، «ولكن ألن يكفي أن يأخذ لك الصورة منهما؟ وما هي هذه الصورة، إذا جاز السؤال؟».

«إنها صورة والديَّ»، أجاب كارل وأضاف، «لا، إذ يجب عليّ أن أتكلم معهما بنفسي».

لم تعلق كبيرة الطباخين بشيء آخر، خابرت ركن البواب وبلغته الأمر، وذكرت رقم ٥٣٦ باعتباره رقم غرفة كارل. ثم ذهبا عبر باب مقابل لباب الدخول يؤدي إلى دهليز صغير، حيث اتكأ عامل مصعد فتي على درابزين أحد المصاعد وهو مستغرق في النوم، فقالت كبيرة الطباخين بصوت خافت: «بإمكاننا خدمة أنفسنا بأنفسنا»، أشارت لكارل كي يدخل المصعد، ثم أضافت أثناء تحرك المصعد صعودًا: «فترة خدمة تمتد من عشر إلى اثنتي عشرة ساعة طويلة جدًا بالنسبة فتى كهذا. لكنها إحدى خصائص أمريكا. فهذا الفتى الصغير مثلًا، وهو أيضًا حديث العهد، وصل مع والديه إلى هنا قبل نصف سنة، إنه إيطالي. يبدو الآن أنه من المستحيل أن يتحمل العمل، لا لحم في وجهه، ينام في أثناء الخدمة، رغم أنه بطبيعته مستعد جدًا، ولكن عليه أن يخدم هنا أو في أي مكان آخر في أمريكا نصف سنة فقط وأن يتحمل كل شيء ببساطة، وخلال خمس سنوات سيغدو رجلًا قويًا.

يمكنني أن أحدثك ساعات عن مثل هذه الأمثلة، وأنت لا تخطر في بالي طبعًا أثناء ذلك، فأنت شاب قوي؛ أنت في السابعة عشرة، أليس كذلك؟».

«سأبلغ السادسة عشرة في الشهر القادم»، أجابها كارل.

«أي ستتم الخامسة عشرة!» قالت «تشجع إذًا!».

في طابق العليّة قادت كارل إلى غرفة علية بجدار مائل، لكنها بدت عدا ذلك مريحة جدًا، ولاسيما بلمبتي الإنارة. وقالت: «لا ترتعب من الأثاث، فهذه ليست غرفة فندقية، بل غرفة من منزلي المؤلف من ثلاث غرف، أي أنك لا تزعجني أبدًا. سوف أقفل الباب الداخلي بيننا، كي تأخذ راحتك بحرية. غدًا بصفتك موظفًا جديدًا في الفندق ستحصل طبعًا على غرفتك الصغيرة الخاصة. لو عدت مع زميليك، كنتُ سأضع أسرتكم معًا في حجرة نوم الخدم، ولكن بما أنك وحدك، فكرت أن هنا أنسب لك، وإن كنت ستنام على أريكة. والآن تصبح على خير، كي تقوي نفسك للخدمة، التي غدًا لن تكون مجهدة».

«أشكرك جزيل الشكر للطفك».

«انتظر»، قالت، توقفت عند الخروج وأضافت «هناك مَن كان سيوقظك قريبًا»، وذهبت إلى باب الغرفة الداخلي الثاني، طرقته ونادت: «تيرِيزه!».

«نعم، يا سيدتي»، جاء صوت ضاربة الآلة الكاتبة الفتية.

«عندما تأتين لإيقاظي باكرًا، عليك المجيء عبر الدهليز. هنا في الغرفة يوجد ضيف متعب جدًا»، وابتسمت لكارل وهي تضيف: «هل فهمتِ؟».

«نعم، يا سيدتي».

«إذًا تصبحين على خيرا!».

«أتمنى لك نومًا هانئًا».

فقالت كبيرة الطباخين لكارل مفسرة: «أنا أنام في واقع الأمر بشكل سيء جدًا منذ سنوات. الآن يمكنني بموقعي في العمل أن أكون راضية، إذْ ما من سبب في الحقيقة يستدعي القلق. ولكن لابد من أن تكون عقابيل همومي القديمة هي التي تسبب لي هذا الأرق. أكون سعيدة إذا جاءني النوم في الثالثة باكرًا. ولكن بما أنني يجب أن أستيقظ في الخامسة أو الخامسة والنصف كحد أقصى لأبدأ عملي، فلابد من أن أدع أحدهم يوقظني، وبغاية الحذر في الواقع، كيلا أنرفز فوق أرقي. وتيريزه هي التي توقظني. لقد بتَ الآن تعرف كل شيء عني، وأنا مازلت هنا لا أتزحزح. تصبح على خير!» ورغم ثقل وزنها هفّت مغادرة الغرفة.

كان كارل مسرورًا بأنه سينام، فقد أنهكه النهار جدًا. ولم يكن يتمنى لنوم طويل دون إزعاج مكانًا أكثر راحة من هذا. صحيح أن الغرفة لم تكن مهيأة لتكون غرفة نوم، وإنما غرفة معيشة، بل غرفة استقبال لضيوفِ كبيرة الطباخين، ومن أجل خاطره أضيف إليها خصيصًا لهذا اليوم منضدة اغتسال، ومع ذلك لم يشعر كارل بنفسه متطفلًا، وإنما موضع عناية خاصة وحسب. كانت حقيبته موضوعة بشكل صحيح وبأمان مؤكدٍ لم تعرفه منذ وقت طويل. على خزانة واطئة ذات أدراج ومغطاة بمفرش صوفي له شكل شبكة بعيون واسعة، انتصبت صور فوتوغرافية مختلفة داخل إطارات وتحت زجاج؛ أثناء تفقد كارل للغرفة توقف عندها وتأملها. أغلبها كان صورًا قديمة، معظم الظاهرين فيها كن فتيات في ثياب عتيقة الطراز وغير مريحة مع قبعات ملبوسة بارتخاء، صغيرة لكنها عالية، اليد اليمنى مستندة على مظلة، الوجوه ملتفتة صوب الناظر ولكن ليس النظرات. من بين صور الرجال لفتت اهتمام كارل بشكل خاص، صورة جندي شاب وضع قبعته على منضدة صغيرة وقد وقف مشدود القامة بشعره الأسود الأشعث وممتلئًا بضحكة اعتزاز مكبوتة. وأزرار بدلته العسكرية كانت مذهبة لاحقًا على الصورة. جميع هذه الصور التقطت على الأرجح في أوروبا، وكان من المحتمل التأكد من صحة ذلك بقراءة ما كُتب على الوجه الخلفي للصور، لكن كارل لم يرغب أن يمسكها بيديه. ومثلما وضِعت هذه الصور هنا، هكذا أراد أن يضع صورة والديه في غرفته مستقبلًا.

بعد أن نظف كارل جسمه كله جذريًا، وبأكثر ما أمكنه من الهدوء، مراعاة لجارته، وأخذ يتمطى بمتعة استعدادًا للنوم على الأريكة، ظن أنه سمع قرعًا خافتًا على أحد الأبواب. لم يكن التأكد ممكنًا، على أي باب منهم، وكان محتملًا أن يكون مجرد لغط عابر. لم يتكرر القرع مباشرة وكاد كارل يستغرق في النوم، عندما تكرر ثانية. ولم يعد هناك شك الآن في أنه قرع على الباب المؤدي إلى غرفة ضاربة الآلة الكاتبة. فمشى على رؤوس أصابع قدميه إلى الباب وسأل بصوت خافت جدًا، بحيث إن كان هناك من ينام هناك، فلا يمكن لصوته أن يوقظه: «أتريدين شيئًا؟».

فورًا وبنفس الخفوت جاءه الجواب: «ألا تريد أن تفتح الباب؟ المفتاح في القفل من جهتك».

«لحظة، يجب أن ألبس أولًا».

مرت برهة قصيرة ثم جاء الصوت: «لا ضرورة لذلك. افتح الباب واستلقِ في السرير. سأنتظر أنا قليلًا».

«حسنًا»، قال كارل ونفذ ما قالته تمامًا، سوى أنه أشعل النور الكهربائي، وقال بصوت أعلى قليلًا: «أنا في السرير».

من الغرفة المعتمة دخلت ضاربة الآلة الكاتبة القصيرة، في الثياب نفسها كما كانت في المكتب تحت، يبدو أنها طوال الوقت لم تفكر في الخلود إلى النوم. «أرجو منك كل المعذرة»، قالت ووقفت منحنية قليلًا أمام مضجع كارل، «وأرجوك ألا تشكوني، أرجوك. لن أزعجك طويلًا، أعرف أنك متعب جدًا».

«ليس هناك ما يزعج»، قال كارل «ولكن ربما كان الأفضل لو أني لبست». كان مضطرًا للاستلقاء متمددًا كي يتغطى إلى رقبته، إذ لم يكن بحوزته قميص نوم.

«لن أبقى أكثر من لحظات»، قالت وأحضرت كرسيًا، «أيمكنني الجلوس بجانب الأريكة؟».

أومأ كارل موافقًا. فجلست لصق الأريكة تقريبًا، ما اضطر كارل للتراجع حتى الجدار، كي يتمكن من رفع نظره إليها. كان وجهها مستديرًا متساوي القسمات، سوى أن جبهتها كانت عالية بشكل غير مألوف، ولكن ربما بدت كذلك بسبب التسريحة، التي لم تكن مناسبة لها. كانت بدلتها نظيفة جدًا ومعتنى بها. وفي يدها اليسرى كانت تضم منديلًا.

«هل ستمكث طويلًا هنا؟» سألته.

«لم يتأكد الأمر تمامًا بعد. لكني أعتقد أني سأبقى». أجابها كارل.

«سيكون الأمر جيدًا جدًا في الواقع»، قالت ومسحت وجهها بمنديلها، «فأنا أشعر هنا بوحدة شديدة».

«أستغرب ذلك»، علق كارل «فالسيدة كبيرة الطباخين لطيفة جدًا تجاهك. إنها لا تعاملك أبدًا كموظفة. كدت أظن أنكما أقارب».

«لا، لسنا أقارب، أنا اسمي تيريزه بِرْشتولد، من منطقة پومِرن على بحر الشمال في ألمانيا».

فقدم لها كارل نفسه أيضًا، ونتيجة لذلك نظرت لأول مرة إلى وجهه مباشرة، وكأن ذكر اسمه قد جعله غريبًا عنها أكثر قليلًا مما كان عليه. صمتا برهة. ثم قالت: «لا يجوز أن تظن أني ناكرة للجميل. لولا السيدة كبيرة الطباخين لكان وضعي أسوأ بكثير. كنت سابقًا عاملة مطبخ هنا في الفندق. وثمة خطر كبير لأن أسرَّح، لأني لم أتمكن من إنجاز الشغل الصعب. المتطلبات من العاملين هنا كبيرة. قبل شهر غشي على إحدى عاملات المطبخ من شدة الإرهاق وبقيت أسبوعين في المستشفى. أنا لست قوية البنية، سبق أن عانيت كثيرًا، فتأخر نموي قليلًا؛ لن تحزر أبدًا أني قد بلغت الثامنة عشرة. لكنني بتُ الآن أقوى».

«لابد وأن تكون الخدمة هنا حقًا مجهدة. تحتْ رأيت الآن صبي مصعد واقفًا وهو نائم»، قال كارل.

«علمًا بأن وضع عمال المصاعد هو الأفضل»، قالت تيريزه، «يتقاضون إكراميات كثيرة، وليس عليهم أبدًا أن يكدحوا مثل عاملات المطبخ. لكن الحظ حالفني حقًا مرة، فالسيدة كبيرة الطباخين احتاجت ذات مرة إلى عاملة لتطوي لها الفوط من أجل مأدبة، فأرسلت في طلب إحدانا نحن عاملات المطبخ، وكنا نحو خمسين فتاة هناك، كنتُ بمحض الصدفة بمتناول اليد، وأرضيتها جدًا، فلطالما كنت خبيرة في طي فوط المائدة. ومنذئذ احتفظتْ بي بقربها ودربتني تدريجيًا حتى صرت سكرتيرتها، وقد تعلمت الكثير أثناء ذلك».

«وهل هناك الكثير من الكتابة؟» سألها كارل.

«هناك الكثير جدًا، لا يمكنك على الأرجح تصور ذلك. لقد رأيت بنفسك أني اشتغلت اليوم حتى الحادية عشرة والنصف، واليوم ليس استثناء. لكن ليس كل شغلي كتابة، بل عليّ أن أشتري حاجيات كثيرة من المدينة».

«وما هو اسم المدينة؟» سألها كارل.

«ألا تعرفه؟ اسمها رمسيس».

«هل هي مدينة كبيرة؟» سألها.

«كبيرة جدًا. لا أحب الذهاب إليها. ولكن ألا تريد حقًا أن تنام؟».

«لا، لا»، أجاب كارل، «مازلت لا أعرف سبب قدومك إليّ».

«لأني لا أجد مَن أتكلم معه. أنا لست شكّاءة، ولكن عندما لا يكون لديك جليس فعلًا، فستكون سعيدًا عندما تجد من يستمع إليك. لقد رأيتك تحتْ في القاعة، دخلتُها بحثًا عن السيدة كبيرة الطباخين فوجدتها تقودك إلى حجرة المؤونة».

«يا لها من قاعة رهيبة»، قال كارل.

«لم أعد ألاحظ ذلك نهائيًا»، أجابت «لكن ما أردتُ أن أقوله هو أن السيدة كبيرة الطباخين كانت على درجة من اللطف معي، كما لا يمكن سوى لأمي أن تكون معي. ولكن الفارق في المرتبة بيننا كبير جدًا، بحيث لا يمكنني أن أحادثها بحرية. بين عاملات المطبخ كان عندي سابقًا صديقات جيدات، لكنهن لم يعدن هنا منذ مدة طويلة، والعاملات الجديدات أكاد لا أعرفهن. وفي نهاية المطاف يبدو لي أحيانًا، أن عملي الحالي أشد إرهاقًا من السابق، وأني لا أقوم به كما يجب، وأن السيدة كبيرة الطباخين لا تبقيني في وضعي إلا شفقة. ففي كل الأحوال كان يجب على الإنسان أن يحصّل تعليمًا مدرسيًا أفضل ليكون سكرتيرة. إنها لخطيئة أن يقول المرء هذا، لكني كثيرًا ما أخشى أن أجن. يا إلهي»، قالت فجأة بسرعة كبيرة ومدت يدها عرَضًا إلى كتف كارل، بما أن كلتا يديه كانتا تحت الغطاء، «لا يجوز أن تخبر السيدة كبيرة الطباخين بأي كلمة من هذا، وإلا سأضيع حقًا. فإذا كنتُ سأحملها همومًا فوق ما أفعل نتيجة ظروف شغلي، فهذا سيتجاوز طاقتها على الاحتمال».

«من البداهة أني لن أخبرها بشيء»، قال كارل.

«هذا جيد»، قالت «وابق هنا. سأكون سعيدة إذا بقيت، وسيكون بوسعنا، إذا كنت موافقًا، أن نتآزر. منذ أن رأيتك أول مرة، وثقت بك. ورغم ذلك –انظر ما أسوأني– انتابني خوف أن السيدة كبيرة الطباخين ستتخذك سكرتيرًا بدلًا مني وسوف تسرحني. ولكن بعد أن جلست طويلًا وحدي، أثناء وجودكما تحت في المكتب، رتبت المسألة في ذهني، وتوصلت إلى أنه سيكون من الأفضل إذا استلمت أنت مهماتي، لأنك بالتأكيد ستفهمها أفضل مني. وإذا لم تكن راغبًا في تأمين الطلبيات من المدينة، فسأستمر أنا في القيام بالأمر. وما عدا ذلك سأكون حتمًا مفيدة أكثر في المطبخ، ولاسيما أني قد أصبحت أقوى».

«لقد تم ترتيب الأمر»، قال كارل «أنا سأصبح عامل مصعد وأنت ستبقين سكرتيرة. ولكن إذا نوهتِ بمخططاتك ولو بأبسط شكل للسيدة كبيرة الطباخين، فسأخبرها أنا بما تبقى، بما أسررت به لي اليوم، علمًا بأن الأمر سيؤسفني جدًا».

أدت هذه اللهجة إلى انفعال تيريزه بشدة، بحيث ركعت أمام الأريكة وضغطت وجهها على المفرش.

«لن أخبرها بأي شيء. ولكن عليكِ أنت أيضًا ألا تبوحي بشيء».

لم يعد بمقدوره الآن أن يبقى مختبئًا تحت الغطاء، فسحب ساعده وربت على ذراعها قليلًا، لم يجد كلامًا مناسبًا ليقوله لها، وفكر فقط بأن الحياة هنا مريرة. وأخيرًا هدّأت تيريزة من روعها، على الأقل إلى حد أنها خجلت من بكائها، نظرت إلى كارل شاكرة، أقنعته بأن يطيل النوم صباحًا، ووعدته بأنها إنْ وجدت وقتًا، فستصعد إليه كي توقظه.

«فأنتِ بارعة في الإيقاظ»، قال كارل.

«نعم، إني أحسِن بعض الأمور»، قالت، ربتت على الغطاء بلطف مودعة وأسرعت إلى غرفتها.

في اليوم التالي أصر كارل على البدء بخدمته فورًا، رغم أن السيدة كبيرة الطباخين أرادت منحه هذا النهار، كي يتعرف على رمسيس. لكن كارل أوضح بصراحة أن الفرصة لذلك ستحين في وقت قادم ما، أما الآن فالأهم بالنسبة إليه هو البدء بالعمل، إذ سبق له في أوروبا أن انقطع دونما جدوى، عن عمل ذي هدف مغاير، ويبدأ الآن كعامل مصعد في سن، يكون فيه الفتيان الأنشط على الأقل، قد اقتربوا في تتابع طبيعي من استلام أعمال أعلى مرتبة. أن يبدأ كعامل مصعد أمر صائب تمامًا، ولكن من الصائب أيضًا أن عليه تسريع الخطى. في الظروف الحالية لن يستمتع أبدًا بمشاهدة المدينة، ولم يحزم أمره حتى لمرافقة تيريزه في مشوار قصير. كان يفكر طوال الوقت في أنه إنْ لم يثابر ويجتهد، فقد يصير إلى ما صار إليه ديلامارش وروبنسن.

عند خياط الفندق جرب كارل ارتداء بزة صبي المصعد ذات المنظر الخارجي الفخم بأزرارها الذهبية وفتائلها الذهبية، لكنه اقشعر قليلًا عندما لامست جسمه، إذ كانت تحت

الإبطين خاصة باردة ويابسة ومبللة بشكل غير قابل للتجفيف من عرق فتيان المصعد الذين ارتدوها قبله. وكان لابد من توسيع البزة لكارل خصيصًا ولاسيما أعلى الصدر. فمن البزز العشرة الموجودة لم تلائم أي منها مقاسه ولو تقريبيًا. رغم شغل الخياطة الضروري هنا ورغم أن المعلم بدا محرَجًا جدًا، لطيران البزة مرتين من بين يديه إلى الورشة لإجراء التصحيحات، لم يستغرق الشغل كله أكثر من خمس دقائق. غادر كارل بعدها ورشة الخياطة كفتى مصعد ببنطال ضيق وجاكيت صغير يكاد يخنق أنفاسه، رغم تأكيد المعلم غير ذلك، ما يغوي طوال الوقت بإجراء تمارين تنفس، لمجرد التأكد من أن التنفس لا يزال ممكنًا.

بعد ذلك راجع كارل كبير الندُل، الذي سيأتمر بأمره، وكان رجلًا ممشوق القامة، وسيمًا بأنف كبير، بدا له في الأربعينات من عمره. لم يكن لديه وقت للدخول في أي حوار، مهما كان مختزلًا، بل طلب بالجرَس فحسب حضور عامل مصعد، وكان بمحض الصدفة ذاك الصبي الذي رآه كارل بالأمس. خاطبه كبير الندل باسم عماده فقط، وكان جياكومو، حسبما فهمه كارل لاحقًا، لأنه لم يستوعبه باللفظ الإنجليزي. وتم تكليف هذا الصبي الآن بأن يشرح لكارل ما هو ضروري للقيام بخدمة المصعد، لكنه كان على درجة من الخجل والعجلة، بحيث لم يعرف منه كارل حتى المعلومات الأساسية، القليلة أصلًا. ومن المؤكد أن جياكومو كان منزعجًا أيضًا، لأنه بسبب كارل سيضطر إلى التخلي عن خدمة المصعد وإلى الالتحاق كمساعدٍ بخدمة عاملات الغرف، الأمر الذي بدا له مشينًا، بعد تجارب معينة مر بها، لكنه تكتم عليها.

كان أكثر ما خيَّب أمل كارل، هو أنه لا علاقة لعامل المصعد بآلاته، سوى أن يضغط ضغطة خفيفة على الزر تؤدي إلى تحريكه، في حين أن تصليحات محركه منوطة حصريًا بميكانيكي الفندق، وإلى حد أن جياكومو مثلًا، رغم نصف سنة من خدمة المصعد، لم يرَ بأم عينيه المحرك الموجود في القبو ولا الآلات في جسم المصعد نفسه، علمًا بأن الأمر حسب تعبيره كان سيفرحه جدًا. بصورة عامة كانت هذه الخدمة رتيبة جدًا، وبسبب مدة العمل التي تمتد اثنتي عشرة ساعة بالتناوب بين الليل والنهار، فإنها مرهقة جدًا، بحيث أنها

حسب أقوال جياكومو لا تُحتمل، إنْ لم ينم المرء بضع دقائق وقوفًا بين الحين والآخر. لم يعلق كارل على ذلك بأي كلمة، لكنه فهم جيدًا أن حيلة جياكومو هذه قد كلفته مكان عمله.

رحب كارل جدًا بأن المصعد الذي سيقوم على خدمته، مخصص للطوابق العليا فقط، بمعنى أنه لن يضطر إلى التعامل مع النزلاء الأثرياء كثيري المطالب والذين يصعب إرضاؤهم. غير أن المرء على هذا المصعد لا يتعلم الكثير كما هو الحال على المصاعد الأخرى، لكن هذا جيد للبداية.

بعد مرور أسبوع واحد فقط أدرك كارل أنه قادر كليًا على القيام بالخدمة. كان نحاس مصعده هو الأشد لمعانًا، بحيث يصعب على أي من المصاعد الثلاثين الأخرى مقارنة نفسه بمصعده، ولربما كان لمعانه سيشتد، لو كان العامل الثاني على المصعد نفسه يقارب كارل نشاطًا، ولم يشعر بأن نشاط كارل يدعم إهماله. كان فتى أمريكي المولد اسمه رينِل، مغترًا بنفسه، له عينان سوداوان وخدان مجوفان قليلًا وأجردان. لديه بدلة خاصة أنيقة يلبسها في أماسي عطلته، يتعطر قليلًا ويسرع إلى المدينة؛ وكان بين الحين والآخر يرجو كارل أن ينوب عنه لاضطراره إلى إنجاز بعض الشؤون العائلية، ولم يبال أبدًا بأن مظهره ينافي حججه. ومع ذلك كان كارل يوده، ويسره عندما يقف رينل أمامه عند المصعد تحت، قبل ذهابه في مثل هذه الأماسي، فيعتذر قليلًا وهو يشد القفازين بين أصابع يديه ثم يغادر عبر الدهليز. إضافة إلى ذلك لم يبغ كارل من هذه المناوبات عنه، سوى أن يقدم معروفًا لزميل أكبر سناً، وقد بدا له الأمر في البداية بديهيًا، على ألا يتحول إلى ترتيب مستمر. فالسفر الأبدي مع المصعد صعودًا ونزولًا كان في حد ذاته متعبًا، ولاسيما أنه يصبح بلا انقطاع في ساعات المساء. وخلال وقت قصير تعلم كارل أيضًا الانحناءات القصيرة العميقة، المطلوبة من عامل المصعد، كما أتقن الإمساك بقطع نقود الإكراميات وهي طائرة، فيخبئها فورًا في جيب الصدر، بحيث لا يتمكن أحد، من تعبير وجهه، معرفة ما إن كانت الإكرامية مجزية أم قليلة. كان يفتح الباب للسيدات مع انحناءة خفيفة دمثة، ليدخل إلى المصعد وراءهن ببطء وخفة معًا، مراعيًا انشغالهن بثيابهن وقبعاتهن وزينتهن، ما يؤدي إلى تأخرهن أكثر من الرجال عادة. وكان يقف أثناء السفرة شبه ملتصق بالباب وظهره لضيوفه،

لأن هذه الوضعية هي الأقل لفتًا للنظر، ممسكًا بيده قبضة باب المصعد، كي يفتحه جانبيًا في لحظة الوصول فجأة ولكن بلطف. ونادرًا ما كان أحد الضيوف أثناء السفرة يربت على كتفه، كي يستفسر منه عن معلومة بسيطة، فكان في لحظتها يلتفت فورًا كمن توقع ذلك ويجيب بصوت عال. ورغم كثرة المصاعد غالبًا ما كان يحدث ازدحام كبير، لاسيما عقب انتهاء العروض المسرحية والموسيقية أو بعد وصول قطارات سريعة معينة، بحيث كان يضطر، عقب خروج الضيوف فوق، إلى الهبوط مباشرة لأخذ المنتظرين تحت. وكانت لديه إمكانية رفع سرعة المصعد أكثر من المعتاد، عن طريق شد حبل معدني ممدد عبر صندوق المصعد. غير أن أنظمة استخدام المصعد كانت تحظر ذلك باعتباره يشكل خطرًا. وكارل لم يلجأ إليها مطلقًا في حال وجود ضيوف في المصعد، أما بعد خروجهم فوق وبوجود منتظرين تحت، فإنه لم يكن يراعي التعليمات، فيشد الحبل عدة مرات بانتظام وعزم مثل بحّار. كان يعرف على كل حال أن عمال المصاعد الآخرين يفعلونها أيضًا، وهو لم يرغب بأن يخسر ركابه لصالح العمال الآخرين. ثمة نزلاء من الذين يقيمون في الفندق مدة طويلة، وهو أمر مألوف هنا، كانوا يعبِّرون له بابتسامة بين الحين والآخر، عن اعترافهم به كعامل مصعدهم، وكان كارل يتقبل هذه المجاملة بوجه جاد، إنما بسرور. أحيانًا عندما تكون الحركة ضعيفة نوعًا ما، كان بإمكانه تنفيذ بعض المهمات الصغيرة، مثلًا، أن يُحضِر غرضًا صغيرًا لنزيل نسيه في غرفته ولا يرغب في الصعود إليها ثانية. في مثل تلك اللحظات كان كارل يطير بمصعده، الذي ألفه جيدًا لوحده إلى الأعلى، يدخل الغرفة الغريبة، حيث يجد غالبًا أشياء تثير الغرابة ولم يسبق له أن رأى مثلها، متناثرة في أنحاء الغرفة أو معلقة على المشجب، يشعر بالرائحة المميزة لقطعة صابون غريبة أو لعطر أو لسائل غرغرة، ويسرع عائدًا دون أن يسمح لشيء بأن يؤخره، حاملًا الغرض الذي عثر عليه، رغم غموض أوصافه. وغالبًا ما كان يندم لعدم قدرته على تنفيذ مهمات أكبر، وذلك بسبب وجود خدم ومراسلين خاصين لذلك، يستخدمون للقيام بمهماتهم الدراجات الهوائية، بل حتى الدراجات النارية. أما هو فلم يقم إلا بالمشاوير القصيرة بين الغرف وقاعات الطعام أو قاعات لعب القمار، إن سمحت له الفرصة بذلك.

عندما كان يعود في السادسة مساء من عمله الذي امتد اثنتا عشرة ساعة طوال ثلاثة أيام، وفي السادسة صباحًا طوال الأيام الثلاثة الأخرى، يكون على درجة من التعب، بحيث أنه دون أن يهتم بأمر أي أحد، يلجأ فورًا إلى سريره، الموجود في صالة النوم المشتركة الخاصة بعاملي المصاعد. كانت كبيرة الطباخين، التي ربما لم يكن نفوذها على تلك الدرجة من الكبر، كما ظن كارل في المساء الأول، قد بذلت جهدها لتوفر له غرفة صغيرة خاصة به، وكادت تنجح في مسعاها، لكنه أدرك المصاعب التي واجهتها بشأن هذه المسألة، والمكالمات الهاتفية المتعددة التي أجرتها مع رئيسه كبير الندل ذاك المشغول باستمرار، فتخلى عن موضوع الغرفة وأقنع كبيرة الطباخين بجدية قراره، مع الإشارة إلى أنه لا يريد أن يحسده عاملو المصاعد الآخرون على ميزة لم يكسبها في الحقيقة بنفسه.

لم تكن صالة النوم هذه غرفة نوم مريحة إطلاقًا. فبما أن وقت فراغ الاثنتي عشرة ساعة لكل فرد فيها كان موزعًا بشكل مختلف على الأكل والنوم والتسلية والكسب الإضافي، كانت صالة النوم تضج دائمًا بحركة كبيرة. بعضهم كان ينام وقد جر اللحاف لما فوق أذنيه كيلا يسمع شيئًا؛ وإذا أوقِظ أحدُهم رغم ذلك، كان يصرخ بكل غضب مغطيًا على صياح الآخرين، بحيث أن البقية من ذوي النوم العميق لا يستطيعون التحمل. وكان لكل فتى تقريبًا غليونه الخاص ليمارس به نوعًا من الترف، وكارل أيضًا اشترى لنفسه واحدًا سرعان ما استمرأ تدخينه. إلا أن التدخين أثناء العمل كان محظورًا، فكانت نتيجة ذلك، أن كل فتى مستيقظ في صالة النوم كان يدخن. ما أدى إلى تغطية كل سرير بسحابة دخان خاصة وإغراق الجميع في سديم عام. وكان من المستحيل تنفيذ الاقتراح بأن يُشعَل النور ليلًا في إحدى زوايا الصالة فقط، على الرغم من موافقة الغالبية على الأمر من حيث المبدأ. لو سرى مفعول هذا الاقتراح، لتمكن الذين يريدون النوم أن يناموا براحة في ظلام نصف الصالة – كانت الصالة واسعة تضم أربعين سريرًا-، في حين يتمكن الآخرون في النصف المضاء من لعب النرد أو الورق وممارسة كل ما يحتاج إلى نور. وإن أراد النومَ أحد الذين أسرتهم في القسم المضاء، فبوسعه الاستلقاء على أحد الأسرة الخالية في القسم المظلم، فدائمًا كانت تتوفر أسرة خالية، وما كان أحد ليعترض على استخدام سريره بصورة عابرة من قبل أحد

الزملاء. إلا أن هذا التقسيم للصالة لم يُنفَّذ في أية ليلة. فدائمًا كان يوجد اثنان مثلًا، ممن استغلوا الظلام لأخذ حصتهم من النوم، وجاءتهما الرغبة الآن بلعب الورق على لوح خشبي وضعاه بين سريريهما، وأشعلا لذلك طبعًا اللمبة الأقرب إليهما، فأزعج ضوؤها الواخز النائمين المستلقين باتجاهها فانتفضوا. ثم أخذوا يتقلبون قليلًا، إلى أن لم يجدوا أخيرًا ما هو أفضل من أن يبدأوا بلعب الورق أيضًا مع الجار، الذي استيقظ منتفضًا أيضًا، مع إشعال لمبة جديدة وطبعًا مع العودة إلى تدخين الغلايين. ولكن كان هناك بالتأكيد أيضًا بعض من يريد النوم بأي ثمن –كارل كان غالبًا من هؤلاء-، وبدلًا من أن يضعوا رؤوسهم على الوسائد، كانوا يغطّون رؤوسهم بها أو يلفونها بها؛ ولكن كيف للمرء أن يبقى نائمًا، إذا نهض جاره في عز الليل، كي ينزل ليتسلى قليلًا في المدينة قبل أن يبدأ مناوبته الجديدة، فيبدأ بالاغتسال على المغسلة المركبة عند رأس السرير ويطرطش الماء من حوله، ولا يلبس جزمته دكًا في قدميه بل خبطًا على الأرض –وكان لجميعهم جزمات ضيقة جدًا، رغم شكل قالب الجزمة الأمريكي العريض-، وفي نهاية المطاف وبما أنه يفتقد شيئًا صغيرًا من زينة المشوار، يأخذ برفع وسادة النائم، الذي أوقِظ وانتهى الأمر، ولا ينتظر تحت الوسادة إلا اللحظة المناسبة للانقضاض عليه؟ غير أنهم جميعهم كانوا رياضيين وفتيانًا أقوياء غالبًا، من الذين لا يُفوِّتون على أنفسهم فرصة تمرين رياضي. وكان بوسع المرء أن يكون واثقًا، إذا أوقِظ في عز الليل من الضجيج فانتفض، من أن يجد على الأرض بجانب سريره متصارعين وأن يرى في الإنارة الباهرة على جميع الأسرة من حوله خبراء مصارعة منتصبين بثيابهم الداخلية. ذات مرة وبمناسبة حفلة مصارعة ليلية من هذا القبيل، سقط أحد المتصارعين فوق كارل النائم، وكان أول ما رآه كارل عندما فتح عينيه، هو الدم الذي كان يسيل من أنف المتصارع ولطخ بياضات السرير كلها، قبل أن يستطيع المرء تدارك الأمر. كثيرًا ما كان كارل يقضي الاثنتي عشرة ساعة في محاولات متتالية لكسب بضع ساعات من النوم، رغم الغواية الشديدة للمشاركة في تسليات الآخرين؛ ولكن كان يتراءى له دائمًا أن الآخرين جميعهم قد سبقوه شوطًا في حيواتهم، وأن عليه تداركه عن طريق العمل الدؤوب وقليل من التنازلات. ورغم أنه كان يولي النوم أهمية كبيرة، فإنه لم يشكُ لكبيرة الطباخين ولا لتيريزه من ظروف صالة النوم، أولًا لأن الفتيان كافة إلى هذا الحد أو

ذاك كانوا يعانون جدًا من هذه الظروف، دون أن يتشكوا بصورة جدية، وثانيًا لأن الشقاء في صالة النوم كان جزءًا ضروريًا من مهمته كعامل مصعد، التي استلمها شاكرًا من يدي كبيرة الطباخين. مرة في كل أسبوع عند تبديل المناوبات كان لديه عطلة لأربع وعشرين ساعة، كان يستغلها جزئيًا لزيارة كبيرة الطباخين مرة أو اثنتين، ولتبادل أحاديث عابرة مع تيريزه أثناء استراحاتها، التي أقلم نفسه معها، في إحدى الزوايا في دهليز ما، ونادرًا في غرفتها. وأحيانًا كان يرافقها إلى المدينة في مشوار تأمين الحاجيات، الذي يجب أن يتم بأقصى سرعة. فكانا يهرولان تقريبًا وهو يحمل حقيبتها، إلى أقرب محطة ميترو، فتمضي السفرة بلمح البصر، وكأن القطار يندفع دون أية مقاومة، ليترجلا منه ويصعدا الدرجات إلى الطريق بدلًا من انتظار المصعد، الذي بدا لهما بطيئًا جدًا. كانت الساحات الكبيرة، التي تتوزع منها الشوارع في شكل نجمة، تظهر مزدحمة بتدفق مستقيم من كافة الاتجاهات، لكن كارل وتيريزه كانا يهرعان متلاصقين إلى مختلف المكاتب ومؤسسات الغسيل والمستودعات والمتاجر، التي يصعب منها تأمين الطلبيات الخاصة أو تقديم الشكاوى لها عن طريق الاتصال هاتفيًا. وسرعان ما لاحظت تيريزه أن مساعدة كارل لها لا يُستهان بها، بل أنها أدت بالأحرى إلى تسريع الإنجاز على نحو كبير. فلم تحتج بمرافقته في أي مرة إلى الانتظار كالعادة حتى يستمع البائعون المنشغلون جدًا إلى طلبها. إذ كان كارل يتقدم إلى النُضد وينقر عليه بعظم إصبعه إلى أن يُجاب، أو يصيح من فوق جدران بشرية بإنجليزيته الحادة الممكن تمييزها بين مئة صوت، وكان يواجه الناس بلا تردد حتى وإن انسحبوا بترفع إلى أعماق صالات متاجرهم. لم يكن يقوم بذلك عن غرور، بل كان يحترم أي بادرة مقاومة، وإنما كان يشعر بنفسه مدعومًا في موقفه الذي يمنحه حقوقًا، ففندق أوكسيدنتال كان زبونًا لا يجوز للتاجر أن يستخف به، وأخيرًا كانت تيريزه، رغم خبرتها في السوق بحاجة إلى مساعدة.

«عليك دائمًا أن ترافقني»، كانت تقول له أحيانًا، ضاحكة بسعادة عندما يعودان من مهمة نفذاها بنجاح ممتاز.

خلال مدة الشهر والنصف التي أمضاها كارل في رمسيس، زار تيريزه ثلاث مرات فقط زيارات زادت عن الساعتين في غرفتها الصغيرة، التي كانت أصغر طبعًا من أية غرفة من غرف كبيرة الطباخين. وقطع الأثاث القليلة فيها كانت مجتمعة بمعنى ما حول النافذة فقط، لكن كارل كان يدرك بعد خبراته في صالة النوم، قيمة غرفة خاصة هادئة نسبيًا، وإنْ كان لم يقلها صراحة، إلا أن تيريزه لاحظت مدى إعجابه بغرفتها. لم يكن لديها أسرار لتخفيها عنه، ولم يكن هذا حتى ممكنًا، بعد زيارتها له في الليلة الأولى. كانت ابنة غير شرعية، يعمل أبوها رئيس ورشة بناء، طلب من الأم والطفلة أن يلحقا به من پومرن إلى أمريكا؛ ولكن كما لو كان بذلك قد أدى واجبه نحوهما، أو كأنه كان يتوقع أناسًا آخرين في مرفأ الوصول، غير هذه المرأة التي أضناها الشغل والابنة الضعيفة. وبعد وصولهما بقليل ومن دون تقديم أي تفسير، هاجر إلى كندا، ولم تتلق اللتان تركهما وراءه أي رسالة أو خبر منه، ولم يكن هذا مستغربًا، فقد ضاعتا بلا أثر في مساكن اللجوء الجماعية في شرق نيويورك.

ذات مرة حكت له تيريزه عن موت أمها، وكان يقف إلى جانبها عند النافذة ينظر إلى الطريق. حكت عن ذاك المساء الشتوي، عندما كانت هي وأمها وكل منهما تحمل بقجتها – كانت هي في نحو الخامسة من عمرها-، تسرعان عبر الشوارع بحثًا عن أماكن للنوم. في البداية كانت الأم تقودها بيدها، ولم يكن التقدم سهلًا بسبب العاصفة الثلجية، إلى أن ارتخت يد الأم وتركت تيريزة دون أن تلتفت إلى الوراء، وكان على تيريزه أن تبذل جهدًا لتتمسك بنفسها بثوب أمها. كانت تيريزه تتعثر أحيانًا وتسقط أرضًا، لكن الأم كانت كمن أصابها مس من جنون ولم تتوقف. والعواصف الثلجية في شوارع نيويورك المستقيمة الطويلة تجربة مختلفة! لم يكن كارل قد عاش أي شتاء بعد في نيويورك. فإذا سار الإنسان بعكس اتجاه الريح، التي تتحرك في دوامة، فإنه لن يتمكن من فتح عينيه ولا لحظة، لأن الريح لا تتوقف عن جلد وجهه بالثلج، فيسير الإنسان، لكنه لا يتقدم خطوة، حالة تدعو لليأس. أما الطفل فإنه يتمتع هنا بميزة مقارنة بالكبار، لأنه يمشي تحت الريح ويشعر بشيء من الفرح بكل ما حوله. وهكذا فإن تيريزة حينذاك لم تستطع فهم موقف أمها،

وكانت على قناعة تامة –كانت لا تزال طفلة صغيرة-، بأنها لو تصرفت في ذلك المساء بشكل أذكى حيال أمها، لما كابدت مثل تلك الميتة البائسة. كان قد مضى على الأم يومان بلا عمل ولم يعد معها أي فلس، قضتا النهار كله في الطرقات دون أية لقمة، ولم يكن في بقجتيهما، اللتين تحملانهما معهما سوى خرق ثياب لا نفع منها، ربما لم تجرؤا على التخلص منها نتيجة إيمان الأم بالخرافات. كانت الأم موعودة باحتمال توفر عمل لها غدًا في ورشة بناء. إلا أنها خشيت ألا تتمكن من استغلال هذه الفرصة السانحة، حسبما حاولت أن تشرح لابنتها طوال النهار، لأنها تشعر بنفسها مرهقة جدًا، وقد بصقت كثيرًا من الدم مع السعال صباح اليوم في الزقاق، ما أرعب المارة، وكانت رغبتها الوحيدة هي الوصول إلى مكان دافئ لترتاح. وفي ذلك المساء تحديدًا، كان من المستحيل العثور على أي مكان. وهناك، حيث لم يطردهما بواب العمارة من المدخل، حيث كان يمكن للمرء الارتياح قليلًا من عناء الطقس، أسرعتا عبر الدهاليز القارسة، وصعدتا إلى الطوابق العليا، دارتا حول الأرصفة الضيقة في الباحات الداخلية للأبنية، قرعتا أبوابًا على نحو اعتباطي، لم تجرؤا بادئ الأمر على مخاطبة أحد، ثم ترجتا كل من قابلتاه، ومرة أو اثنتين أقعت الأم لاهثة على درجةٍ من سلم هادئ، شدت إليها تيريزة التي مانعت وقبلتها على شفتيها وهي تضمها بشدة مؤلمة. وعندما يعرف المرء لاحقًا أن تلك كانت قبلاتها الأخيرة، فإنه لا يستوعب، مهما كان صغيرًا في حينها، كم كان أعمى فلم يدرك. في معظم الغرف التي مرتا بها كانت الأبواب مفتوحة، بغية طرد هواء فاسد خانق، ومن السديم الدخاني الناتج ربما عن احتراق شيء، فملأ الغرف، كانت تتقدم منهما هيئة شخص ما لتقف في الباب فتسده، وتثبت إما عن طريق حضورها الصامت أو بكلمات مقتضبة استحالة إقامتهما في هذه الغرفة. بدا لتيريزه وهي تستعيد الحالة في مخيلتها الآن، أن أمها خلال الساعات الأولى فقط كانت جادة في البحث عن مكان، لأنها بعد مرور منتصف الليل لم تعد تخاطب أحدًا، رغم عدم توقفها عن المشي السريع حتى انبلاج الفجر، ورغم أنه في هذه المساكن، التي لا تُغلق بواباتها ولا أبواب غرفها، توجد حركة حياة دائبة ويقابل المرء أناسًا طوال الوقت. من الطبيعي أن ما كان يدفعها إلى الأمام لم يكن الركض، بل آخر ما تبقى لديها من طاقة كانت قادرة على بذلها، ومن الممكن جدًا في واقع الأمر أنه لم يكن أكثر من زحف. وتيريزه لم تعد تعرف، ما إن

كانتا بين منتصف الليل والخامسة فجرًا في عشرين مسكنًا أم في اثنين أم واحد فقط. إن دهاليز هذه المساكن مصممة وفق مخططات ماكرة لاستخدام المكان بأنجع طريقة، ولكن دون مراعاة سهولة التوجه؛ كم مرة يا ترى مرتا من الدهاليز نفسها! مازالت تيريزه تتذكر وإن بشكل ضبابي، أنهما قد غادرتا بوابة مبنى، كانتا قد فتشتاه جذرياً، للمرة الثانية، كما بدا لها أنهما ما أن وصلتا إلى الزقاق حتى استدارتا وعادتا إلى المبنى عبر البوابة نفسها. بالنسبة إلى طفلة كانت معاناة غير مفهومة بطبيعة الحال، أن تمسكها الأم من يدها تارة، وأن تتشبث هي بتنورة الأم تارة أخرى، وأن تُجرجَر مع أمها دون أبسط كلمة مواساة، وكل هذا بدا آنذاك لعقلها القاصر أنه لا يحتمل إلا تفسيرًا واحدًا، أن الأم تريد التخلي عنها والهروب منها. لذلك ازدادت تيريزه تشبثًا بثوب أمها من باب الاحتياط، حتى عندما كانت الأم تمسك بإحدى يديها، وصارت تبكي بين الحين والآخر. إذ إنها لم ترِد أن تُتركَ هنا بين الناس الذين يصعدون الدرج أمامهم وهم يدكون الدرجات بأقدامهم، أو الذين وراءهم غير المرئيين بعد، القادمين من وراء أحد منعطفات الدرج، أو الذين يتشاجرون مع بعضهم البعض في الدهاليز أمام أبوابهم ويدفعون بعضهم بعضا إلى داخل الغرف. وكان هناك سكارى يتجولون في أرجاء المبنى وهم يغنون بأصوات خافتة. وكانت الأم وتيريزه تنسلان بنجاح بين مثل هذه المجموعات التي تكاد لتوها أن تسد الدرب. كان بوسعهما بالتأكيد في ساعة متأخرة من الليل، حين تضعف الرقابة ويتوقف الناس عن الإصرار على حقوقهم، أن تجدا ركنًا، على الأقل في إحدى قاعات النوم العامة التي يؤجرها المستثمرون، وقد مرتا ببعضها، لكن تيريزه لم تكن تفهم هذا الأمر، والأم لم تعد تطلب الراحة. في الصباح مع بداية يوم شتوي جميل استندتا كلاهما إلى جدار مبنى سكني وربما نامتا هناك قليلًا، وربما حدقتا فقط بما حولهما بعيون مفتوحة. إذ تبين أن تيريزه قد فقدت بقجتها، وعقابًا لها على إهمالها شرعت الأم بضربها، لكن تيريزه لم تسمع أي صفعة ولم تحس بأي صفعة. ثم تابعتا المشي عبر الطرقات التي دبت فيها الحياة، والأم من جهة الجدار، ومرتا فوق جسر، حيث أخذت الأم تجرف بيدها الجليد عن الدرابزين، ووصلتا أخيرًا إلى ذلك البناء –آنذاك قبلت تيريزه بواقع الأمر، لكنها اليوم لا تفهمه-، الذي كان على الأم أن تحضَر إليه في ذاك الصباح. لم تقل لتيريزه ما إن كان عليها أن تنتظر أم تذهب،

وتيريزه اعتبرت ذلك أمرًا بالانتظار، لأنه ينسجم مع رغبتها. وهكذا جلست على كومة طوب وراقبت أمها وهي تفك ربطة بقجتها، لتخرِج منها قماشة ملونة ربطت بها منديل رأسها، الذي كانت تلبسه طوال الليل. كانت تيريزه بالغة التعب، إلى حد أن لم تخطر في بالها فكرة مساعدة أمها. ومن دون أن تسجل اسمها في كوخ المبنى، حسب المألوف، ومن دون أن تسأل أحدًا، تسلقت الأم سلمًا، وكأنها تعرف مسبقًا العمل الذي ستُكلف به. استغربت تيريزه الأمر، لأن العاملات المساعدات يعملن عادة تحت فقط، في إطفاء الكلس وفي مناولة قطع الطوب وبأشغال بسيطة أخرى. وفكرت لذلك بأن الأم تريد اليوم القيام بعمل أجره أفضل، فابتسمت لها على السلم وهي ناعسة. لم يكن البناء قد ارتفعت طوابقه بعد، بالكاد انتهى الطابق الأول، لكن أعمدة سقالات الطوابق الأعلى كانت منتصبة حتى السماء الزرقاء، إنما من دون عوارض الربط الخشبية. فوق، التفَّت الأم برشاقة حول البنائين، الذين كانوا يضعون طوبة فوق طوبة، والذين لسبب غير مفهوم لم يسألوها عن مرادها هنا، كانت تمسك بلين وحذر حاجزاً خشبيًا يقوم بمثابة درابزين، وتيريزه مندهشة في نعاسها تحت من هذه الرشاقة، وفي ظنها أنها قد تلقت نظرة محبة من أمها. وصلت الأم الآن على طريقها إلى كومة صغيرة من قطع الطوب، ينتهي أمامها الدرابزين وكذلك الممر على الأرجح، إلا أنها لم تتوقف عنده، بل مشت إلى كومة الطوب، ويبدو أن رشاقتها قد فارقتها، فصدمت كومة الطوب فأوقعتها وسقطت هي وراءها إلى الأسفل. تدحرجت وراءها قطع طوب كثيرة، وأخيرًا بعد لحظات طويلة، انحلَّ في مكان ما لوح خشبي ثقيل وهوى فوقها بصخب. كان آخر ما تتذكره تيريزه عن أمها، شكلها وهي ممددة مفرشخة الساقين في ثوبها ذي الكاروهات، الذي أتت به من پومرن، وقد كاد اللوح الخشبي الخشن أن يغطيها، ثم هرولة الناس من جميع الجهات إلى المكان وصياح أحد العمال بغضب من الأعلى.

كان الوقت قد تأخر عندما أنهت تيريزه حديثها. لقد أسهبت في التفاصيل على غير عادتها، ولاسيما في مواضع غير مهمة، كما في وصفها لأعمدة السقالات التي تتسامق فرادى نحو السماء، حيث اضطرت إلى التوقف عن الكلام والدموع في عينيها. كانت تعرف الآن بعد عشر سنوات، أصغر الأمور مما حصل حينذاك، بكل دقة، ولأن منظر أمها على أرضية

الطابق الأول غير المنتهي كان آخر تذكار عن حياة أمها، ولم تستطع نقله بأمانة إلى صديقها، أرادت بعد نهاية حديثها أن تعود إليه مرة ثانية، لكنها تلعثمت، وضعت وجهها بين يديها ولم تقل أي كلمة.

ولكن في غرفة تيريزة كانت هناك أوقات أكثر مرحًا. فمنذ زيارته الأولى لغرفتها رأى كارل هناك كتابًا تعليميًا عن المراسلات التجارية، ورجاها أن تعيره إياه فلبَّته. واتفقا في الوقت نفسه على أن يقوم كارل بحل المسائل الواردة فيه، وأن يعرضها من ثمة على تيريزه، التي درست الكتاب نظرًا لضرورات عملها البسيطة. فاستلقى كارل طوال ليال وقد حشا أذنيه بالقطن في صالة النوم تحت، مبدلًا وضعية استلقائه بين الحين والآخر على سبيل التغيير، وهو يقرأ في الكتاب ويخربش المسائل في دفتر صغير بقلم حبر أهدته إياه كبيرة الطباخين، مكافأة له على وضعه فهرسَ جردِ محتوياتٍ عملي وتطبيقه على نحو نظامي. وقد نجح في تحويل معظم مضايقات الفتيان الآخرين لمصلحته، بطلبه منهم باستمرار نصائح تتعلق باللغة الإنجليزية، إلى أن ملوا منه وتركوه لشأنه. وكثيرًا ما كانت تعتريه الدهشة من كون هؤلاء الآخرين متصالحين تمامًا مع وضعهم الحالي، دون أي إحساس بكونه مؤقتًا، علمًا بأن عاملي المصاعد لا يجوز أن يتجاوز عمرهم العشرين سنة، فلم يدركوا ضرورة اتخاذ قرار بشأن مهنة المستقبل، ورغم نموذج كارل لم يقرؤوا شيئًا سوى قصصًا بوليسية يتداولون نسخها المهترئة من سرير إلى سرير.

وفي لقاءاتهما من ثم كانت تيريزه تصحح بحذلقة مبالغ فيها؛ ونتج عن ذلك وجهات نظر خلافية، فساق كارل اسم بروفسوره النيويوركي الكبير كمرجع، لكن تقديرها له لم يتجاوز تقديرها للآراء النحوية لفتيان المصاعد. كانت تأخذ قلم الحبر من يده وتشطب الموضع الذي اقتنعت بخطئه، أما كارل فكان في مثل هذه الحالات المشكوك فيها، علمًا بعدم وجود سلطة أعلى من تيريزه ستطلع عليها، كان توخيًا للدقة يشطب تشطيبات تيريزه. ولكن أحيانًا كانت تنضم إليهما كبيرة الطباخين ويأتي تحكيمها دائمًا لمصلحة تيريزه، مع العلم بأنه لا يبرهن على شيء بعد، فتيريزه كانت سكرتيرتها. لكنها في الوقت نفسه كانت تأتي بالصلح العام، فيتم غلي الشاي وإحضار المعجنات، وكان على كارل أن يحكي عن أوروبا،

وكانت كبيرة الطباخين تقاطعه كثيرًا بأسئلتها واندهاشها المتكرر، ما لفت وعي كارل إلى مدى التغير الجذري الذي وقع هناك خلال مدة قصيرة نسبيًا، وإلى أن أشياء كثيرة لابد أن تكون في غيابه قد تغيرت وستستمر في التغير.

كان قد مضى نحو شهر على إقامة كارل في رمسيس، عندما خاطبه رينل بصورة عابرة ذات مساء، وأخبره بأن شخصًا يدعى ديلامارش قد كلمه أمام الفندق وسأله عن أوضاع كارل. ولم يكن لدى رينل أي سبب لأن يخفي شيئًا، فأخبره بواقع الحال، أن كارل يشتغل عامل مصعد، وأن أمامه أمل، نتيجة رعاية كبيرة الطباخين له، في أن يحصل على أعمال أخرى. لاحظ كارل مدى حذر ديلامارش في تعامله مع رينل، إلى درجة أنه دعاه لتناول وجبة عشاء معه في المساء نفسه.

«لم يعد لي أي علاقة مع ديلامارش، وخذ أنت أيضًا حذرك منه!»، قال كارل لزميله رينل.

«أنا؟» قال رينل، تمطى وهرع مغادرًا. كان رينل أكثر فتيان الفندق رقة ورشاقة، وقد سرت شائعة بين الفتيان الآخرين، دون معرفة مصدرها، بأن سيدة راقية تقيم في الفندق منذ وقت طويل، قد قامت على الأقل بتقبيله في المصعد. وبالنسبة لمن كان يعرف الشائعة، كان مثيرًا حتمًا أن يراقب هذه السيدة الواثقة من نفسها، والتي ليس في مظهرها الخارجي إطلاقًا ما يوحي بإمكانية مثل هذا السلوك، وهي تعبر من أمامه، بخطواتها الهادئة الخفيفة، وخمارها الرقيق وخصرها المشدود بحزم. كانت تقيم في الطابق الأول، ومصعد رينل ليس مصعدها، ولكن عندما تكون المصاعد الأخرى مشغولة آنيًا، فلا يمكن طبعًا منع مثل هؤلاء النزلاء من استخدام مصعد آخر. وهكذا حدث أن هذه السيدة قد ركبت في مصعد رينل وكارل، ودائمًا في الحقيقة أثناء مناوبة رينل. من الممكن أن يكون الأمر صدفة، ولكن ليس ثمة من يعتقد بذلك، وعندما يتحرك المصعد بهما، يسري بين جميع فتيان المصاعد قلق مكبوت بجهد، أدى مرة إلى تدخل أحد الندل الكبار. وسواء كانت السيدة هي السبب أو الشائعة، فإن رينل في كل الأحوال قد تغير، بات أكثر ثقة بالنفس مما كان عليه بمراحل، ترك تنظيف المصعد كليًا لكارل، الذي كان ينتظر فرصة سانحة لمناقشة هذا الأمر جذريًا،

ولم يعد يراه أحد في صالة النوم أبدًا. ولم يسبق لأحد من الفتيان أن خرج من الجماعة بشكل كلي سواه الآن، فعمومًا كانوا جميعهم، على الأقل فيما يتعلق بأمور الخدمة، يتضامنون بحزم معًا، وكان لهم منظمة معترف بها من جانب إدارة الفندق.

فكر كارل بكل هذه الأمور، وفكر بديلامارش أيضًا، وقام أثناء ذلك بخدمته كالمعتاد دائمًا. ونحو منتصف الليل طرأ تنويع طفيف على رتابة عمله، فتيريزه التي كانت تفاجئه غالبًا بهدايا صغيرة، جلبت له تفاحة كبيرة ولوح شوكولاتة. تحادثا قليلًا دون أن تزعجهما كثيرًا الانقطاعات الناجمة عن سفرات المصعد. وفي سياق الكلام ورد ذكر ديلامارش، ولاحظ كارل أنه كان في واقع الأمر تحت تأثير تيريزه، لاعتباره ديلامارش منذ بعض الوقت شخصًا خطيرًا، فهكذا تبدى لتيريزه من خلال روايات كارل عنه، في حين أن كارل كان يعتبره في حقيقة الأمر صعلوكًا أفسدته المصائب، ولكن من الممكن التعامل معه. فعارضت تيريزة هذا الموقف بكل حميَّة، وطالبت كارل في كلام مسهب، بأن يعدها بألا يتكلم مع ديلامارش ثانية. بدلًا من إعطائها هذا الوعد، ألح عليها كارل مرارًا في أن تذهب للنوم، فقد تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير، وعندما رفضت، هدد بترك المصعد ليقودها إلى غرفتها. وأخيرًا عندما أبدت استعدادها للذهاب، سألها:

«تيريزه، لماذا تسببين لنفسك بلا داع كل هذا القلق؟ إذا كان الأمر سيجعل نومك أكثر راحة، فإني مستعد لأن أعدك بأني لن أتكلم مع ديلامارش، إلا في حال أن لا مفر من ذلك». ثم جاءت سفرات عديدة، لأن فتى المصعد المجاور استدعي للمساعدة في شأن آخر، فاضطر كارل إلى تخديم المصعدين. بعض النزلاء تحدثوا عن فوضى، وثمة رجل يرافق سيدة لمس كارل بعكاز المشي ليحثَه على الإسراع، وكان ذلك في الحقيقة تنبيهًا لا ضرورة له بالمرة. فلو أن النزلاء، عندما لاحظوا عدم وجود الفتى عند ذاك المصعد، قد تقدموا فورًا إلى مصعد كارل، لسهل الأمر، لكنهم كانوا يتوجهون إلى ذاك، ويبقون هناك، واقفين ويدهم على أكرة الباب، أو يدخلون المصعد بأنفسهم، وهذا ما يجب على جميع فتيان المصاعد تجنب وقوعه بأي ثمن، وفق التعليمات الصارمة لنظام المصاعد. نتج عن ذلك بالنسبة لكارل تنقل سريع متعب بين المصعدين، ولكن من دون أن يتمكن من إقناع نفسه بأنه يؤدي

واجبه بدقة. فوق ذلك ونحو الثالثة بعد منتصف الليل، أراده حامل أمتعة أن يؤدي له خدمة ما، وهو رجل كبير بالسن يودّه كارل، لكنه لم يستطع الاستجابة له بأي حال من الأحوال، إذ كان بعض النزلاء واقفين عند المصعدين، وكان الحال يحتاج إلى حضور بديهة كي يقرر بأقصى سرعة إلى أي مجموعة عليه أن يتجه. ولذلك شعر بالسعادة عندما عاد فتى المصعد الثاني إلى مكانه، وقال له كارل بضع كلمات متهمًا إياه بإطالة الغياب، رغم احتمال ألا يكون الذنب ذنبه في ذلك.

بعد الرابعة فجرًا حل شيء من الهدوء، وكان كارل بحاجة ماسة إليه. فاتكأ بكل ثقله على الدرابزين بجوار المصعد وبدأ متمهلًا يأكل التفاحة، التي فاحت منها بعد القضمة الأولى رائحة جميلة قوية، وأخذ ينظر إلى تحتْ عبر المسقط الضوئي المحاط بنوافذ مستودعات المؤونة والتي ظهرت وراءها كميات من الموز معلقة وتومض في الظلمة.

(٦) حالة روبنسُن

في تلك اللحظة ربت أحدهم على كتف كارل، فظنه طبعًا أحد النزلاء. خبأ التفاحة بأقصى سرعة في جيبه وهرول ما أن رأى الرجل إلى المصعد.

«مساء الخير يا سيد روسمَن. هذا أنا، روبنسُن»، قال الرجل.

«لكنك تغيرت!» قال كارل وهز رأسه مستغربًا.

«نعم، أحوالي جيدة»، قال روبنسون وألقى نظرة على ثيابه، التي يمكن أن تكون كل قطعة منها فاخرة، لكن تجميعها، القطعة مع الأخرى عشوائيًا، جعلها تبدو رثة رخيصة. وأكثر ما يلفت النظر فيها، كان صديريًا أبيض بأربعة جيوب صغيرة مخيطة حوافها بخيوط سوداء، ومن الواضح أنه يُلبَس لأول مرة. وقد حاول روبنسن لفت انتباه كارل إليه بإبراز صدره.

«تلبس ثيابًا غالية»، قال كارل وفكر على نحو عابر ببدلته البسيطة الجميلة، التي كان يمكن أن ينافس بها حتى زميله رينل، والتي باعها الرفيقان السيئان.

«نعم»، قال روبنسن، «تقريبًا كل يوم أشتري لنفسي شيئًا جديدًا. هل أعجبك الصديري؟».

«جدًا»، أجاب كارل.

«لكن هذه ليست جيوبًا حقيقية، الخياطة توحي بذلك، هذا كل ما هنالك»، قال روبنسن وأمسك يد كارل ليجعله يتأكد من الأمر بنفسه. لكن كارل تراجع خطوة، بسبب انبعاث رائحة كحول لا تطاق من فم روبنسن. «عدتَ للإكثار من الشراب»، قال كارل وعاد ليقف عند الدرابزين.

«لا، ليس كثيرًا»، علق روبنسن وأضاف بما يناقض رضاه السابق عن أحواله، «وماذا هناك للإنسان عداه في هذه الدنيا».

انقطع الحديث بسبب سفرة، وما أن عاد كارل منها حتى جاءت مكالمة هاتفية تطلب منه إحضار طبيب الفندق، لأن نزيلة في الطابق السابع أصيبت بنوبة فقدان الوعي. أثناء قيامه بهذه المهمة أمل كارل سرًا، أن يكون روبنسن قد غادر، لأنه لم يكن راغبًا في أن يراه أحد معه، وهو يفكر بتحذير تيريزه بألا يسمع شيئاً عن ديلامارش أيضًا. لكن روبنسون بقي منتظرًا بحالة جمودِ من أفرط في السكر. في اللحظة نفسها عبر المكان أحد كبار موظفي الفندق بطقم خروج أسود مع قبعة أسطوانية عالية، ولحسن الحظ، حسبما بدا، من دون أن يلفت روبنسن انتباهه على نحو خاص.

«ألا ترغب يا روسمن في أن تزورنا، إننا نعيش بأبهة الآن»، قال روبنسن ونظر إلى كارل مستدرجًا إياه.

«هل الدعوة منك أنت أو من ديلامارش؟» سأله كارل.

«من كلينا معًا، نحن متفقان في هذا»، قال روبنسن.

«إذن، دعني أقول لك وأرجو أن تخبر ديلامارش بذلك أيضًا: افتراقنا، إن لم يكن قد اتضح الأمر في حينه، كان فراقًا نهائيًا. وقد تأسفتما عليَّ أكثر من أي شخص آخر. فهل قررتما ألا تتركاني وشأني في المستقبل أيضًا؟».

«لكننا رفيقاك»، قال روبنسن واغرورقت عيناه بدمعتي سكر مقززتين، «يقول لك ديلامارش إنه يريد تعويضك عن كل ما مضى. نحن نقيم حاليًا مع برونيلدا سوية، وهي مغنية رائعة». وأراد في إثر ذلك رفع عقيرته بالغناء، لو لم يردعه كارل بصوت منخفض وباتر:

«اصمت فورًا؛ ألا تعرف أين أنت!».

«روسمن»، قال روبنسن وقد تراجع عن الغناء مرعوبًا، «أنا أصر على أني رفيقك مهما كان رأيك. وبما أنك تملك هنا هذا العمل الجميل، ألا يمكنك أن تتنازل لي عن بعض النقود؟».

«ستهدرها على الشراب مجددًا»، قال كارل «إني أرى في جيبك بطحة كحول، ولا شك في أنك قد شربت منها أثناء غيابي، لأنك في البداية كنت لا تزال في وعيك نوعًا ما».

«هذا للتشجيع وحسب عندما أكون في مهمة»، قال روبنسن معتذرًا.

«أنا لم يعد يهمني إصلاحك»، قال كارل.

«ولكن النقود!» قال روبنسن بعينين مفتوحتين على اتساعهما.

«لابد أن ديلامارش كلفك بمهمة إحضار النقود. حسنًا، سأعطيك نقودًا، ولكن بشرط أن تغادر من هنا فورًا، وألا تزورني هنا مطلقًا. إذا أردت إخباري بشيء ما، اكتب لي: كارل روسمَن، فتى مصعد، فندق أوكسيدنتال، هذا يكفي كعنوان. أما هنا، أنا أكرر، فلا يجوز لك أن تزورني. أنا هنا في مكان عمل ولا وقت عندي للزيارات. فهل تريد النقود بهذه الشروط؟» سأله كارل ومد يده إلى جيب الصديري، فقد عزم على التضحية بإكراميات هذه الليلة. أومأ روبنسن برأسه فقط جوابًا على السؤال وأخذ يتنفس بصعوبة. فسر كارل ذلك على نحو خاطئ، وسأل ثانية: «نعم أم لا؟».

أشار له روبنسن كي يقترب منه وهمس وهو يتلوى بوضوح: «روسمن، أشعر بغثيان شديد».

«يا للشيطان»، قال كارل وجرّه بكلتا يديه إلى الدرابزين، حيث اندفع سيل من فم روبنسن إلى القاع. وفي الاستراحات التي تتخلل الغثيان كان يمد يده بعجز الأعمى نحو كارل ويقول: «أنت فعلًا فتى طيب» أو «سيتوقف»، لكن الواقع كان غير ذلك كليًا، أو «الكلاب، ما الذي صبوه لي هناك!»

نتيجة القلق والتقزز لم يحتمل كارل البقاء إلى جانبه وأخذ يمشي ذهابًا وإيابًا. هنا في الزاوية بجانب المصعد كان روبنسن إلى حد ما غير ظاهر، ولكن ماذا إنْ لاحظه أحدهم، أحد النزلاء الأغنياء دائمي النرفزة، الجاهزين فورًا لتبليغ شكوى، ما أن يروا موظف الفندق قادمًا بسرعة، فينتقم هذا بسببها من جميع العاملين، أو إذا لاحظه أحد مخبري الفندق دائمي التبديل، الذين لا يعرفهم أحد عدا الإدارة، والذين يخمِّنهم المرء في كل رجل يدقق النظر، وربما بسبب قصر نظره وحسب. وهناك تحت، لا يحتاج الأمر إلا لدخول أحدهم، من قاعة المطعم التي لا تفتر حركتها طوال الليل، إلى غرف المؤونة ويندهش من منظر الشناعة في فتحة الضوء، ويتصل بكارل هاتفيًا ليستفسر منه، عما يجري عنده فوق بحق السماء. فهل سيتمكن كارل عندئذ من إنكار وجود روبنسن؟ وإذا فعل ذلك، ألن يقدِم روبنسن في غبائه ويأسه على الاعتماد على كارل وحسب، بدلاً من الاعتذار عن كل شيء؟ وألن يؤدي هذا إلى فصل كارل من عمله فورًا، بما أن ما لا سابقة له قد وقع، حيث أن فتى مصعد -وهي أدنى درجة في السلم الشاهق لمستخدمي الفندق وأكثرها قابلية للاستغناء عن شاغلها– قد قام عن طريق صديقه بتوسيخ الفندق وتنفير النزلاء بل وتطفيشهم. فهل يمكن الصبر على فتى مصعد لديه مثل هؤلاء الأصدقاء، وقد سمح لهم بزيارته خلال وقت خدمته؟ ألن يبدو الأمر وكأن فتى المصعد هو نفسه سكير، بل وأرذل من ذلك؟ فأي ظنٍ أكثر إقناعًا من أنه كان يبالغ في إطعام أصدقائه من مؤونة الفندق حتى التخمة، إلى أن استفرغوا ذلك كله، مثل روبنسن الآن، في مكان ما من الفندق المحافظ على نظافته بكل عناية؟ ولماذا يُفترض بمثل هذا الفتى أن يحصر سرقاته بالمواد الغذائية فقط، ما دامت إمكانيات السرقة لا محدودة، نظرًا إلى إهمال النزلاء المعروف، والخزائن المفتوحة في كل مكان، والأشياء الثمينة المتروكة على الطاولات، وعلب الحلي المفتوحة، والمفاتيح المرمية بشرود؟

في تلك اللحظة رأى كارل في طرف البهو نزلاء صاعدين من الملهى في القبو، حيث انتهى للتو عرض منوعات، فوقف لصق مصعده ولم يجرؤ أبدًا على الالتفات نحو روبنسن، خشية ما قد يراه. وشعر ببعض الارتياح لعدم سماعه أي صوت، ولا حتى زفرة من هناك. صحيح

أنه خدم النزلاء وأوصلهم وعاد، لكنه لم يستطع إخفاء تشتت أفكاره، ومع كل سفرةٍ نزولًا كان يتوقع مواجهة مفاجأة محرجة تحت.

أخيرًا وجد الوقت للالتفات إلى روبنسن، الذي كان متكورًا على نفسه في الزاوية بشدة ضاغطًا وجهه على ركبتيه، وقد أزاح قبعته المستديرة القاسية إلى الوراء بعيدًا عن جبهته.

«لابد من أن تذهب الآن»، قال كارل بصوت خافت ولكن جازم «هاك النقود. إذا أسرعت سيمكنني إرشادك إلى أقصر الطرق».

«لا أستطيع المغادرة»، قال روبنسن ومسح جبينه بمنديل صغير، «سوف أموت هنا. لا يمكنك تصور مدى سوء حالي. ديلامارش يأخذني معه دائمًا إلى المشارب الراقية، لكنني لا أتحمل هذا المشروب اللعين، وأقول ذلك لديلامارش يوميًا».

«ولكن لا يمكنك البقاء هنا، راعِ مكان وجودك. إذا وجدوك هنا، فسوف تُعاقب، وأنا سأفقد عملي. أتريد هذا؟».

«لا أستطيع أن أغادر»، أجاب روبنسن «أفضل أن أقفز إلى تحت»، وأشار من بين قضبان الدرابزين إلى مسقط الضوء، «ما دمت جالسًا هنا، فإني أستطيع الاحتمال، لكني لا أستطيع النهوض والوقوف، لقد حاولت ذلك في أثناء غيابك».

«إذن سأطلب لك سيارة لتوصلك إلى المستشفى»، قال كارل وهز قليلًا ساقي روبنسن، الذي كان على وشك أن يسقط في أية لحظة في حالة تبلد شعوري. ولكن ما أن سمع روبنسن كلمة مستشفى، التي بدا أنها توقظ فيه تصورات مرعبة، حتى أخذ ينتحب بصوت عال، مادًا يديه إلى كارل متوسلًا الرحمة.

«اهدأ»، قال له كارل وأنزل يديه الممدودتين بضربة خفيفة، ثم هرع إلى فتى المصعد المجاور، الذي ناوب عنه في الليل، ورجاه أن يؤدي له الخدمة نفسها لفترة قصيرة، أسرع عائدًا إلى روبنسن الذي مازال ينتحب وأنهضه بكل قوته وهمس له، «روبنسن، إذا أردتني

أن أساعدك فعليك أن تبذل جهدك لتسير منتصبًا الآن لمسافة قصيرة. فأنا سأقودك إلى سريري، حيث يمكنك البقاء فيه إلى أن تتحسن. وسوف تدهشك سرعة استعادتك لقواك. ولكن عليك أن تتصرف الآن بتعقل، فالممرات مليئة بالناس، وحتى سريري موجود في صالة نوم عامة. فإن أثرتَ انتباه أحدهم ولو قليلًا، فلن أتمكن من الاستمرار في مساعدتك. وعليك أن تبقي عينيك مفتوحتين، إذ لن أستطيع أن أقودك عبر الممرات وكأنك مريض مشرف على الموت».

«سأفعل كل ما تراه أنت صحيحًا»، قال روبنسن «لكنك لن تتمكن لوحدك من قيادتي. ألا يمكنك أن تُحضر رينل أيضًا؟».

«رينل ليس هنا»، أجاب كارل.

«صحيح، رينل موجود مع ديلامارش. هما أرسلاني إليك. بدأت أخربط في كل شيء».

استغل كارل كلام روبنسن مع نفسه وكلامًا آخر أيضًا غير واضح كي يدفعه إلى الأمام، ووصل معه لحسن الحظ إلى زاوية يؤدي منها دهليز خفيف الإضاءة إلى صالة نوم فتيان المصاعد. وفي تلك اللحظة تقدم منهما أحد الفتيان مسرعًا وتجاوزهما. وحتى الآن لم يشكل أي شخص مر بهما خطرًا؛ فالوقت بين الرابعة والخامسة صباحًا هو الأكثر هدوءً، وكارل كان يعرف أنه إذا لم ينجح الآن في إبعاد روبنسن، فلا يمكن أبدًا التفكير بالأمر عند انبلاج الفجر وبداية الصباح.

في الطرف الثاني من صالة النوم كان هناك الآن شجار كبير أو ما يشبه ذلك، فقد سمع كارل تصفيقًا إيقاعيًا وخبطًا بالأقدام وهتافات رياضية. وفي الطرف المجاور لباب الصالة كان هناك في الأسرّة عدد قليل من المصرّين على النوم، في حين كان الآخرون مستلقين على ظهورهم محدقين في الهواء. وهنا وهناك كان يقفز أحدهم من سريره، كيفما كان حاله، لابسًا أو بملابسه الداخلية، ليرى إلامَ وصلت الأوضاع في الطرف الثاني في آخر الصالة. وهكذا أوصل كارل روبنسن، الذي استعاد قليلًا القدرة على المشي، تقريبًا دون إثارة

اهتمام أحد، إلى سرير رينل، لوقوعه قريبًا جدًا من الباب ولكونه لحسن الحظ غير مشغول، في حين كان سريره الخاص، حسبما رأى عن بعد، مشغولًا بفتى غريب نائم بهدوء، ولم يسبق لكارل أن رآه. لم يكد روبنسن يحس بالسرير تحته حتى غرق في النوم رغم أن إحدى ساقيه مازالت تتأرجح خارج السرير. سحب له كارل الغطاء حتى غطى وجهه، معتقدًا بأنه لبعض الوقت على الأقل لن يسبب له أية مشاكل، ما دام روبنسن بالتأكيد لن يستيقظ قبل السادسة صباحًا، وحتى ذلك الحين سيكون كارل قد عاد، وربما سيجد مع رينل وسيلة ما لإخراج روبنسون من الفندق. فصالة النوم لا تتعرض لزيارة تفتيش، من إحدى جهات الإدارة العليا، إلا في حالات استثنائية جدًا، أما التفتيش العام المعتاد سابقًا، فقد تمكنت منظمة فتيان المصعد من إلغائه منذ عدة سنوات. فمن هذه الناحية إذًا، ليس ثمة ما يُخشى أن يحدث.

عندما عاد كارل إلى مصعده ثانية، رأى أن مصعده ومصعد جاره قد انطلقا للتو صاعدين. فانتظر بقلق تفسيرًا للأمر. نزل مصعده قبل الآخر وخرج منه ذاك الفتى الذي قابله قبل قليل راكضًا في الدهليز.

«أين كنت يا روسمن؟» سأله الفتى «لماذا غادرت؟ لماذا لم تبلغ الإدارة؟».

«ولكنني قلت له أن ينوب عني لفترة قصيرة»، أجاب كارل مشيرًا إلى فتى المصعد المجاور الذي اقترب لتوه منهما، «لقد ناوبت عنه طوال ساعتين في ذروة الازدحام».

«هذا كله كلام جميل»، أجاب الفتى المخاطَب، «لكنه لا يكفي. ألا تعرف أن أبسط غياب أثناء الخدمة يجب إبلاغ مكتب كبير الندل عنه؟ لهذا السبب يوجد الهاتف بجانبك. كان يسرني أن أنوب عنك، لكنك تعرف أن الأمر ليس بهذه السهولة. في لحظتها وقف نزلاء جدد أمام المصعدين قادمين بالقطار السريع في الرابعة والنصف. فلم يكن بوسعي طبعًا أن أخدم مصعدك أولًا وأترك نزلائي ينتظرون، وهكذا سافرت بمصعدي أولًا!».

«وماذا بعد؟» سأل كارل، لأن الاثنين سكتا.

«بعد»، قال فتى المصعد المجاور، «مر كبير الندل عابرًا، رأى النزلاء أمام مصعدك بلا خدمة، فانفجرت مرارته، ركضتُ إلى مصعدك، فسألني عن مكان وجودك، وأنا لا علم لي بمكان وجودك، لأنك لم تخبرني إلى أين ستذهب، وهكذا خابرَ فورًا صالة النوم وطلب حضور أحد الفتيان فورًا».

«أنا قابلتك في الدهليز قبل قليل»، قال بديل كارل، فأومأ كارل برأسه.

«طبعًا»، أكد فتى المصعد المجاور «أنا أخبرته فورًا بأنك رجوتني أن أنوب عنك، ولكن هل يستمع هذا الرجل لمثل هذه الأعذار؟ أنت ربما لا تعرفه بعد. ثم كلفنا بإخبارك أن عليك التوجه إلى مكتبه فورًا. لذلك يفضل ألا تتأخر وأن تذهب إليه مباشرة. لربما سيعذرك، فأنت فعلًا لم تتغيب أكثر من دقيقتين. أكِّد على أنك قد رجوتني النيابة عنك. ويفضَّل ألا تذكر نيابتك عني، أنصحك بذلك، أنا لن يصيبني شيء، فقد كنتُ مأذونًا، ولكن لا يصح الكلام عن هذا الموضوع وزجه فيما لا علاقة له فيه».

«إنها المرة الأولى التي أتغيب فيها عن مكان عملي»، قال كارل.

«هكذا هو الأمر دائمًا، إلا أنهم لا يصدقون»، قال الفتى وأسرع إلى مصعده، لاقتراب ركاب منه.

بديل كارل، وكان فتى في الرابعة عشرة من عمره أحس، على ما بدا، بالشفقة على كارل فقال: «كانت هناك حالات كثيرة عذروا فيها مثل هذه الأمور. عادة يتم نقل المعذور إلى عمل آخر. وحسب علمي، لم يُفصَل من العمل إلا واحدًا فقط، بسبب أمر كهذا. عليك التفكير بعذر جيد. إياك أن تقول له إنك شعرت بالغثيان فجأة، لأنه سوف يسخر منك. لذلك يفضل أن تقول مثلًا إن أحد النزلاء قد كلفك بتبليغ رسالة عاجلة لنزيل آخر، وأنت لم تعد تعرف من كان النزيل الأول ولم تستطع العثور على الثاني».

«لا أظن الأمر سيبلغ هذا الحد من السوء»، قال كارل. لكنه بعد كل ما سمعه، لم يعد يعتقد بإمكانية مخرج جيد. وحتى في حال أن هذا الغياب عن الخدمة قد عُذِر، فإن روبنسن ما يزال هناك في صالة النوم دليلًا حيًا على الذنب، ومع شخصية كبير الندل الغضوب سيكون من غير المحتمل الاكتفاء بتحقيق سطحي، وأخيرًا سيتم العثور على روبنسن. صحيح أنه لا يوجد منع صريح لاصطحاب أناس غرباء إلى صالة النوم، إلا أن سبب عدم وجوده، هو أن الأمور اللامعقولة لا تُمنع. عندما دخل كارل إلى مكتب كبير الندل، كان هذا جالسًا يشرب قهوة الصباح، أخذ رشفة وعاود النظر إلى سجل أحضره إليه، على ما بدا، كبير بوابي الفندق الواقف في المكتب أيضًا، وكان رجلًا طويل القامة جعلته بزته الرسمية الفخمة، الغنية بالزينات –هناك سلاسل مذهبة وأشرطة متدلية من كتفيه على ذراعيه– يبدو عريض المنكبين أكثر مما هو عليه في الواقع. وكان شاربه أسود لمّاعًا مبروم الطرفين على الطريقة المجرية، ولا يهتز مهما كانت حركة الرأس سريعة. يضاف إلى ذلك أن حركة الرجل عمومًا كانت ثقيلة بسبب وزن ثيابه ولذلك كان يقف دائمًا مباعدًا ساقيه كي يوزع ثقله على نحو صحيح.

دخل كارل المكتب بحرية وسرعة، حسبما تعود هنا في الفندق، ذلك أن التؤدة والحيطة اللتين تعنيان عند الإنسان العادي تهذيبًا، تعدان كسلًا إن صدرتا من فتيان المصاعد. يضاف إلى ذلك أنه لا يجوز أن يُلاحَظ عليه شعوره بالذنب منذ لحظة دخوله. صحيح أن كبير الندل قد ألقى نظرة عابرة على الباب الذي انفتح، لكنه سرعان ما عاد إلى قهوته وقراءته دون أن يبدِ اهتمامًا بكارل. أما البواب فلربما أزعجه وجود كارل، ربما كان عنده خبر سري يريد نقله أو التماس يريد تقديمه، إلا أنه في كل الأحوال كان ينظر غاضبًا طيلة الوقت إلى كارل وبرأس محني بتصلب، ومن ثم عند التقاء النظرات وتوصيل نيته بوضوح، يحيد عنه ثانية إلى كبير الندل. أما كارل فقد ظن أنه ليس من المستحسن، أن يغادر المكتب الآن، بعد أن دخله، من دون أن يتلقى أمرًا بذلك من كبير الندل. لكن هذا تابع دراسة السجل، وأكل بين الحين والآخر لقيمات من قطعة معجنات وهو يبعد السكر عن سطحها، دون أن يتوقف عن قراءة السجل، الذي أفلتت منه صفحة وسقطت على الأرض. لم يقم البواب حتى

بمحاولة رفعها، كان يعرف أنه لن ينجح في ذلك. ولم يكن ذلك حتى ضروريًا، فقد كان كارل جاهزًا وناول الصفحة لكبير الندل، الذي تلقفها منه بحركة من يده، وكأنها قد ارتفعت عن الأرض من نفسها. كل هذه الخدمة الصغيرة لم تنفع شيئًا، فالبواب لم يتوقف بعدها عن توجيه نظرات الغضب إلى كارل. ورغم ذلك كان كارل متمالك النفس أكثر مما سبق. فكون مسألته لا تستحق كبير اهتمام من جانب كبير الندل، يمكن اعتباره إشارة جيدة. والأمر في نهاية المطاف كان مفهومًا، فمن الطبيعي ألا يعني فتى مصعد أي شيء، ولهذا السبب لا يجوز له السماح لنفسه بشيء، ولأنه بالتحديد لا يعني شيئًا، فإنه غير قادر على اقتراف ما هو غير مألوف. ففي نهاية الأمر كان كبير الندل نفسه في فتوته فتى مصعد –الأمر الذي مازال يُعتبَر فخر هذا الجيل من فتيان المصاعد-، وهو الذي نظَّم فتيان المصاعد لأول مرة، ومن المؤكد أنه ذات مرة قد ترك مكان عمله دون إذن، حتى وإن لم يجرؤ أحد اليوم على تذكيره بذلك، وحتى إنْ لم يغب عن ذهن المرء، أنه كفتى مصعد سابقٍ تحديدًا يرى واجبه حاليًا في الحفاظ على هذا المركز من خلال حزم لا شفقة فيه. إلا أن كارل إضافة إلى ذلك وضع أمله في تقدم الوقت. فساعة المكتب كانت تشير إلى الخامسة والربع، وبالتالي يمكن أن يعود رينل في أية لحظة، ولربما يكون قد وصل، فلا بد من أن يكون قد انتبه إلى أن روبنسن لم يرجع إليهما، يضاف إلى ذلك أن ديلامارش ورينل لابد من أن يكونا في مكان قريب من فندق أوكسيدِنتال، حسبما خمّن كارل، وإلا لما قَدِر روبنسن في حالته السيئة أن يقطع المسافة إلى الفندق. فإذا وجد رينل روبنسن في سريره، الأمر الذي سيقع لابد، فسيكون كل شيء عند ذاك على ما يرام. فمن الناحية العملية، ورينل كان عمليًا، لاسيما عندما يتعلق الأمر بمصلحته، فإنه سيجد طريقة ما فورًا لإبعاد روبنسن عن الفندق. وسيكون الأمر أكثر سهولة، لأن روبنسون ربما قد حصل على شيء من الراحة، إضافة إلى احتمال أن يكون ديلامارش منتظرًا أمام الفندق لاستقباله. وفي حال أن روبنسن قد تم إبعاده، فسيكون كارل أكثر ارتياحًا في مقابلته مع كبير الندل، ويُحتَمل أن ينجو بجلده هذه المرة مع عقوبة قوية. وعندها سيتشاور مع تيريزه حول ما إنْ كان يجوز له إخبار كبيرة الطباخين بالحقيقة –وهو من طرفه لا يرى عائقًا في الموضوع-، وإذا كان ذلك ممكنًا، فستُمحى المسألة من الوجود دون أضرار تذكر.

كان كارل منذ قليل على وشك أن يستعيد هدوءه عن طريق هذه الأفكار، وبدأ بشكل غير ملحوظ في عَدِّ إكراميات هذه الليلة، التي بدت له شعوريًا على نحو خاص أنها كانت وفيرة، عندما وضع كبير الندل السجل على الطاولة قائلًا: «انتظر لحظة رجاء يا فيودور»، انتفض واقفًا بمرونة وصرخ في وجه كارل بصوت عال جدًا، بحيث ارتعب هذا ولم يفعل شيئًا سوى أن يبحلق في سواد فتحة فمه:

«أنت تركت مكان عملك دون إذن. هل تعرف ما يعني هذا؟ هذا يعني التسريح. لا أريد أن أسمع أي عذر، حججك الكاذبة احتفظ بها لنفسك، أنا يكفيني كليًا أنك لم تكن هناك. إذا صبرتُ على ذلك وعفوت عنه، فسيقوم عما قريب جميع فتيان المصاعد الأربعون بترك أماكن عملهم في وقت الخدمة، وعليّ أنا وحدي أن أحمل خمسة آلاف نزيل في فندقي إلى غرفهم».

بقي كارل صامتًا. اقترب البواب وشد إلى الأسفل جاكيت كارل الذي بدت عليه بعض التجعدات، وذلك لا ريب ليلفت اهتمام كبير الندل إلى هذا الإهمال الصغير في طقم كارل.

«هل شعرت ربما بالغثيان فجأة؟» سأل كبير الندل بمكر. نظر كارل إليه متفحصًا وأجابه: «لا».

«إذن حتى بالغثيان لم تشعر. فلابد أنك قد اخترعت كذبة بديعة إذن» صرخ كبير الندل بصوت أعلى، «ما هو عذرك؟ هيا أسمِعني».

«لم أعرف أنه لابد من طلب الإذن هاتفيًا»، قال كارل.

«هذا الجواب في الواقع روعة»، قال كبير الندل، أمسك كارل من ياقة جاكيته وجره بسرعة الطيران تقريبًا إلى لوحة نظام الخدمة المُسمَّر على الجدار. والبواب أيضاً لحق بهما حتى الجدار. وأضاف كبير الندل: «ها هو، اقرأ!» وأشار إلى أحد البنود. ظن كارل أن عليه قراءتها لنفسه. «بصوت عال!»، أمره كبير الندل.

عوضًا عن القراءة بصوت عالٍ قال كارل على أمل أن يهدِّئ كبير الندل: «أنا أعرف هذا البند، كنت قد حصلت على نسخة من نظام الخدمة وقرأته بدقة. لكن مثل هذا الشرط الذي لا يحتاجه المرء أبدًا، ينساه بسهولة. مضى علي في الخدمة شهران لم أغادر فيهما مكان عملي أثناء الخدمة إطلاقًا».

«لقاء ذلك سوف تغادره الآن»، قال كبير الندل، ذهب إلى الطاولة، تناول السجل بيده ثانية، كأنه يريد متابعة القراءة فيه، لكنه ضرب به الطاولة، وكأنه حزمة أوراق لا نفع منها وأخذ يذرع الغرفة بالطول والعرض وقد علت حمرة شديدة جبهته وخديه، «بسبب مثل هذا الشقي يضطر المرء لتحمل كل هذه الانفعالات أثناء الخدمة الليلية!» كرر عدة مرات بغضب وأضاف مخاطبًا البواب: «أتعرف من كان ينتظر للصعود عند تغيب هذا الشقي؟» وذكر اسمًا، بحيث أن البواب الذي يعرف الجميع ويستطيع لا شك تقدير مكانتهم، ارتجف بقوة والتفت إلى كارل بسرعة، وكأن مجرد وجوده لهو دليل ماثل على أن حامل ذاك الاسم قد انتظر طويلًا بلا جدوى عند مصعدٍ كان عامله متغيبًا عن الخدمة.

«هذا مريع!» قال البواب موجهًا وجهه إلى كارل وهو يهز رأسه ببطء يعبر عن قلق لا حدود له، في حين نظر كارل إليه بحزن وفكر بأنه سيتوجب عليه الآن أن يُكفر أيضًا عن بطء فهم هذا الرجل.

«وأنا أيضًا أعرفك جيدًا»، قال البواب مادًا نحوه سبابته الطويلة والثخينة والمتصلبة من التوتر، «أنت الفتى الوحيد الذي لا يحييني مبدئيًا. مَن تظن نفسك! كل من يعبر أمام مقصورة البواب يجب أن يحييني. يمكنك مع بقية البوابين أن تتصرف كما تشاء، أما أنا فإني أطالب بأن تلُقى عليَّ التحية. أنا أتظاهر أحيانًا بأني لا أنتبه، ولكن كن على يقين من أني أعرف بدقة مَن يحييني ومَن لا يفعل أيها الجلف!» التفت عن كارل ومشى منتصبًا متخطِّيا إياه نحو كبير الندل، الذي بدلًا من أن يعلِّق بشيء ما على قضية البواب، أتم فطوره وألقى نظرة سريعة على جريدة الصباح، التي أتى بها أحد الخدم لتوه إلى المكتب.

«يا حضرة كبير البوابين»، قال كارل راغبًا على الأقل في تسوية قضيته مع البواب في أثناء غفلة كبير الندل، فقد أدرك أن تهمة البواب لن تسيء إليه بقدر عداوته له، «إني بالتأكيد أحييك. لم يمض عليّ وقت طويل في أمريكا، وأنا بالأصل من أوروبا، حيث الناس كما هو معروف يتبادلون التحيات بأكثر مما يلزم. وأنا طبعًا لم أستطع التخلي عن هذه العادة بعد، وقبل شهرين في نيويورك، حيث خالطت بالصدفة أوساطًا راقية، كانت توجه إليّ النصيحة في كل مناسبة لأكف عن هذا التهذيب المبالغ فيه. وهنا تُوجَه إليّ تهمة عدم إلقاء التحية عليك أنت تحديدًا! لقد كنت أحييك عدة مرات في اليوم. ولكن طبعًا ليس في كل مرة أراك فيها، ولاسيما أني أمر بمقصورتك مئة مرة يوميًا».

«عليك كل مرة أن تحييني، كل مرة، بلا استثناء. ولديك كل الوقت أثناء كلامك معي لأن تمسك قبعتك بيدك، وعليك أن تخاطبني بصيغة «يا كبير البوابين» وليس بصيغة «يا حضرة». وكل هذا في كل مرة وكل مرة».

«كل مرة؟» كرر كارل متسائلًا بصوت خافت، وتذكر الآن أن هذا البواب طوال مدة إقامته في الفندق كان ينظر إليه دائمًا نظرات اتهام وبصرامة، منذ ذلك الصباح، ولم يكن قد تكيّف تمامًا بعدْ مع عمله الخدماتي، عندما استجوب هذا البواب دون مقدمات وبكل جسارة وإلحاح، عما إذا لم يسأل عنه رجلان ويتركا عنده صورة فوتوغرافية.

«ها أنت ترى إلامَ يؤدي مثل هذا السلوك»، قال البواب الذي عاود الاقتراب من كارل جدًا، مشيرًا إلى كبير الندل، الذي مازال يقرأ، وكأن هذا هو ممثل انتقامه من كارل، وأضاف «في مكان خدمتك القادم سوف تستوعب معنى أن تحيي البواب، حتى ولو كان ذلك في جحرٍ بائس».

أدرك كارل أنه في واقع الأمر قد فقد عمله، فقد قالها كبير الندل صراحة، وكررها كبير البوابين كواقعة ناجزة، وبسبب فتى مصعد وحسب، لا ضرورة لمصادقة إدارة الفندق على التسريح. إلا أن الأمر وقع بأسرع مما اعتقد كارل، فهو في نهاية المطاف قد خدم طوال شهرين بأفضل ما بوسعه، وأفضل بالتأكيد من كثير من الفتيان الآخرين. إلا أن مثل هذه

الأمور لا تؤخذ في الحسبان في اللحظة الحاسمة، على ما يبدو، في أي جزء من العالم، لا في أوروبا ولا في أمريكا، بل يتم الحسم بناء على الحكم الذي يلفظه الفم في لحظة الغضب الأولى. ربما كان من الأجدى الآن لو ينسحب فورًا ويغادر، فمن المحتمل أن كبيرة الطباخين وتيريزه لا زالتا نائمتين، فكان سيوفر عليهما خيبة الأمل والحزن على سلوكه في الوداع الشخصي على الأقل، ويودعهما من ثم في رسالة، وكان سيسرع في حزم حقيبته بحيث يتمكن من المغادرة في فترة الهدوء في الفندق. أما إنْ بقي يومًا واحدًا فقط، وهو بحاجة إلى شيء من النوم بالتأكيد، فلن يكون في انتظاره سوى تضخيم مسألته إلى فضيحة، وتلقّي التهم من جميع الجهات، ومرأى دموع تيريزه الذي لا يُحتمل، وربما دموع كبيرة الطباخين أيضًا، ومن الممكن في الختام تلقي عقوبة أيضًا. ولكن ما حيّره من ناحية أخرى هو وجوده هنا في مواجهة عدوين، وأن كل كلمة قد ينطق بها سيجد أحدهما ما ينتقده فيها أو يفسرها على نحو سيء. لذلك صمت مستمتعًا مؤقتًا بالهدوء السائد في الغرفة، فكبير الندل مازال يقرأ في الجريدة وكبير البوابين آخذ في ترتيب سجله المتناثر على الطاولة وفق أرقام الصفحات، وهو يواجه في ذلك متاعب كبيرة بسبب قصر نظره الواضح.

أخيرًا وضع كبير الندل الجريدة من يده متثائبًا، تأكد بنظرة إلى كارل من أنه لا زال موجودًا، وأدار جرس مقسم الهاتف على الطاولة. قال «هالو» عدة مرات، غير أنه لم يتلق جوابًا، فقال لكبير البوابين: «لا أحد يجيب». وهذا الذي تابع المخابرة باهتمام خاص، حسبما بدا لكارل، قال:

«الساعة تشير إلى السادسة إلا ربعًا. لابد أنها مستيقظة. رن الجرس بقوة أكثر».

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف دون أن يعاود كبير الندل الطلب، فقال هذا: «هنا كبير الندل إيسباري، صباح الخير يا سيدتي. أرجو ألا أكون أنا مَن أيقظك؟ أنا آسف جدًا. نعم، نعم، إنها السادسة إلا ربعًا الآن. لكني آسف جدًا لكوني أفزعتك. أنت عادة تفصلين الخط

أثناء نومك. لا، لا، فعلًا لا عذر لي، لاسيما أن ما أريد مكالمتك بسببه ليس كبير الأهمية. طبعًا عندي وقت، تفضلي، سأبقى على الخط، إذا كان هذا يناسبك».

«يبدو أنها ركضت بقميص النوم إلى الهاتف»، قال كبير الندل مبتسمًا لكبير البوابين، الذي كان طوال الوقت منحنيًا بوجه متوتر فوق مقسم الهاتف، وأردف «لقد أيقظتها فعلًا، عادة توقظها الفتاة القصيرة التي تعمل عندها على الآلة الكاتبة، ولابد أنها اليوم استثناءً لم تفعل. يؤسفني أني أفزعتها، فهي على كل حال متوترة الأعصاب».

«لماذا لا تتابع الكلام؟».

«ذهبت لتتفقد وضع الفتاة»، أجاب كبير الندل والسماعة على أذنه، إذ رن الجرس ثانية، وتابع الكلام في الهاتف:

«الفتاة سوف تظهر ثانية، لا يجوز أن تفزعي بهذا الشكل من كل طارئ. إنك بحاجة حقيقية إلى راحة شاملة. نعم، إذًا، لنعد إلى سؤالي البسيط. عندي هنا فتى مصعد اسمه» –التفت نحو كارل متسائلًا، فأجابه فورًا لأنه كان منتبهًا بيقظة-، «اسمه كارل روسمَن. أتتذكر أنك أبديتِ بعض الاهتمام بأمره، وما يؤسف له أنه كافأ ودّك بشكل مسيء، لقد ترك مكان عمله دون إذن، ما سبب لي مشاكل غير معروفة النتائج بعد، ولهذا السبب فقد فصلته فورًا. آمل ألا تأخذي الأمر على نحو مأساوي. ماذا تقصدين؟ فصلته، نعم، فصلته. لقد قلت لك إنه ترك مكان عمله دون إذن. لا، في هذا الموضوع لا أستطيع حقًا أن أراعي رجاءك يا عزيزتي كبيرة الطباخين. فهذا يتعلق بممارستي لسلطتي، في الأمر مخاطرة كبيرة، فمثل هذا الفتى سيفسد لي المجموعة كلها. وتحديدًا فيما يتعلق بفتيان المصاعد عليَّ أن أكون في منتهى اليقظة. لا، لا، في هذه الحالة لا يمكنني أن أسدي لك معروفًا، مع أني أتوخى دائمًا أن أرضيكِ. وفي حال تركي إياه هنا رغم كل شيء، فلا لأي سبب آخر سوى الحفاظ على مرارتي نشيطة، من أجلك، نعم، من أجلك أنت يا سيدتي لا يمكن أن يبقى هنا. إنك تولينه اهتمامًا لا يستحقه إطلاقًا. ولأنني لا أعرفه هو وحسب، بل لأنني أعرفك أنت أيضًا، فإنني مدرك أن هذا سيؤدي إلى أعظم خيبات أملك، التي أريد أن أجنبك إياها بأي ثمن. إني أقول

هذا بكل وضوح، علمًا بأن الفتى المعاند يقف على بعد خطوات مني فقط. إنه سيُفصل، لا، لا، يا سيدتي، سيفصل كليًا، لا، لا، لن يُنقل إلى عمل آخر، إنه لا يفيدنا في شيء على الإطلاق. يضاف إلى ذلك وجود شكاوى أخرى ضده. كبير البوابين مثلًا، نعم هو، ماذا، نعم فيودور يشكو من قلة تهذيب ووقاحة هذا الفتى. كيف هذا لا يكفي؟ نعم، يا سيدتي، إنك تنكرين طبيعتك بسبب هذا الفتى. لا، لا يسعك أن تلحي عليّ بهذه الصورة».

في هذه اللحظة انحنى البواب على أذن كبير الندل وهمس بشيء ما. نظر إليه كبير الندل مندهشًا أول الأمر ثم هدر بالكلام بسرعة في الهاتف، بحيث لم يستطع كارل بادئ الأمر أن يفهم ما قاله بدقة، فاقترب على رؤوس أصابع قدميه خطوتين.

«يا سيدتي العزيزة، بصراحة، ما كنت لأظن أن معرفتك بالبشر رديئة بهذا الشكل. لقد عرفت لتوي عن ملاك الفتى شيئًا سيغير فكرتك عنه جذريًا، وأكاد آسفُ أني أنا تحديدًا مضطر لإعلامك به. هذا الفتى المهذب إذًا، الذي تعتبرينه نموذجًا للأخلاق الحميدة، لا يترك ليلة بلا خدمة تمر، إلا ويهرع إلى المدينة، ولا يعود منها إلا صباحًا. نعم، يا سيدتي، هذا مثبت بأقوال شهود، شهود لا غبار عليهم، نعم. فهل بإمكانك إخباري الآن، من أين يأتي بالنقود لهذه العربدة؟ وكيف سيحافظ على يقظته لخدمة عمله؟ وهل تريدين أيضًا أن أصف لك مغامراته في المدينة؟ أنا من جهتي سأسرع ما أمكنني للتخلص من هذا الفتى. وأرجوكِ أن تعتبري هذا نذيرًا لتوخي الحذر تجاه الفتيان الذين لا أصل لهم ولا فصل».

«ولكن يا كبير الندل»، قال كارل شاعرًا عمليًا بالارتياح، للخطأ الفادح الذي وقع هنا، على ما بدا، والذي قد يؤدي بأهون السبل إلى تحسين وضعه على نحو غير متوقع، «هناك بالتأكيد خلط قد وقع هنا. أعتقد أن كبير البوابين قد أخبرك أني أخرج كل ليلة. لكن هذا غير صحيح بالمرة، لأني بالأحرى أتواجد كل ليلة في صالة النوم، ويمكن لجميع الفتيان أن يشهدوا بذلك. وعندما لا أنام، أدرس المراسلات التجارية، لكني لم أتحرك في أية ليلة من صالة النوم. ومن السهل البرهنة على ذلك. إن كبير البوابين يخلط بوضوح بيني وبين شخص آخر، والآن فهمت أيضًا سبب ظنه بأني لا أحبيه».

«اسكت فورًا»، صرخ كبير البوابين ولوّح بقبضته بدلًا من أصبعه، كما قد يفعل آخرون عند تحذيرهم شخصًا ما، «أنا أخلط بينك وبين شخص آخر! هذا يعني أني لا يمكن أن أكون كبير بوابين بعد الآن، إذا كنت أخلط بين الناس. أتسمع يا سيد إيسباري، عندئذ لا يسعني أن أكون كبير بوابين، إذا كنت أخلط بين الناس. ولكن خلال ثلاثين سنة من خدمتي لم أقع بأي حالة خلط، وهذا ما يمكن أن يشهد عليه مئات من كبار الندل الذين عملوا هنا منذ ذلك الوقت. ولكن في حالتك أنت أيها الفتى التعس بدأتُ بالخلط بين الناس! في حالتك بسحنتك الممسوحة بشكل لافت. ما الذي يدعو للخلط في حالتك! كان بوسعك في كل ليلة أن تركض إلى المدينة من وراء ظهري، لكني أؤكد وفق سحنتك فقط أنك صعلوك خبيث».

«دعك منه، فيودور!» قال كبير الندل، الذي يبدو أن مكالمته الهاتفية قد انقطعت فجأة، «المسألة في غاية البساطة. نحن لا تهمنا في المقام الأول عربدته في الليل، ولكن هو قد يتسبب قبل مغادرته في تحقيقٍ موسع بشأن نشاطه الليلي، وأتصور منذ الآن أن هذا سوف يعجبه. سيعني هذا استدعاء فتيان المصاعد الأربعين وأخذ إفاداتهم كشهود، وهم جميعهم طبعًا سيكونون قد خلطوا بينه وبين شخص آخر، ولذلك سنضطر إلى استدعاء تدريجي لطاقم خدمة الفندق كله للشهادة، وهذا يعني أن عمل الفندق سيتوقف لفترة طبعًا، ولن يكون قد طُرد نهائيًا، قبل أن يكون على الأقل قد تسلى على حسابنا. إذن، من الأفضل ألا نخوض في هذا. وكبيرة الطباخين، هذه السيدة الطيبة، سلبها عقلها كفاية، ولابد لهذا من أن يتوقف. لا أريد أن أسمع أي شيء آخر؛ أنت مفصول من العمل فورًا بسبب التغيب عن الخدمة. سأعطيك الآن تحويلًا إلى الصندوق كي يدفعوا لك راتبك حتى اليوم. وهذا يعتبر بالمناسبة –والكلام بيننا- هدية بكل بساطة نظرًا لسلوكك، وأنا أفعل ذلك إكرامًا للسيدة كبيرة الطباخين وحسب.

جاءت مكالمة هاتفية أعاقت كبير الندل عن توقيع التحويل فورًا.

«فتيان المصاعد يسببون لي الكثير من المشاكل اليوم!»، قال كبير الندل عقب سماعه الكلمات الأولى، وأضاف «هذا فظيع!»، صاح بعد برهة، ثم أبعد السماعة قليلًا والتفت إلى

كبير البوابين قائلًا: «فيودور، أرجو أن تمسك هذا الفتى لفترة، فما يزال علينا أن نستجوبه». ثم أعطى أمره لمحدثه على الهاتف: «اصعد إليّ فورًا».

الآن صار بوسع كبير البوابين أن يفشّ خلقه على الأقل، الأمر الذي لم يفلح فيه بالكلام. فأمسك كارل من أعلى ذراعه، ليس بقبضة ثابتة كان من الممكن تحمّلها في نهاية الأمر، بل أخذ يرخي القبضة أحيانًا ليعاود تشديدها تدريجيًا بقوة أكبر، بدت غير قابلة للنفاد، بالنظر إلى قواه الجسدية، ما سبب غشاوة أمام عيني كارل. لكنه لم يكتف بمسك كارل، بل وكأنه تلقى أمرًا بأن يمطّه في الوقت نفسه، فأخذ بين الحين والآخر يرفعه ويهزه، قائلًا أثناء ذلك لكبير الندل بصيغة التساؤل: «هل سأخلط الآن يا ترى بينه وبين سواه، هل سأخلط الآن يا ترى بينه وبين سواه!».

شعر كارل بشيء من الخلاص عندما دخل إلى المكتب عريفُ فتيان المصاعد، بيسْ -وهو فتى سمين لا يتوقف عن الزمجرة– فلفت إليه انتباه كبير البوابين. وكان كارل على درجة من الإنهاك، كاد معها ومن الدهشة ألا يلقي التحية على تيريزة، التي رآها تنسل داخلة وراء بيس، شديدة الشحوب، بثياب غير مرتبة وشعر منكوش وغير مضموم. وبلحظة صارت عنده وهمست سائلة: «هل عرفت كبيرة الطباخين؟».

«كبير النُدل أخبرها هاتفيًا»، أجابها كارل.

«إذن الأمر بخير، إذن الأمر بخير»، قالت بسرعة وقد التمعت عيناها.

«لا، أنتِ لا تعرفين ما يتهمونني به. يجب أن أغادر، حتى كبيرة الطباخين اقتنعت بما لديهم. أرجوك، لا تبقي هنا، اصعدي، سآتي أنا من ثم لأودعك».

«ولكن يا روسمن، ما هذه الأفكار التي تخطر في بالك، سوف تبقى معنا هنا بقدر ما يحلو لك. كبير الندل يفعل كل ما تريده كبيرة الطباخين، إنه يحبها، عرفتُ ذلك مؤخرًا، فاطمئن».

«أرجوكِ يا تيريزه، انصرفي الآن. لن أستطيع الدفاع عن نفسي جيدًا، ما دمتِ هنا. ويجب أن أدافع عن نفسي بكل دقة، لأن هناك أكاذيب ستوجه ضدي. وكلما انتبهتُ بصورة أفضل وتمكنت من الدفاع عن نفسي، يزيد الأمل في بقائي. إذن تيريزه –» ومع هجمة ألم مفاجئ لم يستطع للأسف إلا أن يضيف هامسًا «لو أن كبير البوابين هذا يرفع قبضته عني فقط! لم أكن أعرف أنه عدوي. وهذه الطريقة التي يضغط بها عليّ ويشدني باستمرار!».

وفي الوقت نفسه فكر كارل: «ولكن لماذا أشكو هكذا! لا يمكن لامرأة أن تسمع هذا وتبقى هادئة»، وفعلًا استدارت تيريزه، قبل أن يتمكن بيده الحرة من إيقافها، نحو كبير البوابين قائلة:

«يا سيدي كبير البوابين أرجوك، هلا أفلتَّ روسمن من قبضتك فورًا، إنك تؤلمه جدًا. السيدة كبيرة الطباخين ستصل بنفسها بعد لحظات، وعندها سنرى أنكم تظلمونه في كل شيء. أفلته؛ كيف يمكن لك أن تستمتع في تعذيبه!» حتى أنها أمسكت يد كبير البوابين.

«إنها الأوامر يا آنستي الصغيرة، الأوامر»، قال البواب وسحب بيده الحرة تيريزة إليه بلطف، فيما بذل جهده في الضغط بيده الأخرى، وكأنه لا يريد أن يؤلم كارل فحسب، وإنما كأنه يريد بهذه الذراع التي في قبضته أن يحقق هدفًا خاصًا، مازال بعيدًا عنه.

احتاجت تيريزه إلى بعض الوقت حتى خلّصت نفسها من ضمة كبير البوابين، وأرادت من فورها أن تدافع عن كارل لدى كبير الندل، الذي مازال يصغي إلى حديث بيس المسهب، عندما دخلت كبيرة الطباخين بخطوات سريعة. «الشكر لك يا رب!» هتفت تيريزه، وطوال لحظة لم يسمع المرء في المكتب سوى هذه الكلمات العالية.

نهض كبير الندل واقفًا فورًا، أزاح بيس جانبًا وقال: «جئتِ بنفسك إذن يا سيدتي؟ بسبب هذه المسألة البسيطة؟ بعد حديثنا الهاتفي كان بوسعي أن أتوقع هذا، لكنني في واقع الأمر لم أصدق حدوثه. ومع العلم بأن مسألة محظيكِ تزداد رداءة، أخشى أني لن أسرحه فعليًا، لكني يجب أن أعمل على سجنه. اسمعي بنفسك». وأشار إلى بيس كي يتقدم.

«أود قبل ذلك أن أتحدث قليلًا مع روسمن»، قالت كبيرة الطباخين وجلست على كرسي بناء على إصرار كبير الندل، وأردفت «كارل، اقترب مني رجاء». أطاع كارل أو بالأحرى جرّه كبير البوابين جرًا، فقالت بغضب: «ارفع يدك عنه، فهو ليس لصًا قاتلًا!» فتركه كبير البوابين فعلًا، لكنه قبل ذلك ضغط مرة أخرى بشدة فائقة، إلى درجة أن سالت دموعه هو من الجهد.

«كارل»، قالت كبيرة الطباخين ووضعت يديها بهدوء في حِجرها ونظرت إليه مميلةً رأسها قليلًا –لم يبدُ الأمر كاستجواب أبدًا-، «قبل كل شيء أريد أن أقول لك إني مازلت أثق بك كل الثقة. والسيد كبير الندل رجل منصف، أنا أكفل ذلك. كلانا نرغب في الواقع بالاحتفاظ بك هنا» –والتفتت أثناء ذلك بشكل عابر نحو كبير الندل، كأنها ترجوه ألا يقاطع كلامها. ولم يفعل-، «إذًا انسَ ما يمكن أن يكون قد قيل لك هنا. وبالدرجة الأولى، فإن ما قاله لك كبير البوابين، عليك ألا توليه كبير أهمية. صحيح أنه رجل منفعل، وهذا ليس مستغربًا بالنظر إلى طبيعة عمله، ولكن لديه زوجة وأطفال ويعرف أنه لا يجوز الإثقال بلا داع على شاب يعتمد على نفسه كليًا، إذ يكفيه ما يعانيه من بقية الدنيا».

ساد الغرفة صمت تام. نظر كبير البوابين إلى كبير الندل مطالبًا إياه بإيضاحات، فيما نظر الأخير إلى كبيرة الطباخين وهو يهز برأسه، وخلفه كان فتى المصعد بيس يبتسم بشماتة بلهاء تمامًا، في حين كانت تيريزه تبكي بينها وبين نفسها فرحًا وحزنًا معًا، محاولة كل جهدها كيلا يسمعها أحد.

أما كارل فقد نظر إلى الأرض أمامه، رغم أن هذا قد يُفهَم كدلالة سيئة، وليس إلى كبيرة الطباخين، التي كانت بالتأكيد تطالب بنظراته. في ذراعه كان الألم يختلج في جميع الاتجاهات، وكان قميصه ملتصقًا بمكان الكدمات، وكان حريًا به في تلك الحالة أن يخلع جاكيته ويتفحص الموضع. إن ما قالته كبيرة الطباخين كان ينم عن ودٍ كبير طبعًا، ولكن لسوء الحظ بدا لكارل أن الطريقة التي تصرفت بها، كان لابد وأن تُبدي للعيان أنه لا

يستحق أي ودٍ، وأنه قد تمتع بأفضال السيدة طوال شهرين عن غير جدارة، بل إنه لا يستحق في الواقع سوى الوقوع في قبضة كبير البوابين.

«أقول هذا»، تابعت كبيرة الطباخين «كي تجاوب الآن بوضوح حازم، وهو ما كنتَ ستفعله على الأرجح في كل الأحوال، حسبما أعتقد أني أعرفك».

«في أثناء ذلك، هل لي أن أستدعي الطبيب، فذاك الرجل قد يموت نزفًا»، تدخل بيس فجأة بكل تهذيب ولكن بتأثير مزعج جدًا.

«اذهب»، قال كبير الندل لبيس، الذي أسرع مغادرًا، ثم التفت إلى كبيرة الطباخين قائلًا: «المسألة هي كالتالي، لم يكن كبير البوابين قابضًا على الفتى ليتسلى. فتحت في صالة نوم فتيان المصاعد تم العثور على رجل سكران، غريب كليًا ومغطى بعناية. أيقظوه طبعًا وأرادوا أن يخرجوه، فبدأ الرجل يضوج بصخب ويصيح مكررًا إن الصالة ملك كارل روسمن، وهو ضيفه. إن روسمن قد أدخله وسوف يعاقب كل من يجرؤ على مسه بأذى. ثم إن عليه انتظار روسمن لأنه وعده بإعطائه نقودًا ذهب كي يحضرها. انتبهي رجاء يا سيدتي: وعده بنقود وذهب ليحضرها. وأنت أيضًا يا روسمن، عليك بالانتباه»، قال كبير الندل جانبيًا لكارل، الذي التفت إلى تيريزه، التي كانت تحدق في كبير الندل كالمأخوذة وهي تبعِد مرارًا وتكرارًا خصلة شعر عن جبينها، أو تقوم بهذه الحركة بشكل ألي وحسب. «وربما عليَّ بتذكيرك ببعض التزاماتك. فالرجل تحت قال أيضًا، أنكما بعد عودتك إليه ستقومان بزيارة ليلية لمغنية ما، لم يفهم أحد من الفتيان اسمها، لأن الرجل كان يلفظه دائمًا وهو يغني».

هنا قطع كبير الندل حديثه، لأن كبيرة الطباخين التي شحب وجهها بوضوح، نهضت عن الكرسي ودفعته قليلًا إلى الوراء.

«سأعفيكِ من بقية الحديث»، قال كبير الندل.

«لا، رجاء، لا»، قالت كبيرة الطباخين وأمسكت يده، «تابع كلامك، أريد أن أسمع كل شيء، فلهذا جئت إلى هنا».

وكبير البوابين الذي تقدم وهو يدق على صدره بقوة للدلالة على أنه منذ البداية قد كشف كل شيء، أسكته كبير الندل بقوله: «نعم، أنت محق تمامًا يا فيودورا» وهدّأه وأعاده في الوقت نفسه إلى مكانه.

«لم يبق الكثير ليقال»، قال لكبيرة الطباخين، «والفتيان كعادتهم سخروا من الرجل بادئ الأمر، ثم تشاجروا معه، ومع وجود ملاكمين جيدين دائمًا بين الفتيان، فقد عفسوه ببساطة؛ وأنا لم أجرؤ أبدًا على أن أسأل عن عدد المواضع التي ينزف منها، فهؤلاء الفتيان ملاكمون مخيفون، والسكران يسهِّل الأمر عليهم طبعًا!».

«هكذا إذن»، قالت كبيرة الطباخين، استندت على مسند الكرسي ونظرت إلى الموضع الذي تركته لتوها، ثم قالت: «قل كلمة رجاء يا روسمن!» كانت تيريزه قد تحركت من مكانها، حيث كانت واقفة، وهرعت إلى كبيرة الطباخين وتأبطت ذراعها، ولم يسبق لكارل أن رآها تفعل ذلك أبدًا. كان كبير الندل واقفًا وراء كبيرة الطباخين تمامًا، وهو يملس ببطء جزءًا من ياقة ردائها المزينة بالدانتيلا، الذي تكَّور قليلًا. فقال كبير البوابين الواقف بجانب كارل: «هل ستنطق؟» مرفقًا ذلك بلكزة وجهها إلى ظهر كارل.

«هذا صحيح»، قال كارل، وبسبب اللكزة بثقة أقل مما أراد، «أني أدخلت الرجل إلى صالة النوم».

«أكثر من هذا لا نريد أن نعرف»، قال البواب باسم الجميع. التفتت كبيرة الطباخين ساكتة إلى كبير الندل ثم إلى تيريزه.

«لم أجد لنفسي حلًا غير هذا»، تابع كارل، «الرجل كان زميلي سابقًا. بعد غياب شهرين لم أره خلالهما، جاء إلى هنا ليزورني، لكنه كان سكرانًا جدًا، بحيث لم يعد قادرًا على المغادرة

لوحده».

فعلق كبير الندل بينه وبين نفسه بصوت شبه خافت من مكانه قرب كبيرة الطباخين: «جاء إذن للزيارة وبعد ذلك سكِر جدًا، بحيث لم يستطع المغادرة. –همست كبيرة الطباخين من فوق كتفها بشيء ما لكبير الندل، الذي ظهرت على وجهه ابتسامة لا تمت بصلة إلى هذا الموضوع، والذي كان على ما بدا على وشك تقديم اعتراضات. –أما تيريزة، التي لم ينظر كارل إلى غيرها، فقد ضغطت وجهها بعجز تام على كبيرة الطباخين ولم تعد تريد أن ترى شيئًا. والوحيد الذي كان راضيًا كليًا على توضيح كارل كان كبير البوابين، الذي كرر عدة مرات قائلًا: «إنك تُحسن عملًا بمساعدة أخيك في الشرب»، مع محاولة تثبيت هذه القول في نفس كل من الموجودين عن طريق نظراته وحركات يديه.

«إذن، أنا مذنب»، قال كارل وصمت برهة، كمن ينتظر من قضاته كلمة مجاملة، يمكن أن تشجعه على متابعة الدفاع، لكنها لم تأتِ، «أنا مذنب فقط بإدخالي الرجل إلى صالة النوم، واسمه روبنسن وهو إيرلندي. أما كل ما تفوّه به فقد قاله نتيجة السكر وهو غير صحيح».

«أنت إذًا لم تعده بأن تعطيه نقودًا؟» سأله كبير الندل.

«بل وعدته»، قال كارل، وأسِف لنسيانه ذلك، فهو نتيجة تهور أو شرود قد وصف نفسه بالبراءة في تعبيرات بالغة التحديد، «وعدته بإعطائه نقودًا، لأنه رجاني ذلك. لكني لم أكن أريد إحضارها له، بل أن أعطيه الإكراميات التي حصلت عليها هذه الليلة». ولإثبات هذا أخرج من جيبه النقود وأراهم على كفه المبسوطة قطع الفراطة القليلة.

«أنت تزداد تخبطًا»، قال كبير الندل، «إذا كان على المرء أن يصدقك، فعليه أن ينسى دائمًا ما سبق أن قلتَه. إذن، قلتَ في البداية إنك أدخلت الرجل –إني لا أصدقك حتى في اسم روبنسن، فمنذ وجود إيرلندا لم يوجد فيها إيرلندي باسم روبنسن-، إذن، في البداية قمتَ فقط بإدخال الرجل إلى صالة النوم، وهذا وحده كان كافيًا لأن تصير أنت برميةٍ واحدة خارج الفندق. وفي البداية لم تعده بنقود، ولكن من ثم عندما يسألك المرء فجأة، تقر بأنك

وعدته بالنقود. لكننا لا نقوم هنا بلعبة سؤال وجواب، وإنما نريد أن نسمع تبريرك. في البداية قلت إنك لم تذهب لإحضار النقود بل أنك ستعطيه إكراميات اليوم، ومن ثم نتبين أن هذه النقود مازالت في حوزتك، فمن الجلي إذًا أنك أردت إحضار غيرها، وهذا ما يفسر غيابك الطويل. وفي نهاية الأمر ليس ثمة ما يُستغرَب لو أنك أردتَ إحضار النقود له من حقيبتك؛ لكن ما يُستغرب هو نكرانك الشديد لذلك، تمامًا مثل تكتمك المستمر على أنك قد أسكرتَ الرجل هنا في الفندق، الأمر الذي لا يطاله أي شك، لأنك قد اعترفت بنفسك أنه جاء لوحده لكنه لم يستطع المغادرة لوحده، وهو نفسه قد صاح في صالة النوم إنه ضيفك. يبقى إذًا أمران موضع تساؤل، يمكنك الإجابة عليهما بنفسك، إذا ابتغيت تبسيط المسألة، أو من الممكن أخيرًا التوصل إلى الإجابة عليهما دون مساعدتك: أولهما، كيف تمكنت من الدخول إلى غرف المؤونة، وثانيهما، كيف جمعت مالًا قابلًا للإهداء؟».

«يستحيل الدفاع عن النفس، إنْ لم تتوفر النية الحسنة»، قال كارل لنفسه وامتنع عن تقديم إجابة لكبير الندل، مهما كانت تيريزه على الأرجح ستعاني من ذلك، كان يعرف أن كل ما بإمكانه قوله، سيتم تأويله على نحو آخر، مغاير لما كان مقصودًا به، ويبقى الأمر متعلقًا بأسلوب تقييمه للعثور إما على الخير أو الشر.

«إنه لا يجيب»، قالت كبيرة الطباخين.

«هذا أعقل ما في مقدوره أن يفعله»، قال كبير الندل.

«سيفكر بشيء ما»، قال كبير البوابين وملَّس برقة على شاربه باليد نفسها التي كانت قبل قليل مليئة بالقسوة.

«كفى»، قالت كبيرة الطباخين لتيريزه، التي أخذت تنتحب إلى جانبها، «أنت ترين أنه لا يحير جوابًا، فكيف يمكنني أن أفعل شيئًا من أجله؟ وفي نهاية المطاف سأبقى أنا المخطئة أمام السيد كبير الندل. قولي أنت تيريزه، برأيك، هل قصَّرتُ أنا في حقه؟» كيف لتيريزه أن

تعرف ذلك، وما فائدة أن كبيرة الطباخين عن طريق السؤال والرجاء الموجهين علنًا إلى هذه الفتاة الصغيرة أمام هذين الرجلين، تُحمِّل نفسها الكثير ربما؟

«سيدتي كبيرة الطباخين»، قال كارل الذي جمع قواه ثانية، ولكن فقط ليُجنِّب تيريزه الجواب، وليس لأي غرض آخر، «لا أعتقد بأنني قد ألحقت بكِ عارًا بطريقة ما، وبعد تحقيق دقيق لابد لكل شخص آخر من أن يرى هذا».

«كل شخص آخر»، قال كبير البوابين مشيرًا بأصبعه إلى كبير الندل «هذه إشارة مواربة إليك يا سيد إيسباري».

«والآن يا سيدتي»، قال كبير الندل «الساعة تشير إلى السادسة والنصف، وقد حان وقت العمل. أعتقد أنه يُفضَّل أن تتركي لي الكلمة الأخيرة في هذه المسألة، التي تناولناها بكثير من الصبر».

دخل جياكومو الصغير إلى المكتب وأراد التوجه إلى كارل، لكن السكون المهيمن أفزعه فتوقف منتظرًا. وكانت كبيرة الطباخين لا تزال تنظر إلى كارل منذ كلماته الأخيرة ولم تحد عينيها عنه، ولم يبدُ عليها ما يشير إلى أنها قد سمعت ملاحظة كبير الندل الأخيرة. كانت عيناها تحدقان في كارل، كانتا كبيرتين وزرقاوين وكابيتين قليلًا بحكم السن والعناء الكثير. ومن وقفتها هناك وهي تهز الكرسي أمامها بحركة ضعيفة، كاد المرء يتوقع في اللحظات التالية أن يسمعها تقول:

«حسنًا يا كارل، المسألة إذا فكرتُ فيها، أرى أنها لم تتضح جيدًا بعد، وهي تحتاج حسب قولك الصائب إلى تحقيق دقيق. وهذا ما نريد أن نجريه الآن، سواء وافق الآخرون على ذلك أم لا، لأن العدالة يجب أن تأخذ مجراها».

عوضًا عن ذلك قالت كبيرة الطباخين بعد برهة قصيرة، لم يجرؤ أحد على قطعها –لكن الساعة دقت تأكيدًا لكلمات كبير الندل معلنة السادسة والنصف، ومعها في الوقت نفسه كما

يعرف الكل، جميع ساعات الفندق. كان وقعها في الأذن وفي الحدس، مثل نفادِ صبرٍ هائل يرج مرتين-: «لا، كارل، لا، لا! لا نريد أن نقنع أنفسنا بذلك. القضايا العادلة لها مظهر خاص أيضًا، وقضيتك، عليَّ أن أقر بذلك، ليس لها هذا المظهر. يجوز لي أن أقول هذا ويجب عليّ أن أعترف به، فأنا التي جاءت إلى هنا مزودة بأفضل حكم مسبق لصالحك. وأنت ترى أن تيريزه أيضًا صامتة». (لكنها لم تكن صامتة بل كانت تبكي).

توقفت كبيرة الطباخين عن الكلام، كمن اتخذ قرارًا مفاجئًا ثم قالت: «كارل، تعال إليّ»، وعندما وصل إليها –اتحد وراء ظهره فورًا كل من كبير الندل وكبير البوابين في حديث نشِط-، حضنته بيدها اليسرى ومشت معه ومع تيريزة المسلوبة الإرادة إلى عمق الغرفة، حيث أخذت تسير جيئة وذهاباً معهما وهي تقول: «هذا ممكن يا كارل، ويبدو أنك تثق به، وإلا لما كنتُ سأفهمك إطلاقًا، أي أن التحقيق سينصفك في أمور صغيرة مفردة. ولماذا لا؟ يُحتمل جدًا أنك كنت فعلًا تحيي كبير البوابين. بل إني أصدق ذلك بالتأكيد، كما أني على بينة من أمر كبير البوابين ورأيي به واضح، أنت ترى أني أتكلم معك الآن بصراحة. لكن هذه التبريرات الصغيرة لا تفيدك شيئًا. إن كبير الندل الذي تعلمت عبر سنوات طوال تقديرَ خبرته بالناس، والذي أعتبره من أكثر الناس أمانة بين من أعرفهم، قد أعلن إدانتك بوضوح، وهي تبدو لي بالتأكيد غير قابلة للطعن فيها. ربما تصرفتَ بتهور فحسب، ولكن قد لا تكون الشخصَ الذي ظننتك إياه. ومع ذلك»، وهنا قاطعت نفسها بنفسها وألقت نظرة عابرة إلى السيدين، «لا أستطيع أن أتراجع عن عادتي في النظر إليك على أنك في جوهرك فتى شريف».

«يا سيدتي! يا سيدتي!» ناداها كبير الندل الذي التقط نظرتها.

«إننا على وشك الانتهاء»، قالت كبيرة الطباخين وأخذت الآن تسرع في توجيه كلامها لكارل: «اسمع يا كارل، حسب تقديري للمسألة، أجد نفسي مسرورة، لأن كبير الندل لا يريد فتح تحقيق في المسألة، فلو أراد ذلك، لاضطررتُ لصالحك إلى الحيلولة دون ذلك. إذ لا يجوز لأحد أن يعرف ما المشروب الذي قدمته للرجل ولا كيف حصلت عليه، إضافة إلى

ذلك لا يمكن أن يكون الرجل أحد رفيقك القديمين، كما تزعم، لأنك افترقت عنهما آنذاك بشجار كبير، بحيث أنك لن تتكرم الآن على أحدهما بالمشروب. إذًا لا يمكن أن يكون إلا شخصًا تعرّفته فصاحبته ليلًا نتيجة طيشك في إحدى حانات المدينة. كيف أمكنك يا كارل أن تخفي عني كل هذه الأمور؟ إذا كنتَ لم تتحمل جو صالة النوم، وبدأت انطلاقًا من هذا السبب البريء بجولاتك الليلية، فلماذا لم تخبرني حتى بكلمة؟ أنت تعرف أني أردت أن أدبِّر لك غرفة خاصة بك، وأني لم أتوقف عن ذلك إلا بناء على رجائك. ويبدو الآن أنك فضلت صالة النوم لأنك تشعر بحرية أكبر فيها. وكان بوسعك أن تحفظ نقودك في خزنتي، وأن تُحضِر الإكراميات في نهاية كل أسبوع. بحق السماء يا فتى، من أين أتيت بالنقود لسهرات لهوك، ومن أين أردت أن تجلب النقود الآن لصديقك؟ هذه بعض الأمور طبعًا، التي الآن على الأقل، لا يجوز أن أذكرها أمام كبير الندل أبدًا، وإلا فسيكون لا مندوحة من إجراء تحقيق. وبناء على ذلك لابد لك من مغادرة الفندق بأسرع ما يمكنك. اذهب مباشرة إلى بنسيون بْرينَّر -أنت تعرفه، فقد كنتَ هناك عدة مرات برفقة تيريزه –سيقبلونك عندهم مجانًا بناء على هذه التوصية» -وأخرجت كبيرة الطباخين من بلوزتها قلمًا ذهبيًا كتبت به بضعة سطور على إحدى بطاقات عملها، دون أن تتوقف أثناء ذلك عن الكلام –«حقيبتك سأرسلها وراءك فورًا. تيريزه، أسرعي إلى حجرة حاجيات فتيان المصاعد واحزمي حقيبته!» (لكن تيريزة لم تتحرك من مكانها، بل أرادت، مثلما شاركت في معاناة الألم كله، أن تعايش الآن التحول الطيب لمسألة كارل بفضل طيبة كبيرة الطباخين).

فتح أحدهم الباب دون أن يُظهِر نفسه ثم أغلقه ثانية. لابد من أن المقصود من ذلك كان جياكومو الصغير، الذي تقدم الآن وقال: «روسمَن، لدي ما يجب أن أبلغك به».

«لحظة»، قالت كبيرة الطباخين، ودست البطاقة في جيب كارل الذي كان ينصت إليها برأس محني وأضافت «نقودك سأحفظها عندي مؤقتًا، أنت تعرف أنه يمكنك الوثوق بي. ابق اليوم في البنسيون وفكر بمسألتك. غدًا -اليوم لا وقت لدي، كما أني قد تأخرت كثيرًا الآن هنا– سآتي إلى برينر وسنرى ما يمكننا أن نفعله كخطوة تالية من أجلك. لن أتخلى عنك بأي حال، ليكن هذا بعلمك منذ اليوم. لا تقلق بشأن مستقبلك، بل بالأحرى بشأن الفترة

الأخيرة الماضية». وربتت على كتفه قليلًا ثم ذهبت إلى كبير الندل. رفع كارل رأسه وتابع بنظره المرأة الطويلة الضخمة القوام وهي تبتعد عنه بخطوات هادئة وحركة طليقة.

«ألستَ سعيدًا جدًا»، سألته تيريز، التي بقيت إلى جانبه «بأن كل الأمور قد انتهت على ما يرام؟».

«نعم، طبعًا»، أجابها كارل وابتسم لها، لكنه لم يعرف لماذا يُفترض به أن يكون سعيدًا بصرفه من العمل باعتباره لصًا. كانت عينا تيريزه تشعان بفرح صاف، وكأنه سيَّان بالنسبة إليها سواء اقترف كارل إثمًا أم لا، مادام المرء سيتركه ينجو، سواء مكللًا بعار أم بشرف. هكذا كان تحديدًا سلوك تيريزه، التي كانت بالغة الدقة فيما يتعلق بأمورها الخاصة، بحيث تُمضي أسابيع وهي تفكر وتمحص في معنى كلمة قالتها كبيرة الطباخين على نحو غامض نوعًا ما. فسألها عامدًا: «هل ستحزمين حقيبتي فورًا وترسلينها؟» ومن الدهشة البالغة لم يستطع إلا أن يهز برأسه، من سرعة تمثُلها للسؤال؛ وقناعتُها بأن ثمة في الحقيبة ما يجب إخفاؤه عن أعين الآخرين، جعلتها لا ترفع نظرها إليه ولا تمد يدها إليه، بل أن تهمس وحسب: «طبعًا يا كارل فورًا.. فورًا سأحزم الحقيبة». وأسرعت مغادرة.

والآن لم يعد بوسع جياكومو الصبر أكثر، ونتيجة انفعاله من طول الانتظار قال بصوت عال: «روسمَن، الرجل في الممر تحت يقاوم بعنف إخراجَه من الفندق. أرادوا نقله إلى المستشفى، لكنه رفض وزعم أنك لن تقبل أبدًا بأن يُدخَل إلى المستشفى. لابد من طلبُ سيارة أجرة وإرساله بها إلى بيته، وأنت ستدفع الأجرة، فهل تريد؟» فعلّق كبير الندل: «الرجل يثق بك». هز كارل كتفيه وعدَّ نقود الإكراميات في يد جياكومو وقال: «ليس معي أكثر». فسأله جياكومو وهو يخشخش بالنقود: «عليّ أن أسألك أيضًا إن كنتَ تريد الذهاب معه؟».

«لن يذهب معه»، قالت كبيرة الطباخين.

«إذن، يا روسمَن»، قال كبير الندل، دون أن ينتظر مغادرة جياكومو، «أنت مسرح فورًا».

هز كبير البوابين برأسه عدة مرات، وكأن هذه هي كلماته هو، لكن مَن نطقها هو كبير الندل.

«أسباب تسريحك لا يمكنني نطقها بصوت عال، وإلا سيتوجب عليّ أن أطلب سجنك».

نظر كبير البوابين بحزم يلفت النظر إلى كبيرة الطباخين، إذ أدرك، على ما بدا، أنها السبب في لين المعاملة المبالغ فيه هذا.

«اذهب الآن إلى بيس، بدِّل ثيابك، سلمه زيك الرسمي وغادر هذا الفندق فوراً، في التو واللحظة».

أغمضت كبيرة الطباخين عينيها بقصد تهدئة كارل، الذي فيما انحنى مودعًا، لاحظ بنظرة عابرة، كيف ضم كبير الندل يد كبيرة الطباخين وأخذ يداعبها. رافق كبير البوابين كارل بخطوات ثقيلة حتى الباب، الذي لم يدعه يغلقه وراءه، بل أبقاه بنفسه مفتوحًا، كي يتمكن من أن يصرخ في إثره: «خلال ربع دقيقة أريد أن أراك تمر أمامي من البوابة الرئيسية! انتبه لهذا!».

أسرع كارل بقدر ما أمكنه، ليتجنب المضايقة عند البوابة الرئيسية، لكن كل شيء سار أبطأ بكثير مما أراد. لم يستطع العثور على بيس فورًا، ففي وقت الفطور تكون كل الأماكن مزدحمة بالناس، ثم تبين كذلك أن أحد الفتيان قد استعار بنطال كارل، الذي اضطر إلى تفتيش جميع مشاجب الثياب عند جميع الأسِرة تقريبًا، قبل أن يجد بنطاله، بحيث مضت خمس دقائق قبل أن يصل كارل إلى البوابة الرئيسية، وأمامه مباشرة كانت تمشي سيدة محاطة بأربعة رجال. كانوا جميعهم متوجهين نحو سيارة كبيرة كانت في انتظارهم وثمة خادم واقفٌ ممسكًا باب السيارة مفتوحًا، فيما مد ذراعه اليسرى الحرة جانبيًا بشكل أفقي ومتصلب، فبدا احتفاليًا جدًا. لكن كارل أمل دونما جدوى بأن يمر وراء هذه الجماعة الراقية إلى الخارج دون أن يلاحظه أحد. إنما أمسك به كبير البوابين من يده وسحبه إليه من بين رجلين معتذرًا منهما وقال لكارل:

«أيُفترض بأن ما مر كان ربع دقيقة!»، وهو ينظر إليه جانبيًا كمن ينظر إلى ساعة غير منتظمة السير، «تعال إلى هنا»، وساق كارل إلى مقصورة البوابين الكبيرة، التي كان كارل منذ وقت طويل يأمل بأن يلقي عليها نظرة، لكنه دخلها الآن مرتابًا ومدفوعًا بيد كبير البوابين. كان عند بابها عندما استدار محاولًا الفرار بدفع كبير البوابين جانبًا. لكن هذا الأخير قال له: «لا، لا، من هنا الدخول»، وفتل كارل بعكس اتجاه الخروج.

«لكن تسريحي قد تم»، قال كارل قاصدًا بذلك إنه لم يعد يحق لأحد من طاقم الفندق أن يوجه إليه أية أوامر.

«ما دمتُ ممسكًا بك فأنت لست مسرحًا»، قال البواب، وكلامه هذا كان صحيحًا أيضًا.

وفي نهاية الأمر لم يجد كارل سببًا لمقاومة البواب. فما الذي يمكن أساساً أن يحصل له بعد؟ ثم إن جدران مقصورة البواب مصنوعة دون استثناء من ألواح زجاجية ضخمة، تمكّن الجالس وراءها من رؤية المجموعة البشرية المتحركة بكل الاتجاهات في بهو الفندق بكل وضوح، وكأنه متواجد بينها. نعم، كما بدا أنه لا يوجد أي ركن داخل المقصورة، يمكن للمرء أن يختفي فيه عن عيون الناس. ومهما بدا أن الناس في البهو على عجلة من أمرهم، إذ يشق الواحد منهم طريقه بذراع ممدودة ورأس محني وعينين مستطلعتين ورافعًا متاعه عاليًا، لكنه لا يفوِّت فرصةَ إلقاء نظرة إلى مقصورة البواب، فوراء ألواحها الزجاجية كانت تعلق دائمًا إعلانات وأخبار ذات أهمية للنزلاء ولطاقم العاملين في الفندق أيضًا. ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك التواصل المباشر بين البهو والمقصورة، فوراء نافذتين يُفتَح زجاجهما بالسحب جانبيًا، كان يجلس عاملا استعلامات تابعان لكبير البوابين، منشغلين بلا انقطاع بتقديم معلومات في مختلف الشؤون. وهذان كانا حقًا من المثقلين بالعمل، إلى حد كاد يدفع كارل إلى الزعم بأن كبير البوابين، حسبما عرفه، قد تجنب هذه الوظيفة في مسيرته المهنية. كان أمام كلٍ من عاملي الاستعلامات هذين –من البهو يصعب على المرء تخيل ذلك– في فتحة نافذته على الأقل عشرة وجوه سائلة دائمًا. وبين هؤلاء السائلين المتبدلين باستمرار كانت تسود غالبًا فوضى تداخلِ لغات، وكأن كلًا منهم قادم من بلد

مختلف. بعضهم يسألون دائمًا في الوقت نفسه، وفوق ذلك يتكلم أفراد منهم دائمًا في فوضى متداخلة. معظمهم كانوا يريدون إما استلام شيء من المقصورة أو تسليم شيء، وهكذا كثيرًا ما كان يرى المرء في زحام المنتظرين قبضات مرفوعة تلوِّح بنفاد صبر. وذات مرة كانت لدى أحد السائلين رغبة مرتبطة بجريدة، انفتحت سهوًا من يده المرفوعة فغطت للحظة جميع الوجوه. وكل هذا كان على عاملي الاستعلامات تحمله دون توقف. الكلام وحده لم يكن كافيًا للقيام بمهمتهما، فكانا يلثَّان، لاسيما أحدهما وهو رجل عابس بلحية داكنة تحيط بكامل وجهه، كان يقدم المعلومات دون أدنى انقطاع. لم يكن ينظر إلى سطح طاولته حيث كان يحرك يده باستمرار مسلِّمًا أو مستلمًا غرضًا ما، ولا إلى وجه هذا السائل أو ذاك، بل محدقًا أمامه فقط، ومن الواضح أنه كان يوفر في طاقاته ويجمعها. ولحيته في كل الأحوال كانت تعيق إلى حد ما فهم كلامه. وكارل الذي وقف لحظة عنده لم يستوعب إلا قليلًا جدًا مما قاله، ربما بسبب اللكنة الإنجليزية وبسبب اللغات الأجنبية التي كان مضطرًا إلى استخدامها. يضاف إلى ذلك الحيرة المتولدة عن قصر معلومة ما واتصالها المباشر بالتالية وتداخلها معها، بحيث قد يبقى سائلٌ منصتًا بوجه مشدود لظنه أن الكلام مازال يتعلق بمسألته، وليلاحظ فقط بعد حين أن مسألته قد انتهت. وكان على المرء أن يعتاد على أن عامل الاستعلامات لا يرجو أبدًا إعادة السؤال، حتى ولو كان في مجمله مفهومًا، إنما يشوب بعض الغموض أسلوب الطرح، فتأتي من ثم هزة رأس طفيفة لتدل على ألا نيّة لديه للإجابة على هذا السؤال، وعندها يتوجب على طارح السؤال أن يدرك خطأه بنفسه فيعيد الصياغة بشكل صحيح. وبهذا تحديدًا كان يستهلك بعض الناس وقتًا طويلًا أمام شباك الاستعلامات. ولدعم عاملي الاستعلامات وضعت الإدارة تحت يد كل منهما ساعيًا من الفتيان، عليه أن يُحضر له بسرعة كبيرة كل ما يحتاج إليه لتوه من رف الكتب أو من صناديق مختلفة. وهذا العمل كان بالنسبة إلى الفتيان في الفندق هو الأعلى أجرًا والأكثر إرهاقاً في الوقت نفسه، وكان بمعنى ما أكثر إرهاقًا حتى من عمل عاملي الاستعلامات، الذين لا يُطلب منهم سوى التفكير والكلام، في حين أن على مساعديهم التفكير والركض في الوقت نفسه. فإنْ حدث وأحضر المساعد لعامل الاستعلامات غير المطلوب، فلن يتمكن العامل بسبب السرعة طبعًا من أن يتوقف ويمطره بموعظة طويلة،

بل يرمي بكل بساطة عن الطاولة إلى الأرض بدفعة سريعة إلى الوراء ما وضعه له المساعد. وما كان مثيرًا للانتباه هو عملية تبديل العاملين، التي جرت بعد دخول كارل بقليل. يُفترض طبعًا أن تجري هذه العملية عدة مرات، ولاسيما في أثناء النهار، إذ ليس هناك إنسان يحتمل الجلوس وراء النافذة المفتوحة أطول من ساعة. يُعلَن عن بدء العملية بقرع الجرس، وفي الوقت نفسه يدخل من باب جانبي العاملان الجديدان اللذان حل دورهما، يتبعهما مساعداهما. يقف العاملان مؤقتًا دون عمل عند النافذتين ويراقبان لبرهة السائلين في البهو، لكي يلتقطا اللحظة التي بلغتها عملية الإجابة الآن. وعندما تبدو لهما اللحظة مناسبة للتدخل يربتان على كتفي العاملين الجالسين، اللذين لم يهتما أبدًا بما كان يجري وراءهما، لكنهما أدركا معنى الربت على الكتف فأخليا مكانيهما فورًا. جرت العملية بسرعة بالغة، إلى درجة كانت كثيرًا ما تفاجئ السائلين، بحيث يرتدّون فزعًا من الوجه الجديد. أما الرجلان المنفكّان فيتمطيان ثم يصبان الماء على رأسيهما الساخنين فوق مغسلتين مجهزتين لذلك، في حين لا يحق لمساعديهما أن يتمطيا بعد، بل يبقيان منهمكين لبرهة في إعادة ما رُمي على الأرض أثناء ساعة دوامهما إلى أماكنه الصحيحة.

لقد استوعب كارل كل هذا خلال لحظات قليلة من الانتباه المتيقظ، وهو منساق بصمت لقيادة كبير البوابين شاعرًا بصداع خفيف. كان واضحًا أن كبير البوابين أيضًا قد لاحظ الانطباع العميق الذي ولدته نوعية عمل الاستعلامات في نفس كارل، إذ شد فجأة يد كارل قائلًا:

«أترى، هكذا يتم الشغل هنا».

إلا أن كارل لم يتكاسل هنا في الفندق، ولكن لم تكن لديه أدنى فكرة عن هذه النوعية من العمل، غير أنه متناسيًا كليًا تقريبًا أن كبير البوابين هو عدوه الأكبر، رفع نظره إليه وأومأ برأسه موافقًا بصمت. إلا أن هذه الحركة بدت لكبير البوابين بمثابة مبالغة في تقريظ عاملي الاستعلامات وربما كقلة أدب تجاهه شخصيًا، فأراد أن يسخر من كارل ويتلاعب به، فقال له بصوت عال غير مبال باحتمال أن يسمعه الآخرون:

«طبعًا، فهذا هو أكثر الأعمال غباء في الفندق كله؛ إذا أصغى المرء مدة ساعة، فسيعرف تقريباً كافة الأسئلة التي تُطرح، والبقية لا حاجة إلى الإجابة عليها. لو لم تكن وقحًا وقليل تهذيب وكاذبًا وشقيًا وسكيرًا ولصًا، لكان بوسعي ربما أن أوظفك على إحدى هاتين النافذتين، إذ لا أحتاج لهذا حصريًا إلا إلى رؤوس غبية».

تجاهل كارل كليًا الشتيمة باعتبارِه المقصود بها، إذ كان بالغ السخط على السخرية من العمل الشريف والصعب لعاملي الاستعلامات، وفوق ذلك من قِبل رجلٍ لو جرؤ على الجلوس وراء إحدى النافذتين، لاضطر في غضون دقيقتين إلى الانسحاب مرافقًا بضحك جميع السائلين.

«اتركني»، قال له كارل، فقد أشبع فضوله كفاية تجاه مقصورة كبير البوابين، وأضاف «لا أريد أن تكون بيني وبينك أية علاقة بعد».

«هذا لا يكفي للخلاص»، قال كبير البوابين وضغط ذراعي كارل، بحيث لم يعد يستطيع تحريكهما وحمله فعليًا إلى الجانب الآخر في المقصورة. ألا يرى الناس في البهو عنف كبير البوابين؟ وإن رأوا، فكيف تلقوه، حتى أن أحدًا منهم لم يعترض، أو على الأقل لم يقرع على لوح الزجاج ليُري كبير البوابين أنه مراقَب ولا يحق له التعامل مع كارل كيفما يشاء؟

لكن كارل سرعان ما فقد الأمل من تلقي مساعدة من بهو الفندق، فقد شد كبير البوابين حبلًا، فتحركت بسرعة كبيرة ستائر سوداء غطت نصف ألواح جدران المقصورة من أعلى نقطة. وفي هذا القسم من المقصورة أ يضًا كان هناك رجال، لكنهم منهمكين جميعهم بالعمل بحيث لا يرون ولا يسمعون ما لا يتعلق بعملهم مباشرة. يضاف إلى ذلك تبعيتهم الكاملة إلى كبير البوابين، ولهذا فإنهم يفضلون، بدلًا من مساعدة كارل، التستر على كل ما قد يخطر في بال كبير البوابين. فكان هناك مثلًا ستة عمال مقسَم هاتف على ستة هواتف. وكان النظام المتبع، حسبما يلاحَظ بسهولة، أنّ أحدهم فقط يتلقى المكالمات الواردة، في حين يقوم جاره، بعد استلامه الملاحظات من الأول، بتوزيع المهمات هاتفيًا. وكانت تلك من الأجهزة الحديثة، التي لا تحتاج إلى وضعها في أكشاك، فرنين الهاتف ليس أعلى من

صوت سقسقة، ويمكن للمرء أن يتكلم همسًا في السماعة، ومع ذلك تصل كلماته إلى هدفها بقوة ووضوح، بفضل مقويات كهربائية خاصة. ولهذا بالكاد سمع كارل المتكلمين الثلاثة على هواتفهم وكاد يظن أنهم يراقبون أثناء همسهم حدثًا يجري في سماعاتهم، في حين كان الثلاثة الآخرون، كالمخدرين من هدير الأصوات المتدفقة عليهم وغير المسموعة من سواهم، قد تركوا رؤوسهم تنحني فوق الورق الذي عليهم تدوين ملاحظاتهم عليه. وهنا أيضًا وقف إلى جانب كل من المتكلمين الثلاثة فتى لتقديم المساعدة؛ ولا يفعل هؤلاء الفتيان الثلاثة شيئًا آخر سوى أن يمد أحدهم، بالتناوب، رأسه مصغيًا إلى سيده المتكلم، وليلتفت من ثم بسرعة كالملدوغ إلى كتب صفراء هائلة الحجم للبحث فيها عن أرقام الهواتف المطلوبة، وكانت خشخشة تقليب الصفحات الصفراء الكثيرة تطغى على أية أصوات صادرة من الهواتف.

على الرغم من أن كبير البوابين قد جلس الآن وأبقى كارل مثبتًا أمامه بما يشبه التطويق، لم يستطع كارل منع نفسه عن متابعة عمل هؤلاء وبدقة.

«إنه واجبي»، قال كبير البوابين وهو يهز كارل، كمن لا يريد سوى أن يلتفت هذا بوجهه إليه، «أن أعوض باسم إدارة الفندق، القليل كحد أدنى مما فات كبير الندل لأسباب ما أن يقوم به. وهكذا يكمل كل منا الآخر هنا، ومن دون هذا التعاون ما كان لمشروع بضخامة هذا الفندق أن يقف على قدميه وينجح. قد تريد أن تقول إنني لست رئيسك المباشر؛ حسنًا، سيكون الأجمل من طرفي أن آخذ على عاتقي هذا الأمر الذي تم إهماله. وبالمناسبة أنا بمعنى ما، بصفتي كبير البوابين، أعلى مرتبة من جميع العاملين، مادامت جميع بوابات الفندق خاضعة لأوامري، أي هذه البوابة الرئيسية، مع البوابات المتوسطة الثلاث والبوابات العشر الجانبية، ناهيك عن ذكر ما لا يحصى من أبواب صغيرة ومخارج بلا أبواب. ومن الطبيعي أن يطيعني ولابد كل من ينتمي إلى طواقم الخدمات. ولقاء هذا الشرف العظيم، يتوجب عليَّ تجاه إدارة الفندق أن ألتزم بعدم السماح بالخروج لكل من تشوبه شائبة ريبة. وأنت تحديدًا تبدو لي، بل بناء على مزاجي، موضع ريبة كبيرة». ومن فرحه بذلك رفع يديه عاليًا وتركهما تهويان بقوة مثل صفعتين مؤلمتين. «وكان من الممكن»، أضاف وهو

يسلي نفسه بمتعة كبيرة «أن تغادر الفندق من مخرج آخر دون أن يلاحظك أحد، فأنت طبعًا لم تكن تهمني إلى حد أن أصدِر تعليمات خاصة بشأنك. ولكن ما دمتَ قد صرتَ هنا، فلسوف أستمتع بك. وبالمناسبة أنا لم يخامرني الشك في أنك ستتقيد بالموعد الذي حددناه لبعضنا عند البوابة الرئيسية، فهذا يُعد قاعدة، أن الوقح والعاصي يضع حدًا لآثامه في المكان والزمان اللذين يلحقان به الأذى. وسوف تختبر هذا بنفسك مرارًا بالتأكيد».

«لا تظن»، قال كارل وهو يتنفس الرائحة الغريبة الرطبة المنبعثة من كبير البوابين، والتي لم يلاحظها إلا هنا، حيث وقف وقتًا طويلًا بقربه، «لا تظن أني في قبضتك بصورة تامة، إذ يمكنني أن أصرخ».

«وأنا يمكنني أن أسد فمك»، قال كبير البوابين بهدوء وسرعة، مثلما كان يفكر بتنفيذ ذلك إنْ دعت الضرورة، «وهل تعتقد حقًا، على فرض أن دخل أحدهم إلى هنا بسببك، بأن هناك مَن سيعتبرك أنت محقًا ويعتبرني أنا كبير البوابين مخطئًا؟ إذن، أنت تدرك عبث آمالك. أتعرف، عندما كنتَ لا تزال مرتديًا البزة الرسمية، كنتَ فعلًا تبدو محترمًا قليلًا، أما في هذه البدلة، غير المحتملة الوجود حقًا إلا في أوروبا!» -وأخذ يشد من مواضع مختلفة البدلة التي كانت قبل خمسة شهور لا تزال جديدة تقريبًا، وبدت الآن مستخدمة ومجعدة، ومبقعة كثيرًا بسبب لامبالاة فتيان المصاعد تحديدًا، الذين كانوا يوميًا نتيجة كسلهم يرشون على الأرض نوعًا من الزيت لتنظيفها –بدلًا من المنظفات، تنفيذًا لأوامر إدارة الفندق للحفاظ على نظافتها وخالية من الغبار- فيرشون معها بشكل فاضح جميع ثياب الفتيان المعلقة على المشاجب. حسنًا، كان بوسع المرء حفظ ثيابه حيثما يريد، ولكن كان هناك دائمًا بين الفتيان مَن كانت ثيابه الآن بعيدة عن مطال يده، لكنه يعثر بكل سهولة على ثياب الآخرين المخبأة فيعيرها لنفسه. ويُحتمل أن أحدهم هذا كان هو المكلف في ذلك اليوم بتنظيف أرض صالة النوم، فلم يكتف برش البدلة بالزيت وحسب، بل سكب الزيت عليها من أعلاها إلى أسفلها. رينِل هو الوحيد الذي كان يخفي ثيابه الغالية في مخبأ سري ما، ولم يخرجها منه أيٌ من الفتيان، لاسيما أن لا أحدًا منهم كان يستعير ثياب الآخرين من منطلق الإيذاء أو البخل، بل كان يأخذها حيث يجدها، نتيجة العجلة والإهمال. ولكن حتى على بدلة رينل

وفي منتصف ظهرها كانت هناك بقعة زيت تميل إلى الحمرة. وفي المدينة كان بوسع العارف أن يكتشف فتى المصاعد من هذه البقعة وحتى في هذا الشاب الأنيق. ومع استعادة هذه الذكريات قال كارل في نفسه، إنه هو أيضًا قد عانى كفاية في عمله كفتى مصعد، وإن كل شيء كان فعليًا بلا جدوى، فخدمة المصاعد من منظور الآن لم تكن حسبما أمِل تمهيدًا للارتقاء درجة في العمل، بل أدت إلى تعميق ضغطه إلى الأسفل، بل اقترب جدًا من أن يُرمى في السجن. وفوق ذلك كله ها هو الآن معتقل بين يدي كبير البوابين، الذي يمعن التفكير في كيفية إلحاق المزيد من الخزي بكارل. غير أن كارل الذي غاب عن ذهنه كليًا، أن كبير البوابين ليس ذلك الرجل الممكن إقناعه بالكلام، قال بصوت عال وهو يضرب بكف يده الحرة الآن عدة مرات على جبينه:

«على فرض أني حقًا لم أحييك، كيف يمكن لرجل راشد، بسبب إهمال تحية، أن يميل إلى الانتقام بهذا الشكل!».

«أنا لست ميالًا للانتقام»، قال كبير البوابين «كل ما أريده هو تفتيش جيوبك. صحيح أني مقتنع بأني لن أعثر على شيء، فقد كنتَ حذرًا على ما يبدو، وتركت لصديقك أن ينقل كل شيء معه، شيئًا ما كل يوم، بعيدًا عن الفندق، ومع ذلك لابد من تفتيشك». ومد يده بعنف إلى جيب جاكيت كارل، ما أدى إلى فتق الخياطة الجانبية للجيب. «هنا لا يوجد شيء إذًا»، وأخرج بيده محتويات الجيب: تقويم دعائي للفندق، صفحة ورق مليئة بتمرين من كتاب المراسلات التجارية، بضعة أزرار للجاكيت والبنطال، بطاقة تعريف عمل رئيسة الطباخين، مبرد تشذيب أظافر، رماه له أحد الضيوف ذات يوم وهو يحزم حقيبته، مرآة جيب قديمة أهداه إياها رينِل لقاء النيابة عنه ربما عشر مرات، وغرضان آخران. «لا شيء هنا إذًا»، كرر كبير البوابين ورمى كل شيء تحت المقعد، وكأن من البديهي أن المكان الملائم لأغراض كارل غير المسروقة هو تحت المقعد.

«لقد طفح الكيل»، قال كارل في نفسه، ولابد أن وجهه كان يشتعل غضبًا. وعندما جعل الجشعُ كبيرَ البوابين فاقدًا الحذر وهو ينبش في جيب كارل الثاني، انتفض كارل دفعة

واحدة واقفًا، متخلصًا من كمي الجاكيت وصادمًا مع تأرجح قفزته أحد عمال المقسم بقوة على جهازه، وركض نحو الباب عبر الهواء الرطب بسرعة كانت أقل في الواقع مما أراد، ونجح رغم ذلك في الخروج قبل حتى أن يتمكن كبير البوابين من النهوض بمعطفه الثقيل. ويبدو أن نظام الحراسة لم يكن نموذجيًا حسبما زُعِم، صحيح أن بعض الأجراس قد رنت من بعض الجوانب، لكن الله وحده يعرف لأية أغراض! وصحيح أن عددًا كبيرًا من العاملين في الفندق كان يذرع المدخل جيئة وذهابًا، ما يدفع المرء إلى التفكير بأنهم يبغون بطريقة لا تثير الانتباه جعل الخروج مستحيلًا، إذ يصعب استنتاج معنى آخر لهذه التحركات؛ وعلى الرغم من ذلك وصل كارل إلى خارج الفندق. ولكن كان عليه أن يتابع المشي على رصيف الفندق، إذ كان من العسير الوصول إلى الطريق بسبب التدفق المتواصل للسيارات، التي كانت تتقدم ببطء عند المدخل الرئيسي. ولتصل هذه السيارات إلى أصحابها بأسرع ما يمكنها، كانت تكاد تتلاصق، كل واحدة منها تدفعها التي وراءها إلى الأمام قليلًا. والمشاة المتعجلون على نحو خاص للوصول إلى الطريق، كانوا يعبرون أحيانًا هنا وهناك من داخل السيارات، وكأن هناك معبرًا عامًا، غير مبالين نهائيًا ما إن كان في السيارة سائقها وخدم السادة فقط، أم أصحابها من علية القوم أيضًا. لكن هذا التصرف بدا لكارل مبالغًا به ولابد للمرء من أن يكون مطلعًا مسبقًا على الظروف ليجازف به. فكم من السهل أن يتورط المرء بالعبور من سيارة يستاء ركابها من سلوكه، فيرمونه خارجها متسببين في فضيحة، وهذا تحديدًا ما كان يخشاه كارل بصفته مستخدم فندق هارب ومشبوه ودونما جاكيت. وفي نهاية المطاف لابد لرتل السيارات هذا من نهاية، ثم إن كارل نفسه في الواقع يبقى أقل إثارة للارتياب مادام يمشي بحذاء الفندق. وفعلًا وصل كارل إلى موضع لم تنقطع فيه السيارات عن التدفق، ولكن بشكل أقل مع انعطافٍ باتجاه الطريق العام. كان على وشك أن يندمج في حركة مرور الطريق العام، حيث كان يمشي بحرية أناس يبدون أكثر إثارة للريبة منه بكثير، عندما سمع من الجوار أحدهم ينادي اسمه. استدار ليرى اثنين من فتيان المصاعد يعرفهما جيدًا، يسحبان بجهد كبير نقّالة من فتحة باب صغير تشبه مدخل مدفن عائلي، والشخص الذي كان مستلقيًا على النقالة وتعرّفه كارل الآن لم يكن سوى روبنسن والضماد يحيط بعدة مواضع من رأسه ووجهه وذراعيه. كم كان منظره كريهًا وهو يمسح

بضماد ذراعيه الدموع الغزيرة التي سكبها ألمًا أو من معاناة أخرى أو حتى فرحًا بلقاء كارل ثانية.

«روسمَن»، هتف معاتبًا «لماذا تركتني أنتظرك كل هذا الوقت! مضى عليّ ساعة وأنا أمانع نقلي إلى خارج الفندق قبل أن تعود. هذان الفتيان –وضرب أحد الفتيين على رأسه، وكأن الضمادات تحميه من تلقي ضربات الفتى– شيطانان حقيقيان. آخ يا روسمن، كم كانت زيارتك باهظة الثمن».

«ماذا فعل بك الفتيان؟» سأله كارل وهو يقترب من النقالة، التي وضعها الفتيان، ليريحا نفسيهما، على الأرض وهما يضحكان.

«أتسأل أيضًا»، قال روبنسن وزفر «وأنت ترى منظري. فكِّر بأنني قد ضُرِبت إلى حد سيجعلني ربما كسيحًا بقية حياتي. أعاني آلامًا فظيعة من هنا إلى هنا» –وأشار أولًا إلى رأسه ثم إلى أصابع قدميه– «أتمنى لو أنك رأيتني وأنا أنزف من أنفي. صدريتي تلوثت كلها، تلفت فتركتها هناك، بنطالي تمزق، أنا الآن بسروالي الداخلي» –ورفع الغطاء قليلًا ودعا كارل ليرى– «كيف سيكون حالي! سأكون طريح الفراش بضعة شهور كحد أدنى، وأريد أن أقول لك منذ الآن، ليس لدي سواك ليعتني بي، ديلامارش لا صبر له على هذا أبدًا. روسمن، يا عزيزي روسمن!» ومد روبنسن يده إلى كارل، كي يكسبه إلى جانبه بالتربيت على يده، لكن كارل تراجع قليلًا إلى الوراء.

«لماذا كان عليّ أن أزورك!» كرر روبنسن عدة مرات كيلا ينسى كارل أنه شريك في الذنب، في المصيبة التي نزلت به. – لكن كارل أدرك فورًا أن شكوى روبنسن ليست بسبب آلامه، وإنما من صداع السكْر الذي يعانيه الآن، لأنه لم ينم بعد سكره الشديد أمس، وأوقظ فجأة ولتعرضه للضرب، ولأنه لم يعد قادرًا على التصرف في عالم الصاحين. ومن عشوائية التضميد بخرق بالية كان واضحًا أن لا أهمية لجراحه، كما يبدو أن فتيان المصاعد قد لفوها حوله على سبيل المزاح. ثم إن الفتيين الواقفين عند طرفي النقالة كانا بين الحين والآخر ينفجران ضحكًا. حسنًا، لكن هذا المكان هنا ليس مناسبًا لإعادة روبنسن إلى وعيه،

فالمشاة هنا كانوا يعبرون بسرعة كبيرة غير آبهين بالمجموعة المحيطة بالنقالة، وحدث عدة مرات أن قفز بعضهم بليونة رياضية بادية من فوق روبنسن، وسائق سيارة الأجرة المدفوعة بنقود كارل كان يصيح: «تقدموا، هيا تقدموا!».

رفع الفتيان النقالة بآخر ما تبقى لديهما من طاقة، فيما أمسك روبنسن يد كارل وقال مداهنًا: «هيا تعال، هيا».

وبما أنه لم يعد آمنًا في المصعد كما كان، أفلن تكون عتمة سيارة الأجرة أكثر أمنًا الآن؟ وهكذا جلس كارل إلى جانب روبنسون الذي سند رأسه عليه. أما فتيا المصعد الباقيان على الرصيف فقد صافحا يد كارل بحرارة عبر نافذة السيارة باعتباره زميلهما السابق، وانعطفت السيارة بحدة إلى الطريق، وكأن حادثًا ما كان لابد أن يقع، لكن حركة المرور العامة سرعان ما استوعبت وبكل هدوء استقامة انطلاقة هذه السيارة أيضًا.

(٧) ملجأ

لابد أنه كان أحد الشوارع البعيدة في الضاحية، حيث توقفت سيارة الأجرة، إذ كان الهدوء يسود المنطقة، وعلى حافة الرصيف جلس أطفال يلعبون. ثمة رجل يحمل على كتفه كمية من الملابس المستعملة كان ينادي رافعًا نظره إلى نوافذ المساكن. شعر كارل بتعب مزعج عندما ترجل من السيارة ووطأت قدماه الأسفلت، الذي كانت شمس الضحى تسطع عليه بدفء.

«هل تسكن فعلًا هنا؟»، وجّه سؤاله إلى داخل السيارة.

وروبنسن الذي نام طوال السفرة بهدوء، همهم على نحو غير واضح بإجابة ما موافقًا، وبدا أنه كان ينتظر أن يخرجه كارل من السيارة حملًا، فقال له كارل: «فإذن، لم يعد لي ما أفعله هنا. ابق بخير»، وكان على وشك أن يمشي مغادرًا على الطريق المنحدر قليلًا.

«ولكن يا كارل، ما الذي يخطر في بالك؟»، صاح روبنسن واعتدل في وضعية جلوسه في السيارة، لكن ركبتيه المضطربتين لم تساعداه على الوقوف.

«يجب عليّ أن أمشي»، أجاب كارل وقد لاحظ تعافي روبنسون السريع.

«ستمشي بالقميص فقط؟»، سأله روبنسون.

«سأشتغل بثمن جاكيت آخر»، أجاب كارل، أومأ لروبنسن برأسه بثقة، رفع يده محييًا وكاد ينطلق فعلًا، لو لم يناده السائق:

«اصبر لحظة يا سيدي!».

وكان المزعج في الأمر حسبما تبين، هو أن السائق يطالب بمبلغ إضافي لقاء انتظاره أمام الفندق. وجاء تصديق ذلك من جانب روبنسن: «هذا صحيح، فقد كان عليّ أن أنتظرك هناك. وعليك أن تعوضه عنه».

«نعم، طبعًا»، قال السائق.

«نعم، لو تبقّى معي نقود»، قال كارل ومد يديه إلى جيبيه رغم معرفته بلا جدوى ذلك.

«لا يسعني إلا مطالبتك أنت»، قال السائق وفرشخ ساقيه، «هذا الرجل المريض لا يمكنني مطالبته بأي شيء».

تقدم من باب البناء صبي بأنف أفطس وتوقف على بُعد خطوات مصغيًا للكلام، وفي تلك اللحظة ظهر عبر الشارع شرطي يقوم بدوريته، حنى وجهه وثبت نظره على الواقف بالقميص وتوقف. وروبنسن الذي لاحظ الشرطي أيضًا تحامق وهتف باتجاهه من نافذة السيارة:

«لا مشكلة هنا، لا مشكلة!» وكأنما من الممكن إبعاد شرطي مثل ذبابة.

والأطفال الذين لاحظوا وجود الشرطي، لفت وقوفه أنظارهم إلى كارل والسائق فاقتربوا منهما بسرعة. في باب البناء المقابل وقفت امرأة عجوز تحدق في المشهد.

«روسمَن!»، نادى صوت من أعلى البناء. كان ذاك ديلامارش مناديًا من بلكون الطابق العلوي. لم تكن رؤيته واضحة على خلفية السماء الزرقاء الجانحة إلى البياض، وبدا مرتديًا مبذلة ويراقب الشارع بمنظار أوبرا. كان إلى جانبه مظلة شمس مفتوحة حمراء اللون، بدا أن امرأة تجلس تحتها.

«هالو!»، صاح بجهد واضح كي يجعل كلامه مفهومًا «هل روبنسن هنا أيضًا؟».

«نعم»، أجاب كارل مدعومًا بـ «نعم» ثانية أطلقها روبنسن من داخل السيارة بصوت أعلى بكثير.

«هالو!»، صاح ثانية «أنا قادم حالًا!».

انحنى روبنسن من السيارة وقال: «هذا رجل حقيقي»، وهذا المديح لديلامارش كان موجهًا إلى كارل والسائق والشرطي وإلى كل مَن كان يسمع. وعلى البلكون فوق، حيث كانت الأنظار لا تزال متجهة نتيجة الحيرة، رغم غياب ديلامارش، نهضت حقًا من تحت الشمسية امرأة قوية البنية في ثوب فضفاض أحمر، تناولت المنظار عن سور البلكون ونظرت عبره إلى الناس تحت، الذين لم يحيدوا بنظرهم عنها إلا بعد حين. بانتظار وصول ديلامارش التفت كارل إلى بوابة البناء وعبرها إلى الباحة الداخلية، التي كانت تعبرها باستمرار أعداد من أجراء المتاجر، كان كل واحد منهم يحمل على كتفه صندوقًا صغيرًا لكنه ثقيل جدًا. عاد السائق إلى سيارته ليستفيد من وقت الانتظار وبدأ يمسح زجاج مصابيحها بخرقة. وأخذ روبنسن يتحسس مواضع الألم في أطرافه، وبدا مندهشًا من قلتها، رغم دقته الشديدة في التحسس، ثم بدأ بحذر وبرأس شديد الانحناء يفك أحد الضمادات السميكة عن ساقه. أما الشرطي فأمسك عصاه السوداء القصيرة بشكل عرضاني أمامه وانتظر ساكن الحركة بصبر كبير، يجب على رجال الشرطة أن يتحلوا به، سواء أثناء الخدمة العادية أو في حالات التربص والمراقبة. جلس الصبي الأفطس الأنف على أحد أحجار البوابة مادًا ساقيه أمامه. واقترب الأطفال شيئًا فشيئًا وبخطوات قصيرة من كارل، لأنه رغم عدم اهتمامه بهم بدا لهم، ولاسيما بكمي قميصه الأزرق، الشخص الأكثر أهمية بين الجميع.

من طول الوقت الذي مر حتى وصول ديلامارش، كان بوسع المرء قياس الارتفاع الشاهق لهذا البناء. وديلامارش نزل مسرعًا جدًا وليس عليه من ثياب سوى مبذلة مشدودة الرباط على عجل.

«كلاكما هنا إذن!»، قال بفرح وحزم في الوقت نفسه. ومع خطواته الواسعة كانت تنكشف باستمرار، وللحظة مع كل خطوة، ثيابه الداخلية الملونة. لم يفهم كارل تمامًا، ما الذي يجعل ديلامارش هنا في المدينة، في عمارة شقق الإيجار الهائلة هذه وفي الشارع المكشوف، يتجول بهذا اللباس كما لو كان في ڤيلته الخاصة. لقد تغير ديلامارش جدًا، مثل روبنسن. كان وجهه الأسمر الحليق اللحية والنظيف للغاية والمشدود العضلات، يوحي بالاعتزاز والاحترام. وكان البريق الصارخ المنبعث الآن من عينيه المقطبتين قليلًا يفاجئ الناظر. صحيح أن مبذلته البنفسجية اللون كانت قديمة ملطخة بالبقع وكبيرة المقاس بوضوح، ولكن من قطعة اللباس البشعة هذه برزت أعلاها ربطة عنق هائلة، داكنة اللون ومن حرير ثقيل.

«ما الوضع؟»، سأل ديلامارش الجميع. اقترب الشرطي قليلًا واتكأ على صندوق محرك السيارة. وكارل قدّم توضيحًا مختصرًا:

«روبنسن متوعك قليلًا، لكنه إذا بذل جهده فسيتمكن من صعود الدرج؛ والسائق يطالب بدفعة إضافية على أجرة السفرة التي دفعتها له. والآن أنا سأنصرف. طاب يومكم».

«لن تنصرف»، قال ديلامارش.

«أنا أيضًا قلت له ذلك»، أضاف روبنسن من السيارة.

«بل سأنصرف»، قال كارل ومشى بضع خطوات.

لكن ديلامارش تبعه وسحبه إلى الوراء بعنف قائلًا: «قلتُ ستبقى!».

«ولكن اتركني»، قال كارل واستعد، إن دعت الضرورة، لتحرير نفسه بقبضتيه، مهما كان الأمل ضعيفًا بالانتصار في مواجهة مع رجل مثل ديلامارش. ولكن الشرطي موجود هنا الآن، وكذلك السائق، إضافة إلى مجموعات العمال التي تعبر من هنا وهناك الطريق الهادئ

في العادة؛ فهل سيصبر هؤلاء على ظلم يحوق به من طرف ديلامارش؟ ما كان كارل ليرغب في مواجهته داخل غرفة، ولكن هنا؟

دفع ديلامارش الآن وبهدوء مبلغًا للسائق، الذي انحنى عدة مرات شاكرًا وهو يضع في جيبه المبلغ الذي يفوق ما يستحقه، والذي جعله يتوجه إلى روبنسن ليتفاهم معه على أفضل طريقة لإخراجه من السيارة.

لاحظ كارل أنه غير مراقب، وفكر بأن ديلامارش لربما كان يفضل انصرافًا غير لافت للأنظار، إذا كان تجنب النزاع ممكنًا، وهكذا نزل عن الرصيف إلى الطريق ببساطة، كي يسرع في المغادرة ما أمكن. فاندفع الأطفال إلى ديلامارش لينبهوه إلى هروب كارل، لكنه لم يكن بحاجة إلى التدخل بنفسه، فقد مد الشرطي عصاه وقال لكارل: «قف! ما اسمك؟»، وضع عصاه تحت إبطه وأخرج من جيبه ببطء دفتر ملاحظات. نظر كارل إليه لأول مرة بتمعن، كان رجلًا قوي البنية، لكن شعره كاد يكون أبيض كله من الشيب.

«كارل روسمَن»، أجاب.

«روسمن»، كرر الشرطي لأنه لا ريب إنسان هادئ ودقيق، لكن كارل، الذي يتعامل الآن لأول مرة مع السلطات الأمريكية، وجد في هذا التكرار تعبيرًا عن اشتباه معين. وبالفعل لا يمكن لمسألته أن تمر بسلام، فحتى روبنسن، الذي كان مشغولًا بهمومه الخاصة، طالب ديلامارش بإشارات يدوية صامتة ولكن حيوية من داخل السيارة، بأن يساعد كارل. لكن ديلامارش صدّه بهز رأسه سريعًا عدة مرات وتابع ما يجري دون تدخل ويداه في جيبي مبذلته. والصبي الجالس على حجر البوابة شرح لامرأة خرجت لتوها من البوابة ملابسات المسألة منذ بدايتها. أما الأطفال فوقفوا بشكل نصف دائرة وراء كارل رافعين أنظارهم بصمت إلى الشرطي.

«أرني أوراقك الثبوتية»، قال الشرطي. كان هذا سؤالًا شكليًا محضًا، إذ عندما يكون المرء بلا جاكيت، فلن يكون معه الكثير من الأوراق الثبوتية، وكان سبب صمت كارل، هو أنه

فضّل الإجابة على السؤال التالي بالتفصيل، فيغطي بذلك على غياب الأوراق الثبوتية ما أمكن.

لكن السؤال التالي كان: «إذن أنت لا تملك أوراقًا ثبوتية؟» وكان على كارل أن يجيب: «ليست معي الآن».

«لكن هذا سيء»، قال الشرطي، نظر مفكرًا في ما حوله ونقر بأصبعه مرتين على غطاء دفتر ملاحظاته، وسأله أخيرًا: «ألديك أي دخل؟».

«كنتُ فتى مصعد»، أجاب كارل.

«كنتَ فتى مصعد، أي أنك لم تعد كذلك، ومما تعيش الآن؟».

«الآن سأبحث عن عمل جديد».

«هل تم تسريحك».

«نعم، قبل ساعة».

«فجأة؟».

«نعم»، ورفع يده وكأنه يعتذر. فهو لا يستطيع هنا أن يحكي القصة الكاملة، وحتى لو كان ذلك ممكنًا، فقد بدا له ألّا جدوى من أن يصد عن نفسه ظلمًا يتهدده بالكلام عن ظلم حاق به. وإذا كان لم يحصل على حقه من طيبة كبيرة الطباخين وإدراك كبير الندل، فمن المؤكد أنه ليس من المتوقع أن يحصل عليه من المجتمع هنا في الشارع.

«وهل تم تسريحك بدون جاكيت؟» سأله الشرطي.

«نعم»، أجاب كارل؛ حتى في أمريكا إذن، يتصف موظفو الدولة بالتساؤل تحديدًا عما يرونه. (كم انزعج والده عند إجرائه معاملة استخراج جواز سفر كارل، من أسئلة الموظفين اللامجدية!) شعر كارل برغبة كبيرة في أن يهرب وأن يختبئ في مكان ما، كيلا يضطر إلى الاستماع إلى أسئلة جديدة. وها هو الشرطي يطرح الآن ذاك السؤال، الذي سبب أكبر خشية لكارل، ونتيجة قلقه من توقعه إياه تصرفَ ربما بحذر أقل مما ينبغي.

«في أي فندق كنت تعمل؟».

نكس كارل رأسه ولم يُجب، لم يرغب في الإجابة على هذا السؤال. إذ لا يجوز أن تحصل حالة اقتياده من قبل شرطي إلى فندق أوكسيدنتال ثانية، وأن تجري هناك استجوابات يُستدعى إليها أصدقاؤه وأعداؤه، وأن تتخلص كبيرة الطباخين كليًا من فكرتها الإيجابية عنه والتي ضعفت جدًا نتيجة الحادث، هي التي كانت تتوقع وجوده في بنسيون برينر، فإذا بشرطي يلتقطه بدون جاكيت وبدون بطاقة التوصية، بينما قد يهز رئيس الندل رأسه متفهمًا الحال، على نقيض كبير البوابين الذي سيتحدث عن يد الرب الطولى، التي أمسكت الشقي وأعادته أخيرًا.

«كان مستخدمًا في فندق أوكسيدنتال»، قال ديلامارش واقترب إلى جانب الشرطي.

«لا، هذا غير صحيح!»، وخبط بقدمه على الأرض.

نظر إليه ديلامارش بسخرية وهو يمط شفتيه، وكأنه قادر على أن يفشي أمورًا أخرى. نتيجة اضطراب كارل غير المتوقع دبّت بين الأطفال حركة كبيرة وانسحبوا إلى جانب ديلامارش مفضلين مراقبة كارل من هناك بدقة أكبر. ومد روبنسن رأسه كله من السيارة ولاذ بهدوء تام من شدة تشوقه، ولم يبدر منه سوى رمشة عين بين الحين والآخر. وضرب الصبي عند البوابة كفًا بكف مسرورًا، فلكزته المرأة الواقفة إلى جانبه بكوعها كي يهدأ. وكان الوقت قد حان لاستراحة فطور أجراء المتاجر، فجاؤوا كلهم حاملين كؤوس القهوة السوداء الكبيرة، التي كانوا يغمسون فيها الخبز المتطاول. جلس بعضهم على حافة

الرصيف وأخذوا جميعهم يرشفون قهوتهم بصوت عال جدًا.
«أنت تعرف الفتى؟» سأل الشرطي ديلامارش.

«أكثر مما أحِب»، أجاب ديلامارش «عندما تعرفته قدمت له كثيرًا من العون، لكنه نكر الجميل بصفاقة، الأمر الذي ستدركه بسهولة بعد استجوابك القصير له».

«نعم»، قال الشرطي «يبدو أنه فتى معاند».

«إنه كذلك»، قال ديلامارش، «لكن هذا ليس أسوأ صفاته».

«هكذا إذن؟».

«نعم»، قال ديلامارش وقد أخذه الحديث، واضعًا يديه في جيبي مبذلته وهو يؤرجح بهما طرفيها، «إنه مدلل مفسود. أنا وصديقي الجالس هناك في السيارة التقطناه بمحض الصدفة من وضع بائس، لم يكن حينذاك يعرف شيئًا عن الأوضاع الأمريكية، كان قادمًا حديثًا من أوروبا، حيث لا يحتاجه المرء في شيء هناك؛ حسنًا، لقد اصطحبناه معنا، تركناه يعيش على حسابنا، شرحنا له كل شيء، أردنا أن نجد له عملًا، فكرنا، رغم كل المؤشرات على نقيض ذلك، أن نجعل منه إنسانًا مفيدًا، فإذا به يختفي أثناء الليل، ذهب بكل بساطة، وكان هذا مع ظروف مرافقة، أفضل السكوت عنها. ألم يكن الأمر كذلك؟» سأل ديلامارش كارل أخيرًا وشده من كم قميصه.

«ارجعوا إلى الوراء يا أولاد!» صاح الشرطي، فقد اقترب هؤلاء جدًا، حتى كاد ديلامارش أن يتعثر بأحدهم. وفي أثناء ذلك كان أجراء المتاجر، الذين لم يولوا كبير أهمية لهذا التحقيق، قد تنبهوا وتجمعوا مشكلين نصف دائرة كثيف وراء كارل، الذي لم يعد في وسعه الآن التراجع خطوة إلى الوراء، وفوق ذلك أخذت تطن في أذنيه فوضى أصوات الأجراء، الذين كانوا يرطنون أكثر مما يتكلمون، بإنجليزية غير مفهومة وممتزجة ربما بمفردات سلافية.

«شكرًا للمعلومات»، قال الشرطي وأدى التحية أمام ديلامارش، «في كل الأحوال سآخذه معي وأسلمه إلى فندق أوكسيدنتال». لكن ديلامارش قال:

«أيحق لي التماس ترك الفتى في عهدتي مؤقتًا، عندي ما يجب تسويته معه. وألتزم بعد ذلك بإعادته بنفسي إلى الفندق».

«لا يسعني فعل ذلك»، أجاب الشرطي.

«إليك بطاقة عملي»، وقدم للشرطي بطاقة صغيرة.

نظر إليها الشرطي باحترام، لكنه قال مع ابتسامة ودّية: «لا، لا يمكن».

على الرغم من شدة حذر كارل من ديلامارش حتى الآن، فقد رأى فيه الآن إمكانية الإنقاذ الوحيدة المحتملة. صحيح أنّ طلب ديلامارش من الشرطي كان مريبًا، ولكن في كل الأحوال سيكون من الأسهل إقناع ديلامارش بعدم اقتياده إلى الفندق من إقناع الشرطي بذلك. وحتى إذا اقتيد كارل بيد ديلامارش، فسيكون الأمر أقل سوءًا بكثير من أن يحدث برفقة الشرطي. ولكن حاليًا لا يجوز أن يظهر على كارل أنه فعليًا يريد اللجوء إلى ديلامارش، وإلا لضاع كل شيء. وأخذ يتابع بقلق يد الشرطي، التي قد ترتفع في أية لحظة لتمسك به.

«يتوجب عليَّ على الأقل أن أعرف لماذا تم تسريحه فجأة»، قال الشرطي، فيما عرك ديلامارش بطاقته بين أصابعه بوجه متجهم وقد التفت جانبًا.

«ولكنه لم يُسرَّح إطلاقًا!»، قال روبنسن مفاجئًا الجميع بتصريحه، وانحنى مستندًا على السائق إلى أبعد ما يستطيع خارج السيارة، وأردف «إنه يحتل هناك على العكس مكانة جيدة. في صالة النوم هو الآمر الناهي ويستطيع أن يُدخِل إليها مَن يشاء. إلا أنه مشغول جدًا، ومَن يريد منه شيئًا عليه أن ينتظر طويلًا. إنه يتردد كثيرًا على كبير الندل، وهو موضع ثقة كبيرة الطباخين. إنه لم يسرح بأي حال من الأحوال. ولا أعرف لماذا زعم ذلك.

ولماذا يُسرَّح أصلًا؟ لقد تأذيتُ بشدة في الفندق، فتم تكليفه بإيصالي إلى بيتي، ولأنه كان في تلك اللحظة دون جاكيت، فقد ركب معي دون الجاكيت. لم أستطع أن أبقى منتظرًا إلى أن يأتي بجاكيته».

«وإذًا»، قال ديلامارش بذراعين مبسوطين وبلهجة من يتهم الشرطي بضعف معرفته بالناس، وبدا تساؤله بمثابة توضيح لا يطاله الشك لتصريح روبنسن الذي يشوبه الغموض.

«ولكن هل هذا صحيح؟» سأل الشرطي بنبرٍ أضعف، «وإذا كان صحيحًا، لماذا يزعم الفتى أنه قد سرح؟»

«عليك أنت أن تجيب»، قال ديلامارش لكارل.

نظر كارل إلى الشرطي، الذي من واجبه حفظ النظام هنا بين غرباء لا يفكرون سوى بأنفسهم، وانتقل شيء من همومه العامة إلى كارل، الذي لم يرغب في أن يكذب، فأبقى يديه معقودتين خلف ظهره وصمت. ظهر في بوابة البناء مراقب الأجراء وصفق بيديه مؤذنًا بضرورة عودتهم إلى أعمالهم، فسكب هؤلاء التفل المترسب في أكوابهم على الأرض وانسحبوا صامتين بخطوات مترددة إلى داخل البناء.

«لن نصل هكذا إلى أية نتيجة»، قال الشرطي وأراد أن يمسك ذراع كارل. لاإراديًا تراجع كارل خطوة إلى الوراء، وشعر بخلو المكان نتيجة انسحاب الأجراء، استدار وانطلق راكضاً ببعض القفزات الواسعة. أطلق الأطفال صرخة واحدة معًا وركضوا بأذرعهم الصغيرة الممدودة بضع خطوات معه.

«أوقفوه!»، صاح الشرطي في الطريق الطويل المنحدِر والخاوي تقريبًا وركض وراء كارل مكررًا صيحته بانتظام ينسجم مع ركضه، الذي يدل على طاقة كبيرة وتدريب. كان من حسن حظ كارل أن الملاحقة جرت في حي عمالي، فالعمال لا يتعاونون مع السلطات. ركض كارل في وسط الطريق، لخلوه تقريبًا من العراقيل، وكان يرى بين الحين والآخر على

الرصيف عمالًا يتوقفون ويراقبونه بهدوء، فيما الشرطي يوجه إليهم نداءه: «أوقفوه!» محافظًا بذكاءٍ على سرعة ركضه على الرصيف الأملس، مادًّا عصاه بلا هوادة باتجاه كارل. كان أمل كارل بالنجاة ضعيفًا، وكاد يفقده كله، عندما أخذ الشرطي يطلق صفرات متتالية تصم الآذان بسبب اقترابهما من مفرقي زقاقين، حيث من المؤكد وجود دوريات شرطة. كانت مزية كارل الوحيدة هي خفة ثيابه، فأخذ يطير وبالأحرى يتطوح على الطريق الذي يزداد انحدارًا، لكنه نتيجة تشتته بسبب نعاسه كان يقوم أحيانًا بقفزات عالية غير مفيدة وتُضيِّع الوقت. فيما عدا ذلك كان هدف الشرطي أمام عينيه دائمًا دون حاجة إلى التفكير، أما بالنسبة إلى كارل فقد كان الجري أمرًا ثانويًا، إذ كان عليه بشكل رئيسي أن يفكر وأن يختار بين عدة إمكانيات، وأن يقرر من جديد دائمًا. كانت خطته المؤقتة شبه اليائسة، أن يتجنب الأزقة الجانبية، لعدم معرفة ما قد تخبئه، فمن المحتمل هناك أن يفاجَأ بوجود محرس. أراد البقاء ما أمكنه على هذا الشارع المكشوف أمامه، والذي يتصل في نهاية المنحدر بجسر، ما يكاد يبدأ حتى يغيب في سديم من مياه وأشعة شمس. أراد عقب اتخاذ هذا القرار أن يستجمع قواه لركض أسرع يتجاوز به التقاطع الأول القريب، عندما رأى على مقربة منه بعد التقاطع شرطيًا يتربص عند جدار داكن في ظل بناء، مستعدًا للانقضاض عليه في اللحظة المناسبة. فلم يتبق من مخرج أمام كارل سوى الزقاق الجانبي، وعندما سمع من هذا الزقاق مَن ينادي اسمه ببراءة –بدا له ذلك أول الأمر بمثابة خداع، إذ كان الطنين يملأ أذنيه طوال الوقت– توقف عن التردد، ولكي يفاجئ رجلَي الشرطة ما أمكن التف على كعب قدمه وانعطف بزاوية حادة نحو اليمين إلى الزقاق.

لم يكد يطوي قفزتين –كان قد نسي ثانية أن هناك مَن ناداه، والشرطي الثاني بدأ الآن بالصفير أيضًا، راكضًا بقواه الطازجة، ما أدى إلى أن يسرِّع بعض المشاة في هذا الزقاق خطوهم– حتى امتدت نحو كارل يد من باب صغير لأحد المنازل وسحبته مع كلمتي «الزم الهدوء!» إلى ردهة صغيرة. كان ذلك ديلامارش، منقطع الأنفاس، بخدين متوهجين وشعر ملتصق بجلد وجهه ورأسه. كان يحمل مبذلته تحت إبطه، ولا يرتدي سوى القميص

والسروال الداخليين. والباب لم يكن الباب الفعلي للمسكن وإنما باب مدخل جانبي وحسب، أغلقه ديلامارش وأقفله.

«لحظة»، قال واستند إلى الحائط رافع الرأس وأخذ يتنفس بصعوبة. كاد كارل وهو شبه غائب عن الوعي أن يكون بين ذراعي ديلامارش ضاغطًا وجهه على صدره.

«ها هما السيدان يجريان»، قال ديلامارش وأشار بسبابته إلى الباب وهو ينصت. وفعلًا مر الآن الشرطيان، وكان لجريهما في الزقاق الخاوي وقعٌ مثل ارتطام الفولاذ بالصخر.

«أنت مرهق تمامًا»، قال ديلامارش لكارل، الذي ما زال يتنفس بصعوبة على ذراعه، دون أن يتمكن من نطق كلمة واحدة. فأجلسه ديلامارش على الأرض بحذر، وركع إلى جانبه ومسح جبينه بيده عدة مرات وهو ينظر إليه.

«صرتُ أحسن الآن»، قال كارل ونهض واقفًا بصعوبة.

«هيا بنا إذن»، قال ديلامارش وقد ارتدى مبذلته ثانية ودفع أمامه كارل، الذي مازال منكسًا رأسه من الضعف. وكان يهزه من حين لآخر كي ينعشه.

«أتريد أن تقول إنك متعَب؟، على الطريق كان بإمكانك أن ترمح مثل حصان، أما أنا فكان عليَّ التسلل هنا بين الممرات اللعينة والباحات الداخلية. من حسن الحظ أني عدَّاء أيضًا». ومن فخر ديلامارش بذلك خبط كارل على ظهره خبطة قوية وأضاف «بين الحين والآخر يعتبر سباقٌ من هذا النوع مع الشرطة، تمرينًا جيدًا».

«كنتُ بالأصل متعبًا عندما بدأت الركض»، قال كارل.

«ما من عذر للجري السيئ. لولاي لكانا قد أمسكا بك»، قال ديلامارش.

«أعتقد ذلك أنا أيضًا. إني مدين لك جدًا»، قال كارل.

«لا شك في ذلك»، علَّق ديلامارش.

مشيا عبر ممر ضيق وطويل، مرصوف بصفائح حجرية سوداء. بين الحين والآخر كان يظهر على اليمين أو اليسار درج مسكن أو ممر جانبي يؤدي إلى آخر أعرض منه. لم يريا أحدًا تقريبًا من الرجال أو النساء، بل مجرد أطفال يلعبون على الأدراج الخاوية. على درابزين أحد المساكن كانت تقف فتاة صغيرة وتبكي بشدة، بحيث لمع وجهها كله من غزارة الدموع. وما أن لمحت ديلامارش قادمًا، حتى صعدت الدرج بسرعة فاتحة فمها لتلتقط أنفاسها، ولم تهدأ إلا في أعلاه بعد أن التفتت عدة مرات وتأكدت من أنه ما من أحد يلاحقها أو ينوي ذلك.

«لقد صدمتُها وأنا أركض قبل قليل»، قال ديلامارش ضاحكًا وهددها بقبضة يده، فتابعت صعود الدرج وهي تصرخ.

حتى الأفنية التي عبراها كانت أيضًا خاوية تقريبًا. هنا وهناك وحسبْ كان أحد الأجراء يدفع أمامه عربة ذات دولابين، وامرأة تملأ صفيحة بالماء من مضخة، وساعي بريد يعبر الفناء كله بخطوات متمهلة، ورجل عجوز ذو شارب أبيض يجلس أمام باب زجاجي يدخن غليونه رافعًا ساقًا فوق الأخرى، وأمام مكتب نقليات كانت تُنزَّل صناديقٌ من عربة نقل، والجياد المستريحة تتلفت بلامبالاة، ورجل بمعطف عملٍ يتابع العمل كله مدققًا في ورقة يحملها بيده، وفي أحد المكاتب كانت هناك نافذة مفتوحة وموظف يجلس إلى مكتب وقد التفت عنه ناظرًا إلى الخارج وهو مستغرق في التفكير، في لحظة عبور كارل وديلامارش.

«لا يمكن للمرء أن يتمنى منطقة أكثر هدوءً من هذه»، علق ديلامارش «مساءً يسود المكان ضجيج مدة ساعتين تقريبًا، أما خلال النهار فالوضع هنا نموذجي».

هز كارل رأسه موافقًا، لكن السكون بدا له أكبر من المعقول.

«لا يمكنني العيش في مكان آخر، لأن برونيلدا لا تتحمل الضجيج مطلقًا. هل تعرف برونيلدا؟ حسنًا، سوف تلتقي بها. في كل الأحوال أنصحك بالتزام الهدوء ما أمكنك». قال ديلامارش.

عندما وصلا إلى الدرج المؤدي إلى منزل ديلامارش، كانت سيارة الأجرة قد غادرت، والصبي ذو الأنف الأفطس أفصح، دون أن يندهش من عودة كارل للظهور إطلاقًا، بأنه قد حمل روبنسن وصعد به الدرج. فأومأ له ديلامارش برأسه وحسب، وكأنه خادمه الذي أدى واجبًا بديهيًا، وجذب كارل، الذي تردد قليلًا وهو ينظر إلى الطريق المشمس، ليصعد الدرج معه.

«سنصل بعد قليل»، كرر ديلامارش عدة مرات أثناء صعود الدرج، لكن نبوءته لم تصل إلى تحققها، فكلما انتهى مقطع من الدرج، كان يبدأ من جديد، ولكن بتغير طفيف في الاتجاه. حتى أن كارل توقف مرة، لا نتيجة تعبه الحقيقي، وإنما بسبب عجزه حيال طول هذا الدرج. وعندما تابعا قال ديلامارش: «البيت مرتفع جدًا، ولكن لهذا مزاياه أيضًا. فنادرًا ما نخرج من البيت، نمضي نهارنا كله بقمصان النوم، مرتاحين تمامًا. ومن الطبيعي أنه لا يأتينا ضيوف نظرًا لهذا العلو».

«أي ضيوف هؤلاء الذين سيزورونكم؟»، قال كارل في نفسه.

وأخيرًا ظهر روبنسن على بسطة درج أمام باب بيت مغلق، وأخيرًا وصلا، إلا أن الدرج لم ينته بعد، بل امتد في شبه العتمة، دون ظهور أي مؤشر على نهايته.

«هذا ما قلته في نفسي»، قال روبنسن بصوت منخفض، وكأنه ما زال يعاني الألم، وأردف «ديلامارش سيأتي به! ما حالك يا روسمن، من دون ديلامارش!» كان روبنسن واقفًا هناك بثيابه الداخلية، محاولًا ما أمكنه أن يلف نفسه بشرشف السرير الصغير، الذي غطوه به في الفندق؛ ولم يكن واضحًا، لماذا لم يدخل إلى البيت، بدلًا من أن يتعرض هنا لسخرية عابرين محتملين.

«أهي نائمة؟» سأله ديلامارش.

«لا أعتقد»، أجاب روبنسن «لكنني فضلت الانتظار حتى تعود».

«علينا أن نرى أولًا ما إن كانت نائمة»، قال ديلامارش وانحنى إلى ثقب المفتاح. وبعد النظر طويلًا بعدة وضعيات للرأس، نهض وقال: «الرؤية ليست واضحة بدقة، فالستارة الجرارة مُسدلة. هي جالسة على الكنبة، لكنها قد تكون نائمة».

«وهل هي مريضة؟» سأل كارل، لأن ديلامارش كان واقفًا كمن يرجو النصيحة. لكن ديلامارش سأله بدوره بلهجة حادة: «مريضة؟».

«إنه لا يعرفها»، قال روبنسن معتذرًا.

بعد بضعة أبواب خرجت امرأتان إلى الدهليز، مسحتا أيديهما بمئزريهما، نظرتا باتجاه ديلامارش وروبنسن وبدتا كأنهما تتحدثان عنهما. ومن باب آخر قفزت فتاة صغيرة جدًا ذات شعر أشقر لمّاع واندست بين المرأتين متعلقة بذراعيهما.

«هاتان امرأتان مقيتتان»، قال ديلامارش بصوت منخفض، ومن الواضح أن هذا كان مراعاة لـ برونيلدا النائمة، وأضاف «قريبًا سأبلغ الشرطة عنهما وسوف أرتاح منهما لسنوات. لا تنظر إليهما»، همس لكارل، الذي لم يجد غضاضة في النظر إلى المرأتين، مادام المرء مضطرًا للوقوف أمام الباب في الدهليز بانتظار أن تصحو برونيلدا من نومها. وهز رأسه بانزعاج، دلالة على أنه لا يقبل تحذيرات ديلامارش، ولتوضيح ذلك أراد التوجه إلى المرأتين، لكن روبنسن أمسك به من كمه قائلًا: «روسمن، إياك!»، وديلامارش الذي استُفِز من سلوك كارل، هاج غضبًا بسبب ضحكة صاخبة أطلقتها الفتاة، بحيث هجم مسرعًا باتجاه المرأتين مُطوِّحًا ذراعيه وساقيه، فاختفت كل منهما بلمح البصر عبر بابها.

«غالبًا ما ألجأ إلى هذه الطريقة لتطهير الدهاليز هنا»، قال ديلامارش عندما عاد بخطوات بطيئة، وتذكر عندها مقاومة كارل فقال له: «أما منك فإني أنتظر سلوكًا مختلفًا تماماً، وإلا

فستكون تجاربك معي رديئة».

وهنا تناهى إليهم من الغرفة صوت متسائل بلهجة تشي بنعومة وتعب: «ديلامارش؟».

«نعم»، أجاب ديلامارش ناظرًا إلى الباب بلطف، «أيمكننا الدخول؟».

«طبعًا»، جاء الجواب، وبعد أن شمل ديلامارش الاثنين وراءه بنظرة سريعة فتح الباب ببطء.

دخلوا إلى عتمة تامة. ستارة باب البلكون -إذ لم يكن هناك نافذة- كانت مسدلة حتى الأرض وهي تسرب بعض الضوء فقط، يضاف إلى ذلك أن ازدحام الغرفة بقطع الأثاث والثياب المعلقة في كل مكان قد أسهم كثيرًا في تعتيمها. كان الهواء رطبًا وتفوح منه رائحة الغبار الذي عشش في زوايا يصعب على ما بدا أن تصل إليها يد الإنسان. كان أول ما لاحظه كارل عند الدخول هو ثلاثة صناديق موضوعة وراء بعضها بمسافات ضئيلة فيما بينها. كانت المرأة مستلقية على الكنبة، وهي نفسها التي كانت قبل حين تنظر من البلكون إلى الطريق. كان ثوبها الأحمر منكشفًا قليلًا في أسفله وتدلى جزء من طرفه على الأرض، فرأى المرء ساقيها حتى الركبتين، وكانت ترتدي جوارب صوفية سميكة بيضاء اللون وبلا حذاء.

«يا لهذا الحر، ديلامارش»، قالت وأدارت وجهها عن الجدار، وتركت يدها ممتدة تتمايل باسترخاء باتجاه ديلامارش، الذي أمسك بها وقبلها. لم يرَ كارل إلا ذقنها المزدوجة، التي اندلقت مع التفاتة الرأس.

«أترغبين ربما بأن أسحب الستارة عاليًا؟» سألها ديلامارش.

«إلا هذا»، قالت بعينين مغمضتين وبلهجة يائسة «سيسوء الحال أكثر».

اقترب كارل من طرف الكنبة من جهة قدمي المرأة، كي يراها بوضوح، فقد استغرب شكواها، لأن الحرارة لم تكن شديدة أبدًا.

«انتظري، سأحاول أن أريحك قليلًا»، قال ديلامارش بحذر، وفك زرين عند أعلى رقبتها وباعد هناك بين طرفي الثوب، بحيث تحرر العنق وبداية الصدر، وظهر طرف القميص المائل إلى الصفرة والمزين بدانتلا ناعمة.

«مَن هذا؟» قالت المرأة فجأة وأشارت بأصبعها إلى كارل «لماذا يبحلق بي هكذا؟».

دفع ديلامارش كارل جانبًا وهو يقول له: «عما قريب ستصبح مفيدًا»، ثم التفت إلى المرأة وقال ليهدئها: «إنه الفتى، الذي أحضرته معي ليخدمك».

«لكنني لا أريد أحدًا أبدًا!» صاحت المرأة وأردفت «لماذا تُحضِر أناسًا أغرابًا إلى البيت؟».

«لكنكِ طوال الوقت تتمنين الحصول على خادم»، قال ديلامارش وركع على الأرض، فعلى الرغم من عرض الكنبة، لم يجد له أي مكان بجانب برونيلدا.

«لكنك يا ديلامارش لا تفهمني ولا تفهم مقصدي».

«هذا يعني أني حقًا لا أفهمك»، قال ديلامارش وأخذ وجهها بين يديه «لكن المسألة بسيطة جدًا، فإذا أردتِ سيغادر فورًا».

«بما أنه قد صار هنا، فليبقَ»، قالت مغيّرة رأيها، وكارل المنهك، كان ممنونًا لها على هذه الكلمات -التي ربما لم تقصدها على نحو ودي إطلاقًا- إلى درجة أنه، في متاهة أفكاره عن احتمال اضطراره إلى نزول هذا الدرج الذي لا نهاية له، خطا من فوق روبنسن النائم بسلام على شرشفه، وتقدم وقال رغم تلويحات ديلامارش التهديدية المزعجة: «إني على كل حال أشكرك لرغبتك في تركي هنا بعض الوقت. أنا لم أنم منذ أربع وعشرين ساعة، اشتغلت خلالها بما يكفي وتعرضت لاضطرابات متنوعة. أنا متعب جدًا. لا أعرف تمامًا أين

أنا، لكني إذا نمت بضع ساعات، يمكنك بعدها طردي من دون مبالاة، وسأكون مسرورًا بالذهاب».

«بصورة عامة بوسعكَ البقاء هنا»، قالت المرأة، ثم أضافت ساخرة «إذ لدينا متسع من المكان كما ترى».

«إذن عيك أن تغادر»، قال ديلامارش «فنحن لسنا بحاجة إليك».

«لا، فليبقَ»، قالت المرأة ثانية، بكل جدية.

«استلقِ إذن في مكان ما»، قال ديلامارش لكارل تنفيذًا لهذه الرغبة.

«يمكنه الاستلقاء فوق الستائر، ولكن عليه خلع جزمته كيلا يمزق شيئًا».

أرشد ديلامارش كارل إلى المكان الذي عنته. بين الباب والخزائن الثلاث كانت هناك كومة كبيرة من مختلف ستائر النوافذ مرمية على الأرض. إذا طواها المرء كلها على نحو مرتب، الأثقل في الأسفل ووضع الأخف فوقها وسحب في نهاية الأمر جميع الحلقات منها وكذلك الألواح الخشبية المدسوسة فيها، فسيحصل على مضجع مقبول، أما هكذا فليست الكومة سوى كتلة متأرجِحَة ومنزلقة، ومع ذلك ارتمى كارل فوقها من فوره، إذ لم يتبق لديه أي طاقة لاتخاذ ترتيبات خاصة للنوم، كما كان عليه مراعاة لمضيفيه ألا يُكثر من الحركة. لم يكد يدخل مرحلة النوم الفعلي، حتى سمع صرخة عالية، فوقف ورأى برونيلدا تجلس على الكنبة معتدلة وتبسط ذراعيها لتعانق ديلامارش الراكع أمامها. كان المشهد محرجًا لمارك، فعاد لاستلقائه بين الستائر ليتابع نومه. وبدا له واضحًا أنه لن يصبر على هذا الحال أطول من يومين، لكن الأكثر ضرورة الآن هو أن يشبع نومًا، لكي يتمكن من اتخاذ قراره بهدوء وبكامل قواه العقلية.

لكن برونيلدا رأت عيني كارل المبحلقتين من شدة التعب واللتين أرعبتاها قبل قليل وصاحت:

«ديلامارش، لم أعد قادرة على تحمل هذا الحَر، أنا ألتهب، لابد لي من خلع ثيابي، لابد لي من حمام، أخرِج الاثنين من الغرفة، إلى حيث تشاء، إلى الدهليز، إلى البلكون، المهم ألّا أراهما! حتى داخل بيته لا ينجو المرء من الإزعاج المستمر. لو كنت معك لوحدنا، ديلامارش! يا إلهي، مازالا هنا! كيف يظهر هذا الوقح روبنسن بثيابه الداخلية أمام سيدة! وهذا الفتى الغريب كيف نظر إليّ قبل لحظة كالمجنون، ثم عاد ليستلقي كي يخدعني! أبعدهما عني يا ديلامارش، إنهما عبء عليّ، يثقلان على صدري، وإذا هلكت الآن فهما السبب».

«سيخرجان فورًا، أنتِ اخلعي ثيابك ولا تهتمي»، قال ديلامارش، ذهب إلى روبنسن وهزه بقدمه التي وضعها على صدره. في الوقت نفسه صاح بكارل: «روسمن، انهض هيا! عليكما الخروج إلى البلكون! والويل لكما إذا دخلتما قبل أن تُستدعيا! هيا بسرعة روبنسن» –وهز روبنسن بقوة أكبر-، «وأنت يا روسمن، احذر لئلا أغضب منك»، وصفّق بيديه مرتين.

«ما هذا التلكؤ!» صاحت برونيلدا من مكانها على الكنبة، حيث جلست مباعدة ما بين ساقيها لتوجِد لجسمها البالغ السمنة متسعًا من المكان، وبجهد جهيد مع كثير من تقطع الأنفاس وإطلاق التأوهات تمكنت من الانحناء، لتمسك بجوربيها من الجهة العليا وتنزلهما قليلًا، لكنها لم تتمكن من نزع ثيابها عن جسمها كليًا، وكان على ديلامارش أن يقوم بذلك، وهي تنتظره بفارغ الصبر.

زحف كارل بتبلد تام من التعب نزولًا عن الكومة ومشى ببطء إلى باب البلكون، وقد التفتْ حول قدمه قطعة من قماش الستائر، فجرها معه بلا مبالاة. ومع شرود أفكاره قال لـ برونيلدا عند مروره بها: «أتمنى لك ليلة طيبة» وتجاوز من ثم ديلامارش -الذي سحب ستارة النافذة قليلًا إلى الوراء- متابعًا طريقه إلى البلكون. ووراء كارل مباشرة أتى روبنسن، ليس أقل منه نعاسًا، إذ أخذ يهمهم: «ثمة دائمًا مَن يسيء معاملة الآخر! إذا لم تأت برونيلدا معنا، لن أخرج إلى البلكون». وعلى الرغم من هذا التأكيد، خرج دون أدنى مقاومة، وبما أن كارل ارتمى على المقعد ذي المسند قبله، فقد استلقى من فوره على بلاط البلكون.

عندما استيقظ كارل كان المساء قد حل، والنجوم تلمع في السماء، ومن وراء الأبنية العالية على الجانب الآخر من الطريق بدأ ضوء القمر يرتفع عاليًا. لم يستوعب كارل مكان وجوده، إلا بعد أن تلفت في الجوار عدة مرات واستنشق الهواء الرطب المنعش. كم كان متهورًا بإهماله كل نصائح كبيرة الطباخين وتحذيرات تيريزه ومخاوفه الذاتية، ليجلس بهدوء هنا على بلكون ديلامارش وقد أمضى نصف يوم في النوم، وكأن عدوه اللدود ديلامارش ليس موجودًا هنا وراء الستارة. على الأرض تقلب روبنسن الكسول وشد قدم كارل، وبدا أنه بهذه الطريقة قد أيقظه أيضًا، إذ قال:

«نومك عميق جدًا يا روسمن! هذا من علامات الفتوة الخالية من الهموم. إلى متى تريد أن تبقى نائمًا؟ كان بوسعي أن أدعك نائمًا، ولكن أولًا صار الاستمرار في الاستلقاء هنا على الأرض مملًا، وثانيًا أنا أشعر بجوع كبير. أرجوك أن تنهض قليلًا عن المقعد، فقد خبأت في داخله بعض الطعام، وبودي الآن أن أخرجه بكل سرور، وعندها ستحصل أنت أيضًا على شيء منه».

نهض كارل ورأى كيف أن روبنسن، بدل أن يقف، قد زحف على بطنه ومد يديه إلى أسفل المقعد وسحب صحفة مفضضة، كالتي تستعمل لحفظ بطاقات التعريف الشخصية. ولكن بدلًا من البطاقات كان على هذه الصحفة قطعة من اللحم المقدد، بعض السجائر الرفيعة، علبة أسماك سردين بالزيت مفتوحة، وكمية من سكاكر الكراميل المضغوطة على بعضها لتشكل ما يشبه كرة. ثم ظهرت قطعة كبيرة من الخبز وزجاجة تشبه زجاجات العطر، لكنها مملوءة بشيء آخر، فقد أشار إليها روبنسن باستحسان خاص وأخذ يتلمظ أمام كارل.

«أترى يا روسمن»، قال روبنسن، وهو يزدرد سردينة وراء الأخرى ويمسح يديه من الزيت بين الحين والآخر بشال صوفي نسيته برونيلدا في البلكون، «أترى يا روسمن، هكذا على المرء أن يخبئ طعامه، إن لم يبغ الموت جوعًا. اسمع، لقد نحيَّاني جانبًا تمامًا. وعندما يعامَل المرء دائمًا ككلب، فإنه يفكر أخيرًا أنه حقاً كلب. حسنًا أنك هنا يا روسمن، فبوجودك يمكنني على الأقل أن أتحدث مع شخص آخر. فلا أحد هنا في البيت يكلمني. نحن

مكروهان. وكل هذا بسبب برونيلدا هذه. إنها أنثى فخمة طبعًا. اسمع» -وأشار لكارل كي يدنو منه، كي يهمس له– «ذات مرة رأيتها عارية. واو!» ومستغرقًا في هذه الذكرى المثيرة للمتعة أخذ يضغط على ساقي كارل ويصفعهما بلطف، إلى أن صاح به كارل: «روبنسن، أنت مجنون»، وأمسك يديه ودفعهما عنه.

«أنت ما زلت طفلًا يا روسمن»، قال روبنسن، أخرج خنجرًا صغيرًا يعلقه بخيط حول عنقه وتحت القميص الداخلي، رفع الغمد عن النصل وقطّع اللحم المقدد القاسي. «مازال أمامك الكثير لتتعلمه، وقد وجدتَ المكان الصحيح لذلك. هيا اجلس. ألا تريد أن تأكل شيئًا؟ حسنًا، قد تأتيك الشهية وأنت تنظر إلي. ولا تريد أن تشرب شيئًا؟ يبدو أنك لا تريد أي شيء إطلاقًا. كما لا تبدو ميالًا لتبادل الحديث. لكن الأمر سيّان تمامًا، مع مَن يجلس المرء على البلكون، ما دام هناك شخص ما، فأنا غالبًا ما أكون هنا على البلكون. وبرونيلدا تتسلى بهذا جدًا. يكفي أن يخطر في بالها أمر ما، فمرة تشعر بالبرد، ومرة بالحر، مرة تريد أن تنام، ومرة تريد أن تسرح شعرها، مرة تريد أن ترخي مشدَّ الصدر، ومرة تريد شد أربطته، وفي كل مرة لابد من إخراجي إلى البلكون. أحيانًا تفعل حقًا ما قالته، لكنها غالبًا تبقى مستلقية على الكنبة كما كانت ولا تتحرك. سابقًا كنت غالبًا أزيح الستارة قليلًا وأنظر. لكنني لم أعد أجرؤ على ذلك، منذ تلك المرة، حين ضربني ديلامارش بالسوط على وجهي -أنا أعرف تمامًا أنه لم يتعمد ضربي، لكنه نفذ رغبة برونيلدا– أترى آثار الضرب. وهكذا أستلقي هنا على البلكون وليس هناك ما أتسلى به سوى الأكل. أول أمس مساءً، عندما كنت مستلقيًا هنا وحدي، وكنت لا أزال في ثيابي الأنيقة، التي فقدتها للأسف في فندقك -أولئك الكلاب، يُشلِّحون المرء ثيابه الثمينة ويرمونه!– عندما كنت مستلقيًا هنا وحدي وأنظر من خلال الدرابزين إلى الأسفل، أحسست بحزن كبير وأخذت أبكي. وبمحض الصدفة، دون أن أشعر، خرجت برونيلدا إليّ بالثوب الأحمر –وهو أكثر ما يليق بها من جميع أثوابها-، نظرت إليّ قليلًا وقالت أخيرًا: «روبنسن، لماذا تبكي؟» ثم رفعت طرف ثوبها ومسحت دموعي به. من يدري، ما كانت ستفعل أكثر من ذلك، لو لم ينادها ديلامارش، فاضطرت إلى العودة فورًا إلى الغرفة. فكرت طبعًا بأن دوري قد حان الآن، وسألت من خلال الستارة، عما إن كان

يجوز لي الآن الدخول إلى الغرفة. وبماذا أجابت برأيك؟: «لا، ماذا يخطر في بالك؟» هذا ما قالته».

«إذن لماذا تبقى هنا، ما داما يعاملانك بهذا الشكل؟».

«اعذرني يا روسمن، لكنك لا تسأل بذكاء كبير»، أجاب روبنسن «فأنت أيضًا ستبقى هنا، ولو عاملاك بصورة أسوأ. وبالمناسبة، معاملتهما لي ليست سيئة أبدًا».

«لا، أنا سأغادر بالتأكيد، وربما هذا المساء. أنا لن أبقى عندكم».

«وكيف مثلًا تريد أن تحقق ذلك، أن تغادر مساء اليوم؟» سأله روبنسن، الذي انتزع لب الخبز الطري وغمسه بحذر في زيت علبة السردين، «كيف ستغادر ما دام لا يجوز لك حتى الدخول إلى الغرفة؟».

«ولماذا لا يجوز لنا الدخول؟».

«مادام الجرس لم يقرع، لا يجوز لنا الدخول»، قال روبنسن، الذي كان يلتهم الخبز المغمس بالزيت بفم مفتوح إلى أقصاه، فيما يتلقف بإحدى يديه قطرات الزيت المتساقطة، كوعاء احتياطي يغمس فيه بين الحين والآخر ما تبقى من الخبز، ثم أضاف «كل شيء هنا صار أشد حزمًا من السابق. أول الأمر كانت هنا ستارة رقيقة وحسب، لا يستطيع المرء الرؤية عبرها، ولكن مساء كان من الممكن التعرف على الظلال. برونيلدا وجدت ذلك مزعجًا، فكان عليّ أن أحوِّل أحد معاطفها المسرحية إلى ستارة وأن أعلقها هنا عوضًا عن القديمة. الآن لم يعد من الممكن رؤية أي شيء. وسابقًا كان يجوز لي أن أسأل، عما إذا كان يجوز لي الدخول، وكان يأتيني الجواب حسب الظرف، إما نعم أو لا، ولكن يبدو أني قد استغليت الأمر، وأكثرت من السؤال. لم تعد برونيلدا تتحمل الوضع –وهي على الرغم من سمنتها، ذات بنية جسمية ضعيفة، تعاني الصداع كثيرًا، والنقرسُ في ساقيها دائم تقريبًا– وهكذا اتخِذ قرار بعدم السماح لي بالسؤال، وإنما يمكنني الدخول بعد سماعي جرَس الطاولة

يُقرع، وهو يصدر صوتًا قويًا يوقظني حتى من نومي – أحضرتُ ذات مرة قطة لأتسلى بها هنا، لكنها ارتعبت من صوت الجرس وهربت دون عودة؛ وبناء على ذلك حتى الآن لم يُقرع الجرس اليوم بعد، وعندما يقرع، لا يجوز لي الدخول وحسب، بل يجب عليّ ذلك. وإذا لم يقرع لوقت طويل، فهذا يعني أن الحال سيطول جدًا».

«نعم»، قال كارل «لكن ما يسري عليك، لا يسري بالضرورة عليّ، وعلى العموم مثل هذا الوضع يسري فقط على مَن يعجبه، أو يرضى به».

«ولكن لماذا لا يكون ساريًا عليك أنت أيضًا؟ من البديهي أن يسري عليك. انتظر هنا معي بهدوء إلى أن يقرع الجرس. وبعد ذلك يمكنك أن تحاول الهروب».

«لماذا في حقيقة الأمر لا تغادر من هنا؟ هل فقط لأن ديلامارش صديقك أو بالأحرى كان صديقك؟ هل هذه حياة؟ ألا يمكن أن يكون الحال أفضل في بَترفورد، حيث أردتما الذهاب أول الأمر؟ أو حتى في كاليفورنيا، حيث لك أصدقاء؟».

«نعم»، قال روبنسن، «لم يكن بوسع أحد التنبؤ بذلك». وقبل أن يسترسل في حديثه قال: «في صحتك، عزيزي روبنسن» وشرب جرعة طويلة من زجاجة العطر. «حينذاك عندما تخليتَ عنا بسفالة، كان حالنا سيئًا جدًا. في الأيام الأولى لم نحصل على عمل، وديلامارش بالمناسبة لم يبغ أن يعمل، هو كان سيحصل على عمل، لكنه كان يرسلني دائمًا بحثاً عن عمل، وأنا لا حظ لي. كان يتسكع في الجوار وحسب، وكان المساء قد اقترب، عندما عاد ومعه محفظة نسائية فاخرة. كانت في الواقع جميلة جدًا، مزينة بلآلئ، وقد أهداها من ثم لـ برونيلدا، ولكن لم يكن في داخلها أي شيء. ثم قال إن علينا الذهاب للتسول من البيوت، فبهذه الطريقة يمكن للمرء طبعًا أن يجد كثيرًا من الأشياء المفيدة، فذهبنا للتسول، ولكي نبدو بصورة أفضل رحت أغني عند أبواب البيوت. وبما أن ديلامارش محظوظ دائماً، ما أن وقفنا أمام باب البيت الثاني، وكان منزلًا غنيًا جدًا في الطابق الأرضي، وغنينا قليلًا عند باب الطباخة والخادم، حتى جاءت السيدة التي تملك هذا البيت، برونيلدا نفسها، لتصعد الدرج. ربما كان المشد الذي ترتديه مشدودًا أكثر من اللزوم، فلم تستطع حتى صعود

الدرجات القليلة. ولكن كم كان مرآها جميلًا يا كارل! كانت تلبس ثوبًا ناصع البياض وتحمل شمسية حمراء. كانت جديرة بأن تُلعق أو أن تُشرب حتى الثمالة. يا إلهي، يا إلهي، كم كانت جميلة! يا لها من أنثى! لا، بل قل لي فقط، كيف لأنثى مثل هذه أن توجد؟ بطبيعة الحال ركضت الخادمة وكذلك الخادم إليها وحملاها تقريبًا لصعود الدرجات. نحن وقفنا إلى يمين ويسار الباب وأدينا تحية رسمية، هكذا يتصرف الناس هنا. توقفت قليلًا، لأنها لم تستنشق كفايتها من الهواء، والآن لا أدري كيف حدث الأمر، أنا بسبب الجوع لم أكن متحكمًا بنفسي تمامًا، وهي كانت قريبة مني وأكثر جمالًا وهائلة العرض، وبسبب ارتدائها مشدًا خاصًا، يمكنني أن أريك إياه لاحقًا في الصندوق، كانت مشدودة في كل موضع من جسمها، باختصار: لمستها قليلًا على مؤخرتها، ولكن على نحو خفيف جدًا، أنت تعرف، لمستها فقط. وهذا طبعًا غير مسموح به، أن يلمس متسول سيدة ثرية. لكنها تكاد ألا تكون ملامسة، غير أنها في نهاية المطاف ملامسة بالتأكيد. مَن يدري إلى أي حدٍ كان سيسوء الحال، لولا أن ديلامارش فورًا صفعني، وكانت في واقع الأمر صفعة، احتجت معها إلى كلتا يديَّ فورًا لأمسك خدي».

«يا لتصرفاتكما!» قال كارل مأخوذاً بالحكاية كليًا، وجلس على الأرض متسائلًا «وهذه كانت برونيلدا؟».

«نعم، هذه كانت برونيلدا».

«ألم تقل مرةً إنها مغنيّة؟» سأله كارل.

«طبعًا هي مغنيّة، بل مغنية عظيمة»، أجاب روبنسن، الذي كان يُقلِّب على لسانه كتلة كبيرة من الكراميل، وكلما اندفع جزء منها خارج فمه، كان يدفعه بأصبعه إلى الداخل ثانية، وأضاف «لكننا حينذاك لم نكن نعرف ذلك، كل ما رأيناه أنها امرأة ثرية، وراقية جدًا. هي تصرفت وكأن شيئًا لم يحدث، ومن المحتمل أنها لم تحس بشيء، لأنني فعليًا لمستها برؤوس أصابعي فقط. لكنها استمرت في النظر إلى ديلامارش، الذي عاود تصويب نظراته إلى عينيها مباشرة. بعد ذلك قالت له: «تعال معي قليلًا» وأشارت بالشمسية إلى بيتها، كي

يسبقها ديلامارش بالدخول. ثم غابا معًا، وأغلق الخادم الباب وراءهما، ونسياني في الخارج، فكرتُ بأن الزيارة لن تطول، فجلست على الدرج، بانتظار خروج ديلامارش. ولكن بدلًا من ديلامارش خرج الخادم وأحضر لي زبدية مملوءة بالحساء. فكرت بأنها توصية من ديلامارش. بقي الخادم واقفًا أثناء تناولي الحساء وحكى لي بعض الأمور عن برونيلدا، وعندها أدركتُ مدى أهمية هذه الزيارة عند برونيلدا لنا. فقد كانت برونيلدا امرأة مطلقة، تملك ثروة كبيرة، ومستقلة استقلالًا تامًا! زوجها السابق، وهو صاحب مصنع كاكاو، مازال يحبها، لكنها لم تكن ترغب بسماع أي شيء عنه. كان يأتي كثيرًا إلى المنزل وبمنتهى الأناقة دائمًا، وكأنه ذاهب إلى عرس –هذا حقيقي حرفيًا، فقد تعرفته– لكن الخادم رغم الإكرامية الكبيرة، لم يكن يجرؤ على سؤال برونيلدا، ما إن كانت مستعدة لاستقباله، فقد سبق أن سألها عدة مرات، وكانت تجيبه كل مرة، بأن ترمي في وجهه ما كان في يدها. وذات مرة رمته بكيس الماء الساخن المملوء، فأصابته وكسرت أحد أسنانه الأمامية. نعم يا روسمن، لقد أصابتك الدهشة!».

«كيف تعرفت إلى الرجل؟» سأله كارل.

«إنه يأتي أحيانًا إلى هنا»، أجابه روبنسن.

«يأتي إلى هنا؟» ومن الدهشة ضرب كارل بكفه على الأرض.

«يحق لك أن تندهش طبعًا»، تابع روبنسن «مثلما اندهشت أنا حينذاك، حينما حكى لي خادمها القصة. تصور، إذا لم تكن برونيلدا في المنزل، كان الرجل يطلب من الخادم أن يقوده إلى مخدعها، فيأخذ دائمًا من هناك شيئًا بسيطًا كتذكار ويترك دائمًا شيئًا فاخرًا لـ برونيلدا، ويمنع الخادم من أن يخبرها مِمَّن. ولكن مرةً عندما أحضر لها معه تحفة خزفية لا تقدر بثمن-حسبما أخبرني الخادم، وأنا أصدقه– عرفت برونيلدا المصدر بطريقة ما، فرمتها فورًا على الأرض وهشمتها بقدميها وبصقت عليها وعملت بها شيئًا آخر، بحيث بالكاد تمكن الخادم نتيجة القرف من أن يحمل الحطام إلى الخارج».

«ما الذي يمكن أن يكون الرجل قد فعله بها؟» سأل كارل.

«في الحقيقة لا أعرف»، أجاب روبنسن «لكني أعتقد أنه لم يفعل شيئًا ذا بال، على الأقل هو نفسه لا يعرف، فقد كنت أتطرق إلى الموضوع أحيانًا خلال أحاديثنا. إنه ينتظرني يوميًا هناك عند زاوية الطريق، فإذا جئتُ، فيجب أن أخبره بالمستجدات. وإذا لم أستطع المجيء، كان ينتظرني نصف ساعة ثم يذهب. كان بالنسبة إليّ مصدر دخل إضافي جيد، إذ كان يدفع ثمن الأخبار بكرم راقٍ، ولكن منذ أن علم ديلامارش بالأمر، بتُ مضطرًا لتسليمه كل ما أقبضه. فصرت نادرًا ما أذهب للقائه».

«ولكن ما الذي يريد الرجل أن يصل إليه؟» سأل كارل «إلامَ يريد الوصول؟ إنه يسمع بالتأكيد أنها لا تريده».

«نعم»، قال روبنسن وهو يزفر، أشعل لنفسه سيجارة ونفث دخانها للأعلى وهو يؤرجح ساعديه بقوة. ثم بدا أنه قد غير رأيه، فقال «وما الذي يهمني من هذا؟ ما أعرفه هو فقط أنه مستعد لدفع مبلغ كبير، مقابل أن يستلقي هنا على البلكون مثلنا».

نهض كارل واقفًا، اتكأ على الدرابزين ونظر إلى الطريق تحت. كان القمر مرئيًا، لكن ضوءه لم يصل إلى عمق الطريق بعد. والطريق الذي كان أثناء النهار خاوياً تمامًا، ولاسيما أمام بوابات الأبنية، ازدحم الآن بالبشر، والجميع يتحركون ببطء وتثاقل. كانت أكمام قمصان الرجال وأثواب النساء الفاتحة الألوان تبرز وإن على نحو ضعيف في الظلام، وكانوا جميعهم حاسري الرؤوس. والبلاكين الكثيرة في الجوار كانت مشغولة كلها، هناك كانت تجلس العائلات في نور لمبة كهربائية، حسب اتساع البلكون، إما حول طاولة صغيرة، أو فقط على كراسٍ ذات مساند في صف واحد أو يمدون رؤوسهم من الغرفة على الأقل. كان الرجال يجلسون مباعدين سيقانهم وأقدامهم ممدودة من بين قضبان الدرابزين، يقرأون جرائد تتدلى من أيديهم وتكاد تلامس الأرض، أو يلعبون الورق، ساكتين ظاهريًا ولكن مع خبطات قوية بالأيدي على الطاولات. أما أحضان النساء فمملوءة بعدة الخياطة، فيما يرمين من حين لآخر نظرة سريعة على الجوار أو على الطريق. ثمة امرأة شقراء ضعيفة

البنية على البلكون المجاور، زائغة النظر ولا تتوقف عن التثاؤب وهي ترفع أمام فمها طوال الوقت قطعة ثياب كانت ترفوها. وحتى على أصغر البلاكين كان الأطفال يجدون متسعًا لمطاردة بعضهم بعضا، الأمر الذي كان يزعج الوالدين. في داخل كثير من الغرف كانت هناك أجهزة غراموفون تبث أغنيات أو موسيقا أوركسترالية، دون أن يبدي أحد اهتماماً بها، ولكن بين الحين والآخر كان الأب يعطي إشارة، فيدخل أحد أفراد العائلة إلى الداخل ليضع أسطوانة جديدة. في كثير من النوافذ كان يرى المرء أزواج عشاق لا تبدر عنهم أدنى حركة. وفي نافذة قبالة كارل ظهر زوج من هذا القبيل واقفًا، العاشق الشاب يحيط الفتاة بذراعه ويضغط بيده على ثديها.

«هل تعرف أحدًا من الجيران؟» سأل كارل روبنسن، الذي نهض أيضًا الآن، ولأنه شعر بالبرد، لف نفسه إضافة إلى الشرشف بغطاء برونيلدا أيضًا.

«لا أحدًا تقريبًا، وهذا هو السيء في حالتي»، أجابه روبنسن وجذبه إلى قربه كي يتمكن من الهمس في أذنه، «وإلا لما كان هناك حاليًا مبرر للشكوى. برونيلدا قامت بسبب ديلامارش ببيع كل ما تملكه وانتقلت مع كل نفائسها إلى هذه الشقة في الضاحية، لتتمكن من تكريس نفسها له وكيلا يزعجهما أحد، وبالمناسبة، كانت هذه رغبة ديلامارش أيضًا».

«وقامت بتسريح طاقم الخدم؟» سأله كارل.

«صحيح تمامًا»، أجاب روبنسن. «وأين المكان هنا لإقامة طاقم الخدم؟ فهؤلاء الخدم أناس متطلبون جدًا. ذات مرة عند برونيلدا طرد ديلامارش من الغرفة أحد هؤلاء الخدم بأن صفعه الصفعة تلو الأخرى ببساطة حتى صار الرجل في الخارج. وكان طبيعيًا أن اتحد الخدم الآخرون معه واحتجوا بصخب أمام الباب، فخرج إليهم ديلامارش (حينذاك لم أكن أنا خادمًا، وإنما صديقًا مقيمًا، ورغم ذلك تآزرت مع الخدم) وسألَهم: «ماذا تريدون؟» والخادم الأكبر سنًا، اسمه إيزيدور، أجاب: «أنت لست مخولًا بالكلام معنا، سيدتنا هي المدام المحترمة». وكما لاحظتَ، لقد كانوا يبجلونها. لكن برونيلدا، دون أن توليهم أي اهتمام، ركضت إلى ديلامارش -وحينذاك لم تكن ثقيلة وبدينة كما الآن- فعانقته أمام

الجميع وقبّلته ونادته «ديلامارش الحبيب، اطرد هؤلاء القرود خارج المنزل»، قالت في الختام: قرود؛ هكذا وصفت الخدم؛ تصور كيف صارت وجوههم. ثم وضعت برونيلدا يد ديلامارش في محفظة نقودها، التي تعلقها بحزامها. دس ديلامارش يده وبدأ يدفع للخدم مؤخر رواتبهم. ولم تسهم برونيلدا في عملية المحاسبة، إلا بوقوفها إلى جانب ديلامارش ممسكة بمحفظة النقود مفتوحة. وكان على ديلامارش أن يمد يده عدة مرات إلى داخلها، لأنه كان يوزع عليهم النقود دون أن يعدها ودون أن يدقق في المطالب. ثم قال أخيرًا: «بما أنكم لا تريدون الكلام معي، أقول لكم باسم برونيلدا وحسب: انقلعوا من هنا، في الحال». وهكذا جرى تسريحهم، ثم كانت هناك بعض المحاكمات، حتى أن ديلامارش نفسه استدعي إلى المحكمة مرة. غير أني لا أعرف تفاصيل دقيقة عن ذلك. ولكن بعد مغادرة الخدم قال ديلامارش لـ برونيلدا: «والآن لم يعد لديكِ خدم»، فقالت: «ولكن روبنسن موجود». وبناء على ذلك قال ديلامارش وخبطني أثناء ذلك على كتفي: «حسنًا إذن، أنت ستكون خادمنا». ثم ربتت برونيلدا على خدي. إذا سنحت الفرصة يا روسمَن، دعها تربت لك على خدك. ستتملكك الدهشة من مدى جمال ذلك».

«هل صرتَ إذن خادم ديلامارش؟» سأله كارل موجزًا الكلام.

سمع روبنسن التأسف من السؤال وأجاب: «أنا خادم، لكن قلة من الناس فقط تلاحظ ذلك. وكما ترى، أنت نفسك لم تعرف، رغم بقائك بعض الوقت عندنا. وقد رأيتَ أي ملابس كنت أرتدي ليلًا عندكم في الفندق. أفخر الثياب الفاخرة كنت ألبس. فهل يخرج الخدم مرتدين مثل هذه الثياب؟ إلا أن المشكلة تكمن في أنه لا يجوز لي أن أخرج كثيرًا، بل يجب أن أكون دائمًا تحت الطلب، ففي شؤون البيت هناك دائمًا ما يجب عمله. وشخص واحد لا يكفي أبداً لكل هذا الشغل. لابد وأنك قد لاحظت أن لدينا في الغرفة كثيرًا من الأغراض المتوزعة هنا وهناك؛ وهي مما لم نتمكن من بيعه عند عملية الانتقال الكبيرة، فأحضرناه معنا. طبعًا كان من الممكن توزيعها كهبات، لكن برونيلدا لا تهب أي شيء. تصور ما كان يجب إنجازه في تعتيل كل هذه الأغراض صعودًا على الدرج».

«روبنسن، أنت حملت كل هذه الأغراض على الدرج؟» سأله كارل.

«ومَن سواي؟» أجاب روبنسن «كان هناك معاون عتّال، وغد كسول؛ كان عليّ إنجاز معظم التعتيل وحدي. برونيلدا وقفت تحت عند الشاحنة، وديلامارش فوق يعطي الأوامر لتنظيم الأغراض، وأنا كنت أعتل بينهما بلا توقف. استغرقت عملية النقل يومين. طويلة جداً، أليس كذلك؟ لكنك لا تعرف مطلقًا كم من الأغراض لدينا هنا في الغرفة، الصناديق ممتلئة جميعها، والمكان وراء الصناديق متخم بالأغراض حتى السقف. لو تم استخدام بعض العتالة لعملية النقل، لجرى كل شيء بسرعة، لكن برونيلدا لم تأتمن أحدًا سواي. كانت هذه لفتة جميلة منها، لكني حينذاك دمرت صحتي لبقية حياتي، وماذا أملك أنا غير صحتي؟ إذا بذلت الآن أقل جهد فإني أشعر بوخز هنا وهنا وهنا. هل تعتقد أن الفتيان في الفندق، هؤلاء الضفادع –وما هم غير ذلك؟- كانوا سيتغلبون علي، لو كنت بكامل صحتي؟ ولكن مهما أصابني، فإني لن أخبر ديلامارش ولا برونيلدا بأي كلمة، سوف أعمل، مادام الأمر ممكنًا، وعندما لا يعود ممكنًا، سوف أستلقي وأموت، وعندها، بعد أن يكون الأوان قد فات، سيريان أني كنت مريضًا، ومضيت رغم ذلك بالعمل باستمرار، إلى أن مت في خدمتهما. آخ يا روسمن»، قال أخيرًا وجفف دموعه بكم قميص كارل. ثم قال بعد برهة: «ألا تشعر بالبرد، وأنت واقف هنا بالقميص؟».

«دعك من هذا، روبنسن»، قال كارل «أنت دائم البكاء. لا أعتقد أنك مريض إلى هذا الحد. أنت تبدو صحيحاً تماما، ولكن لأنك تستلقي باستمرار في البلكون فقد تخيلت أنك مصاب بأمور مختلفة. ربما كنت تعاني وخزة في الصدر، أنا أيضًا أعاني منها، بل الجميع. إذا كان جميع الناس سيبكون من كل إصابة بسيطة مثلك أنت، لتوجب على جميع الناس في كل هذه البلاكين أن يبكوا».

«أنا أعلم بحالي»، قال روبنسن ومسح عينيه الآن بطرف شرشفه وقال «الطالب المستأجر عند جارتنا، التي تطبخ لنا أيضًا، قال لي مؤخرًا حين أعدت الصحون: «اسمع مني يا روبنسن، أنت مريض»، وبما أني ممنوع من التكلم مع الناس، وضعت الصحون وأردت

العودة. فإذا به يلحق بي قائلًا: «اسمع يا رجل، لا تترك الأمر يتجاوز حده، أنت مريض». فسالته: «حسنًا، ماذا يُفترض بي أن أفعل؟»، فأجابني: «هذا شأنك أنت». والتفت عني. فضحك الآخرون الجالسون إلى مائدة الطعام، فأعداؤنا كثر في الجوار، ولذلك فضلت أن أغادر».

«إذن أنت تصغي للناس الذين يسخرون منك، ولا تصدق مَن يريد لك الخير»، علق كارل.

«ولكني يجب أن أتبين حالتي»، قال روبنسن منفعلًا، لكنه سرعان ما عاد إلى البكاء.

«لكنك لا تعرف ما بك، يجب أن تبحث لنفسك عن أي عمل حقيقي، بدل أن تكون هنا خادمًا لـ ديلامارش. فأنا أرى، بناء على ما حكيتَ لي وعلى ما عاينته بنفسي، أن الوضع هنا ليس خدمة، بل عبودية. وأنا أصدقك أنه لا يمكن لإنسان أن يتحمله. لكنك تعتقد، بما أنك صديق ديلامارش، فلا يجوز لك أن تتخلى عنه. وهذا خطأ، فإن لم يدرِك الشقاء الذي تعيشه، فليس عليك أية التزامات تجاهه من بعد».

«إذن، أنت تعتقد حقًا يا روسمن، بأني يمكن أن أستعيد عافيتي، إذا تركتُ الخدمة هنا؟».

«حتمًا»، قال كارل.

«حتمًا؟» سأل روبنسن ثانية.

«بكل تأكيد»، قال كارل ضاحكًا.

«إذن يمكنني البدء منذ الآن باستعادة عافيتي»، قال روبنسن ناظرًا في عيني كارل.

«وكيف هذا؟».

«لأنك من المفترض حتمًا أن تقوم عني بشغلي هنا»، أجاب روبنسن.

«مَن قال لك ذلك؟» سأل كارل.

«إنها خطة قديمة. كنا نحكي فيها منذ عدة أيام، منذ أن عنَّفتني برونيلدا، لأني لا أنظف البيت جيدًا. أنا وعدتها طبعًا بأني سأرتب كل شيء في القريب العاجل. لكن هذا في غاية الصعوبة. فأنا في وضعي الحالي لا أستطيع الزحف إلى كل موضع، لكي أمسح الغبار، فحتى في منتصف الغرفة يصعب على المرء التحرك، فكيف في تلك المواضع بين قطع الأثاث والمؤونة الاحتياطية؟ وإذا أراد المرء التنظيف بصورة جذرية فعليه أن يزيح قطع الأثاث من أماكنها، فكيف لي القيام بذلك وحدي؟ وفوق هذا لابد من القيام بالأمر بكل هدوء، إذ لا يجوز إزعاج برونيلدا، التي نادرًا ما تترك الغرفة. صحيح أني وعدتُ بتنظيف كل شيء، لكنني فعليًا لم أفعل ذلك. وعندما لاحظت برونيلدا ذلك، قالت لـ ديلامارش إن هذا الحال لا يمكن أن يستمر، ولابد من استخدام معاون. وقالت: «أنا لا أريد يا ديلامارش أن تلومني ذات يوم لكوني لم أدبر شؤون البيت على نحو جيد. فأنا لا يمكنني إجهاد نفسي، وأنت تدرك ذلك، وروبنسن لا يكفي؛ في البداية كان نشيطًا ونظف في كل المواضع، أما الآن فهو دائم التعب، ويجلس غالبًا في ركن ما. لكن غرفة مثل غرفتنا بكل هذا الأثاث، لا تنظِف وترتِب نفسها بنفسها». بناء على ذلك فكر ديلامارش بما يمكن عمله بهذا الشأن، إذ لا يمكن طبعًا استخدام أيًا كان في مثل وضعنا، ولا على سبيل التجربة، فجميع مَن حولنا يترصدوننا. ولكن بما أنني صديقك وسمعت من زميلك رينِل عن كدِّك في العمل في الفندق، فقد اقترحتك. وفورًا وافق ديلامارش، رغم أنك حينذاك قد تصرفت حياله بفظاظة، وأنا سررت جدًا طبعًا لقدرتي على أن أكون مفيدًا لك على هذا النحو. فهذا العمل كأنه خُلق من أجلك، أنت فتي وقوي وماهر، في حين أني لم أعد نافعًا لشيء. ولكن لابد من أن أقول لك بأنك لستَ مقبولًا كخادم بعد؛ فإن لم تنل إعجاب برونيلدا، فلا حاجة لنا بك. اعمل إذًا على أن تريحَها، وأنا سأتكفل بالباقي».

«وماذا ستفعل أنت، إذا صرتُ أنا هنا خادمًا؟» سأله كارل، وقد شعر بنفسه حرًا، فحالة الرعب الأولى، التي سببتها له تصريحات روبنسن، زالت. فديلامارش لم يكن يضمر نوايا سيئة تجاهه، أكثر من أن يجعله خادمًا –ولو أضمر نوايا أسوأ، لباح بها بالتأكيد الثرثار

روبنسن– ولكن بما أن الوضع هكذا، فسيجرؤ كارل في هذه الليلة على تنفيذ الانفكاك عنهم. إذ لا يمكن لأحد أن يجبر المرء على قبول عمل لا يريده. وفي حين كان كارل سابقًا مشغولَ البال، بما إذا كان بعد تسريحه من الفندق، سيجد بسرعة عملًا يحميه من الجوع، عملًا ملائمًا ولائقًا إن أمكن، فقد بدا له أي عمل الآن مقبولًا، مقارنة بالخدمة المقيتة التي اختيرت له هنا، بل إنه يفضل ضائقة البطالة على هذه الخدمة. إلا أنه لم يحاول على الإطلاق تفسير هذا لـ روبنسن، لاسيما وأن روبنسن في أحكامه الآن، أسير أمل أن يخلصه كارل من محنته.

«ما سوف أفعله»، أجاب روبنسن ورافق كلامه بحركات بيديه تدل على ارتياحه –ساندًا مرفقيه على الدرابزين– «هو أني سأبدأ بشرح كل شيء لك وبأن أريك المؤونة. أنت متعلم ولا شك في أن خطك جميل، فسيكون بإمكانك فورًا البدء بكتابة سجل يتضمن كل ما لدينا. كم تمنت برونيلدا أن يكون لديها مثل هذا السجل. وغدًا إذا كان الطقس جميلًا سنرجو برونيلدا أن تجلس في البلكون، وفي أثناء ذلك سنتمكن نحن من العمل في الغرفة دون أن نزعجها. إذ عليك يا روسمن أن تنتبه لهذا الأمر قبل كل شيء: ألا تزعج برونيلدا. فهي تسمع كل شيء، ربما كان سمعها عالي الحساسية لأنها مغنية. مثلًا أن تدحرج برميل الخمر المنتصب وراء الصندوق الكبير كي تخرجه، هذا يسبب ضجة لأنه ثقيل ولوجود كثير من الأغراض المختلفة حوله، بحيث لا يتمكن المرء من دحرجته بمحاولة واحدة. وبرونيلدا مستلقية على الكنبة مثلًا وتصطاد الذباب الذي يزعجها جدًا. فتظن أنت أنها غير مبالية بك، فتتابع دحرجة البرميل. وهي مازالت مستلقية بهدوء، ولكن في لحظة لا تتوقعها أنت أبدًا، لأنك تسبب أقل ما يمكن من الضجة، تنتصب جالسة على كنبتها، تضرب بكلتيّ يديها على الكنبة، بحيث تغيب وسط سحابة الغبار –منذ بداية سكننا هنا لم أنفض الكنبة؛ لا يمكنني ذلك، لأنها مستلقية عليها طوال الوقت– وتبدأ بصياح مريع، كأنها رجل، وتستمر ساعات في الصياح. لقد منعها الجيران من الغناء، ولكن لا أحد يمكنه منعها من الصياح والصراخ، ولابد لها من أن تصرخ. بالمناسبة، هذه الحالات تناقصت مؤخرًا، فأنا وديلامارش صرنا شديدي الحذر، كما أنها قد ألحقت الضرر بنفسها. ذات مرة غشي عليها

من شدة الصياح، وديلامارش لم يكن في البيت، فاضطررت إلى إحضار جارنا الطالب، الذي رشَّها بسائل من زجاجة كبيرة، فاستعادت وعيها، ولكن كانت لهذا السائل رائحة لا تُطاق، وحتى الآن إذا وجَّه المرء أنفه نحو الكنبة، فإنه سيشمها. الطالب عدونا لا شك، مثل الجميع هنا، لذلك عليك أن تأخذ حذرك من الجميع ولا تخالط أحدًا منهم».

«اسمع يا روبنسن»، قال كارل «هذه خدمة من العيار الثقيل، ويا لجمال هذا العمل الذي اقترحتني لأقوم به».

«لا تشغل بالك»، قال روبنسن وهز رأسه بعينين مغمضتين، ليصد جميع مخاوف كارل الممكنة، «هذا العمل له مزاياه أيضًا، التي لا يمكن أن يقدمها لك أي عمل آخر. فأنت ستكون باستمرار قرب سيدة هي برونيلدا، وأحيانًا ستنام وإياها في الغرفة نفسها، وهذا بحد ذاته كما يمكنك أن تتصور يجلب معه أشكالًا متنوعة من المتعة. سيدفعان لك بسخاء، فالمال وافر جدًا. أنا بصفتي صديق ديلامارش لم أحصل على أي شيء؛ وفقط عندما أخرج للسهرة كانت برونيلدا تمنحني بعض النقود. أما أنت فسيدفعان لك كأي خادم آخر طبعًا، وأنت بطبيعة الحال خادم ليس إلا. لكن الأكثر أهمية بالنسبة إليك، هو أني سأسهِّل عليك عملك جدًا. في البداية لن أفعل شيئًا طبعًا، كي أستعيد عافيتي، ولكن ما أن أستعيد شيئًا منها، فسيمكنك الاعتماد علي. القيام بخدمة برونيلدا نفسها سوف أحتفظ به لنفسي بصورة عامة، أي تسريح شعرها وإلباسها ثيابها، إن لم يقم ديلامارش بذلك. وعملك أنت سينحصر في ترتيب الغرفة وشراء اللوازم والأعمال المنزلية الثقيلة».

«لا، روبنسن، هذا كله لا يغريني»، قال كارل.

«لا تكن أحمق يا روسمن»، قال روبنسن قرْب وجه كارل وأردف «لا تضيِّع من بين يديك هذه الفرصة الطيبة. أين ستحصل قريبًا على عمل؟ مَن يعرفك؟ مَن تعرف أنت؟ نحن، الرجلان اللذان خاضا الكثير ويملكان خبرات كبيرة، تجولنا طوال أسابيع ولم نجد عملًا. ليس الأمر سهلًا، بل صعبًا إلى حد اليأس».

أطرق كارل مستغربًا قدرة روبنسون على الكلام منطقيًا. إلا أن هذه النصائح لا تصلح له، فهو لا يجوز أن يبقى هنا، وفي المدينة الكبيرة لابد وأن يجد لنفسه مكانًا صغيرًا، فجميع الفنادق ممتلئة طوال الليل، وهو يعرف ذلك، وثمة حاجة هناك لخدمة الضيوف، وهو قد تدرب على ذلك. وسيتمكن بسرعة ويسرٍ من أن ينتظم في سلك أحد الفنادق. حتى هنا في البناء المقابل يوجد في الطابق الأرضي فندق صغير، تنبعث منه موسيقا صادحة. مدخله الرئيسي مغطى بستارة كبيرة صفراء، يحركها أحيانًا تيار الهواء بقوة فترفرف في الطريق. فيما عدا ذلك بدأ الهدوء يسود مجددًا في الزقاق. معظم البلاكين انطفأت أضواؤها، ولم يتبق إلا في البعيد بعض الأضواء المنفردة، ولكن ما أن يُثبِّت المرء نظره لبرهة على أحدها، حتى ينهض الناس هناك، وبينما هم يندفعون إلى داخل المسكن، يمسك رجل اللمبة ويبرمها وهو يلقي نظرة أخيرة على الطريق ثم يسود الظلام.

«ها قد بدأ الليل»، قال كارل في نفسه، «إذا بقيت مدة أطول هنا، فسأصبح واحدًا منهم». استدار لكي يزيح الستارة من أمام باب الغرفة.

«ماذا تبغي؟» سأله روبنسن ووقف حائلًا بينه وبين الستارة.

«أريد أن أرحل»، قال كارل «ابعد من طريقي! ابعد من طريقي!».

«لن أدعك تزعجهما»، قال روبنسن «ماذا دهاك!» وأحاط عنق كارل بذراعيه وتعلق بكل ثقله عليه، وأحاط ساقي كارل بساقيه وسحبه في لحظة واحدة إلى الأرض. لكن كارل الذي تعلم شيئًا من الملاكمة مع فتيان المصاعد، لكمَ بقبضة يمينه روبنسن تحت ذقنه، إنما بضعف وكثير من الرفق به. فضربه روبنسن بركبته بسرعة وبكل قوته في بطنه، ثم وضع كلتي يديه على ذقنه المصابة وبدأ يعول بصوت عال، بحيث سُمِع من البلكون المجاور تصفيقًا عنيفًا وصوت رجل يقول بلهجة آمرة «هدوء!». بقي كارل ساكنًا لبرهة كي يتغلب على الألم الذي سببته ضربة روبنسن. لكنه التفت برأسه فقط إلى الستارة. كانت منسدلة بهدوء وثقل أمام الغرفة المعتمة، التي بدت َخاوية لا أحد فيها. ربما خرج ديلامارش مع

برونيلدا ليسهرا، وبالتالي امتلك كارل كامل الحرية. أما روبنسن، الذي تصرف حقًا مثل كلب حراسة، فقد خرج من المعركة نهائيًا.

عند ذلك تناهت من البعيد من الطريق أصوات طبول وأبواق. وسرعان ما اتحدت صيحات إفرادية لأشخاص كثيرين في صياح عام. أدار كارل رأسه ورأى كيف دبت الحياة من جديد في جميع البلاكين. أخذ ينهض ببطء، لكنه لم يستطع الوقوف منتصبًا تمامًا، فكان مضطرًا للاتكاء بكل ثقله على الدرابزين. تحتْ على الرصيف كان ثمة شبان يمشون مشية شبه عسكرية بخطوات واسعة وأذرع ممدودة، قبعاتهم مرفوعة بأيديهم ووجوههم ملتفتة إلى الوراء. أما طريق السيارات فقد بقي خاليًا. وكان بعض الأفراد يؤرجحون على عصي طويلة فوانيس ورقية يغلفها دخان أصفر. وفي تلك اللحظات تقدم إلى الضوء نافخو الأبواق وقارعو الطبول في صفوف عريضة، فأثارت كثرتهم دهشة كارل، وفي الوقت نفسه سمع أصواتًا وراءه، فاستدار ورأى أن ديلامارش كان يزيح الستارة الثقيلة جانبًا، ثم خرجت من عتمة الغرفة برونيلدا بثوبها الأحمر، وقد وضعت على كتفيها شالًا من الدانتيلا، وغطت رأسها بقلنسوة صغيرة، ربما لتغطي شعرها غير المسرَّح، الذي كانت تظهر نهاياته مشعثة من بعض المواضع تحتها. وكانت تحمل في يدها مروحة صغيرة مفرودة، لم تكن تحركها، بل تضغطها على جسمها.

زحل كارل نفسه على طول الدرابزين جانبًا، ليفسح في المكان لكليهما. من المؤكد أن لا أحدًا سيجبره على البقاء هنا، وحتى إذا أراد ديلامارش أن يحاول فإن برونيلدا بناء على رجائه ستطلقه فورًا. فهي لم تتحمله إطلاقًا، وعيناه أفزعتاها. لكنه عندما سار خطوة نحو الباب، لاحظت ذلك فورًا وقالت: «إلى أين يا صغير؟» توقف كارل بفعل نظرات ديلامارش الصارمة فيما جذبته برونيلدا إليها وهي تقول «ألا تريد أن تلقي نظرة على المسيرة تحت؟» ودفعته أمامها إلى الدرابزين، ثم سمعها تسأل وراءه «هل تعرف ما الموضوع؟» وحاول عبثًا بحركة لاإرادية أن يتخلص من ضغطها. نظر بحزن إلى الطريق تحت، وكأن سبب حزنه يكمن هناك.

كان ديلامارش أول الأمر واقفًا وراء برونيلدا متصالب الذراعين ثم أسرع إلى الغرفة وأحضر لها منظار الأوبرا. تحت في الطريق ظهر وراء الموسيقيين الجزء الرئيسي من الموكب. ثمة سيد كان يجلس على كتفي رجل عملاق، ومن هذا الارتفاع لم يرَ المرء من السيد غير صلعة رأسه، التي كانت تلمع باهتة، ممسكًا بيده فوقها قبعته الأسطوانية، التي كان يرفعها عاليًا طوال الوقت محييًا الجماهير. ومن حوله رُفِعت عاليًا لافتات خشبية بدت للناظرين من البلكون بيضاء كليًا؛ وقد تم ترتيب الأمر، بحيث تميل جميع هذه اللافتات المحمولة نحو السيد من جميع الجهات، فيما يرتفع هو من وسطها. وبما أن الكل كانوا يتحركون قُدُمًا، فإن جدار اللافتات هذا كان يتفكك باستمرار ليعود فيلتئم من جديد. في المحيط الأوسع حول السيد كان الطريق بكامل عرضه وعلى امتداد يصعب تقدير مداه بسبب العتمة، مكتظًا بأنصار السيد، الذين كانوا كلهم يصفقون بأيديهم ويهتفون بصوت ملحَّن، على الأرجح باسم السيد، وهو اسم قصير جدًا وغير مفهوم. وكان هناك أفراد موزعين بصورةٍ منظمة بين الحشد يحملون أضواء سيارات ذات إنارة باهرة، راحوا يسلطونها على واجهات الأبنية على جانبي الطريق نحو الأعلى والأسفل ببطء. في الطابق الأعلى حيث وقف كارل، لم تعد هذه الإنارة مزعجة، أما على البلاكين المنخفضة، فقد شوهد الواقفون هناك يغطون عيونهم بأيديهم ما أن تسلط الإضاءة عليهم.

بناء على طلب برونيلدا استفسر ديلامارش من الواقفين على البلكون المجاور عن المقصود من هذا الاحتفال، ما أثار فضول كارل نوعًا ما ليعرف استجابة الجيران له. والحق أن ديلامارش اضطر للسؤال ثلاث مرات، دون أن يحصل على جواب، فانحنى على الدرابزين على نحو خطير، ما دفع برونيلدا نتيجة انزعاجها من الجيران إلى خبط الأرض بقدمها خبطة خفيفة، لكن كارل أحس بركبتها. وأخيرًا جاء جواب ما، وفي الوقت نفسه بدأ الجميع على بلكون الجيران، وكانوا كثرًا، بالضحك بصوت عال. على أثر ذلك صاح ديلامارش بشيء ما في ذاك الاتجاه بصوت عال جدًا، ولولا الضجيج الكبير في الزقاق في تلك اللحظات، لأصغى الجميع في الجوار مندهشين. ورغم ذلك أدى تأثير صياحه إلى توقف الضحك فجأة على نحو غير طبيعي.

«غدًا سيتم في منطقتنا انتخاب قاضٍ، وهذا الذي يحملونه تحت هو مرشح»، قال ديلامارش لـ برونيلدا بكل هدوء، ثم صاح «لا!» وربَّت على ظهر برونيلدا مداعبًا وأردف «ما عدنا نعرف شيئًا عما يجري في الدنيا».

«ديلامارش»، قالت برونيلدا منوهة إلى سلوك الجيران «كم كان بودي الانتقال من هنا، لو أن الأمر لم يكن مرهقًا جدًا! وللأسف لا يجوز لي أن أجازف بالجور على نفسي». ومع كثير من الزفرات والقلق والشرود أخذت تُلحْمِس على قميص كارل، الذي كان يحاول ما أمكنه دون أن يثير الانتباه إبعاد هاتين اليدين الصغيرتين السمينتين عنه، وقد نجح في ذلك بسهولة، لأن برونيلدا لم تكن تفكر فيه، بل كانت مشغولة بأفكار مختلفة كليًا.

لكن كارل سرعان ما نسي برونيلدا أيضًا وتحمَّل ثقل ساعديها على كتفيه، إذ استغرقه الاهتمامُ بما يجري تحت في الطريق. فبناء على توجيه مجموعة صغيرة من الرجال، الذين كانوا يتفاهمون بالإشارات اليدوية، ويمشون لصق المرشح تقريبًا، والذين بدت حواراتهم ذات أهمية خاصة، لأن معظم الوجوه المحيطة بهم كانت مائلة نحوهم في حالة إصغاء، توقف الموكب على نحو غير متوقع أمام الفندق. وأحد أفراد هذه المجموعة القيادية أعطى إشارة بيده المرفوعة للحشد وللمرشح على حدٍ سواء. صمت الحشد، أما المرشح الذي حاول مرارًا الوقوف على كتفي حامله العملاق وفشل، فعاد إلى وضعية الجلوس، فقد ألقى خطبة وهو يلوح في أثنائها بقبعته الأسطوانية بسرعة كبيرة. كان هذا بالغ الوضوح للجميع، لأن جميع مصابيح السيارات كانت مسلطة عليه، بحيث كان يتحدث في وسط نجمة ساطعة.

والآن بدأ المرء يدرك مدى الاهتمام الذي أولاه الشارع كله لهذا الحدث. ففي البلاكين الممتلئة بأنصار حزب المرشح، شارك الناس في غناء اسمه وهم يمدون أيديهم خارج الدرابزينات ويصفقون بإيقاع آلي. وفي بقية البلاكين التي شكّلت الغالبية، ارتفعت الأصوات بغناء مضاد، لكنه لم يحظ بتأثير عام، لأن أصحابه كانوا أنصارًا لمرشحين مختلفين. ورغم ذلك اتحد من ثم جميع أعداء المرشح الموجود في الطريق بإطلاق صفير

عام، كما أعيد تشغيل الكثير من الغراموفونات. وبين بعض البلاكين المتجاورة نشبت نزاعات سياسية بانفعال متزايد، أكدته هذه الساعة الليلية. كان أغلب الرجال في ثياب النوم وقد رموا فوقها سترات لا غير، في حين لفّت النساء أنفسهن بأوشحة كبيرة داكنة، وتسلق الأطفال البعيدين عن الانتباه أسوار البلاكين على نحو يثير الفزع وهم يتدفقون بتزايد من الغرف المعتمة، حيث كانوا نائمين. من هنا وهناك بدأ المنفعلون على نحو خاص بقذف أشياء لا يمكن تمييزها باتجاه خصومهم، وكانت أحيانًا تصيب أهدافها، لكنها غالبًا ما كانت تسقط على الطريق، فتتسبب غالبًا أيضًا في صراخ غاضب. وعندما يصير الضجيج مزعجًا لا يُحتمل بالنسبة لمجموعة الرجال القياديين كانوا يكلفون عازفي الأبواق وقارعي الطبول بالتدخل، فيأتي فاصلهم الموسيقي الساحق المنطلق بكل قوة والذي يبدو بلا ختام، ليشكل كتمًا لجميع الأصوات البشرية حتى سطوح الأبنية العليا. وعلى نحو مفاجئ تمامًا كالعادة –الأمر الذي لا يُصدَّق- توقفت الموسيقى، وعقب ذلك مباشرة انطلق الحشد في الطريق في لحظة الصمت التام التي حلت، حسب تدريبه المسبق، في غناء نشيده الحزبي بأعلى صوت -وفي نور أضواء السيارات رأى المرء أفواه أفراد الحشد المفتوحة على آخرها-، إلى أن استعاد الأعداء وعيهم فانطلقوا يصيحون من جميع البلاكين والنوافذ بصوت أعلى بعشرة أضعاف من السابق، حتى أسكتوا نهائيًا الحزب في الطريق بعد نصره القصير.

«كيف تجد الأمر يا صغير؟» سألت برونيلدا، التي كانت تتحرك جيئة وذهابًا وراء كارل مباشرة، كي تحظى بالمنظار برؤية كل شيء ما أمكنها. أجابها كارل بإيماءة وحسب، ولاحظ إلى جانبه روبنسن وهو يحكي بحماس لـ ديلامارش أخبارًا مختلفة، تتعلق على الأرجح بسلوك كارل، ولكن بدا أن ديلامارش لا يوليها كبير أهمية، فقد حاول بيسراه – يمناه كانت ملتفة حول برونيلدا– أن يدفع عنه روبنسن باستمرار.

«ألا تريد أن ترى بالمنظار؟» سألت برونيلدا ووضعت أصبعها على صدر كارل لتوضح أنها تعنيه بسؤالها.

«أرى ما يكفي»، أجاب كارل.

«ومع ذلك حاول به، فسوف ترى أفضل».

«عندي عينان جيدتان، أرى بهما جيدًا»، أجاب كارل، وعندما قربت المنظار من عينيه، لم يعتبر ذلك مجاملة بل إزعاجًا، وفعلًا لم تقل الآن سوى كلمة «أنت!» منغمة ولكن متوعدة. فوضع كارل المنظار على عينيه، لكنه حقًا لم يرَ شيئًا، فقال:

«لكني لا أرى شيئًا»، وأراد التخلص من المنظار، لكنها كانت تمسك المنظار بثبات، كما أن رأسه الذي وسدته على صدرها، لم يستطع كارل تحريكه إلى الخلف ولا جانبيًا.

«لكنك ترى الآن بصورة أفضل»، قالت وأدارت قلاووظ تعيير الرؤية.

«لا، ما زلت لا أرى شيئًا»، قال وفكر بأنه قد خفف الحمل على روبنسن فعلًا ورغمًا عنه، فمزاجيات برونيلدا المزعجة قد انصبت الآن عليه.

«متى سترى أخيرًا؟» قالت وتابعت تدوير القلاووظ، وكان وجه كارل كله الآن في مجال أنفاسها الثقيلة، «والآن؟».

«لا، لا، لا!» صاح كارل، رغم أنه فعليًا قد بدأ الآن يميز الأشياء وإن بعدم وضوح. في تلك اللحظة انشغلت برونيلدا بأمر ما مع ديلامارش، فكان إمساكها بالمنظار أمام عيني كارل مرتخيًا، فتمكن من دون أن تنتبه لذلك، من مشاهدة الطريق من تحت المنظار. بعد ذلك غيرت مشيئتها واستخدمت المنظار لترى بنفسها.

من مطعم الفندق تحت خرج نادل إلى العتبة وأخذ يسجل بسرعة طلبات قادة الموكب. كان بالإمكان ملاحظته وهو يمد قامته ليطل على داخل المطعم ولينادي عدداً من الندل إليه. وفي أثناء التحضيرات لتقديم، على ما بدا، مشروب مجاني على نطاق واسع، لم يتوقف المرشح عن الكلام. وكان حامله العملاق الذي يخدمه وحده، يقوم كل بضعة جمل

من الخطبة بدورة صغيرة كي تصل الخطبة إلى جميع أقسام الحشد. كان المرشح يبقي ظهره معظم الوقت محنيًا جدًا، محاولًا من خلال الحركات الارتدادية ليده الحرة والقبعة الاسطوانية بيده الأخرى أن يُسبغ على كلماته تأثيرًا ملحًا. ولكنه أحيانًا وفي فواصل زمنية منتظمة تقريبًا، كان يتحمس، فينهض بذراعين مبسوطتين، فلا يخاطب مجموعة وحسب، بل الحشد كله وسكان الشقق حتى الطوابق العليا، ومع ذلك كان جليًا تمامًا، أنّ حتى سكان الطوابق السفلية لم يكن بمقدورهم سماع كلامه، بل إنهم ما كانوا يريدون سماعه، حتى لو كان الأمر ممكنًا، ففي كل نافذة وفي كل بلكون كان هناك خطيب يصدح بأعلى صوته. في هذه الأثناء أحضر بعض الندل من المطعم لوحًا خشبيًا بحجم طاولة بلياردو وقد صُفت عليه كؤوس مملوءة لمّاعة. رتب منظمو الموكب التوزيع بأن يمر الناس أمام باب المطعم. ولكن رغم أن الكؤوس على اللوح كانت تُملأ مجددًا، فإنها لم تكن كافية للحشد، فكان على طاقمين من السُقاة أن ينسلوا على يمين ويسار اللوح ليتابعوا ملء الكؤوس لبقية الحشد. كان المرشح قد توقف عن الكلام طبعًا واستغل الاستراحة ليجدد قواه. فذهب به حامله بعيدًا عن الحشد والإضاءة الساطعة وأخذ يمشي به ببطء جيئة وذهابًا، ولم يرافقه إلا بعض أقرب أنصاره إلى هذه الزاوية، حيث أخذوا يحادثونه في عليائه.

«انظر إلى الصغير، من استغراقه في المشاهدة نسي أين هو»، قالت برونيلدا وفاجأت كارل بأن أدارت وجهه بكلتيّ يديها نحوها، بحيث تمكنت من النظر في عينيه. لكن هذا لم يستغرق أكثر من لحظة، إذ سرعان ما نفض كارل يديها عنه، ونتيجة انزعاجه من عدم تركه برهة في هدوء، ولرغبته في الوقت نفسه بالنزول إلى الطريق ليشاهد كل شيء من قرب، حاول بكل طاقته تحرير نفسه من ضغط برونيلدا وقال:

«رجاء، دعيني أرحل».

«أنت سوف تبقى عندنا»، قال ديلامارش دون أن يبعد عينيه عن الطريق، ومد إحدى يديه فقط ليمنع كارل من الرحيل.

«دعك من هذا»، قالت برونيلدا وأزاحت يد ديلامارش وأردفت «إنه سيبقى»، وشددت من ضغطها على كارل باتجاه الدرابزين، فكان عليه أن يتصارع معها كي يحرر نفسه منها. وحتى لو نجح في ذلك، فما الذي كان سيكسبه! على يساره وقف ديلامارش وعلى يمينه وقف الآن روبنسن. إنه في حالة أسر تامة.

«اعتبر نفسك محظوظًا لأنك لم تُطرد من هنا»، قال روبنسن وربت على يد كارل التي مررها تحت ذراع برونيلدا.

«يُطرد من هنا؟» تساءل ديلامارش «اللص الهارب لا يُطرَد، بل يُسلَّم إلى الشرطة. وهذا يمكن أن يجري غدًا صباحًا، إن لم يهدأ تماماً».

منذ هذه اللحظة لم يعد في المسرحية تحت ما يُمتِع كارل. ومضطرًا فقط لكونه بسبب برونيلدا غير قادر على الوقوف منتصبًا، انحنى قليلًا على الدرابزين. كان مشحونًا بهمومه الخاصة فأخذ بنظرات شاردة يتابع الناس تحت، الذين كانوا يتقدمون من باب المطعم في مجموعات من نحو عشرين رجلًا، فيمسكون الكؤوس ويستديرون نحو المرشح المنشغل الآن بنفسه، يهزون الكؤوس هزة خفيفة ويصيحون بتحية الحزب، يفرغون الكؤوس في أفواههم، ويعيدونها إلى اللوح مع خبطات مدوية بكعوبها، ولكن غير مسموعة من هذا الارتفاع، وليفسحوا المجال للمجموعة التالية التي ضاجت من فقدان الصبر، لتأخذ مكانهم. بتكليف من قياديي الموكب خرجت إلى الطريق الفرقة الموسيقية، التي كانت حتى ذلك الحين تعزف داخل الفندق، فتلألأت آلاتها النحاسية من بين الحشد الداكن، إلا أن عزفها تلاشى تقريبًا في الضجيج العام. كان الطريق الآن، على الأقل في الجانب الذي يوجد فيه الفندق، مزدحمًا بالناس. كانوا يتدفقون من أعلى الطريق، من حيث أتى كارل بسيارة الأجرة صباحًا، وكانوا يصعدون من تحت، قادمين من جهة الجسر، وحتى الناس في البلاكين لم يستطيعوا مقاومة الإغراء، للتدخل بأيديهم في هذا الحدث، فلم يتبق في البلاكين وعلى النوافذ إلا النساء والأطفال تقريبًا، فيما اندفع الرجال خارجين من بوابات الأبنية. كانت الموسيقى والمشروبات الآن قد حققت هدفها، فقد بلغ عدد المجتمعين حجمًا

كافيًا. أحد اثنين قياديين مزودين بمصباحي سيارات أشار للموسيقيين بالتوقف، ثم أطلق صفرة قوية، فشوهد الآن الحامل العملاق، الذي تاه عن الدرب قليلًا، يندفع بسرعة والمرشح على كتفيه في درب شقه له الأنصار بين الحشد.

ما أن وصل إلى باب المطعم حتى بدأ المرشح بخطبته الجديدة وسط حلقة ضيقة من مصابيح السيارات الموجهة إليه. لكن الآن صار كل شيء أصعب بكثير من السابق، فالحامل العملاق لم يعد لديه أي حيز لحرية الحركة، فالازدحام كان عظيمًا. والأنصار الأقرب إلى المرشح، الذين حاولوا سابقًا بكل الوسائل تقوية تأثير خطابه، باتوا يجدون صعوبة الآن في البقاء على مقربة منه، ونحو عشرين منهم تمسكوا بعناء بالحامل. ولكن حتى هذا الرجل القوي لم يعد قادرًا على المشي خطوة بمشيئته، ولم يعد هناك مجال حتى للتفكير في التأثير على الجموع عن طريق التفافات أو تقدمٍ ملائمٍ إلى الأمام أو التراجع خطوة إلى الوراء. كانت الجموع تتدفق من دون خطة، كل فرد مائل على الآخر، دونما قدرة على الوقوف منتصبًا، وبدا أن الأعداء قد تكاثروا جدًا بوصول جموع جديدة. حافظ الحامل طويلًا على وقوفه قرب باب المطعم، لكنه ترك نفسه الآن، ظاهريًا دون مقاومة، لينجرف مع حركة الجموع إلى أعلى وأسفل الطريق، والمرشح مستمر في الكلام، ولكن لم يعد جليًا، ما إن كان يعرض برنامجه أو يصيح طالبًا المساعدة؛ وإن لم يكن كل ما يراه المرء خداعًا، فقد ظهر مرشح مضاد، بل عدد منهم، ففي التماعات أشعة المصابيح المتحركة هنا وهناك كان المرء يرى رجلًا تحمله الجماهير، بوجه شاحب وقبضتين مكورتين، يلقي خطبة تلاقي صيحات ترحيب متعددة الأصوات.

«ما الذي يحدث هناك؟» سأل كارل ملتفتًا إلى حراسه مبهور الأنفاس.

«كم ينفعل الصغير بالأمر!» قالت برونيلدا لـ ديلامارش وأمسكت بذقن كارل، كي تجذب رأسه إليها. لكن كارل لم يرتح لذلك، وكانت أحداث الطريق قد جعلته لامباليًا تمامًا، فانتفض بقوة، بحيث أن برونيلدا لم تسحب يدها فحسب، بل تراجعت خطوة تاركة إياه كليًا وقالت مستاءة من سلوكه:

«لقد رأيتَ ما يكفي. ادخل إلى الغرفة، رتب السرير وهيئ كل شيء لليل»، ومدت يدها مشيرة نحو الغرفة، إلى الاتجاه الذي أراد كارل منذ ساعات أن يأخذه، فلم يعارض بأي كلمة.

في تلك اللحظة سُمع من الطريق صوت تحطم زجاج كثير. لم يستطع كارل ضبط نفسه وقفز بسرعة إلى الدرابزين كي يلقي نظرة سريعة إلى تحت. كان هجومًا من جانب الأعداء وحاسمًا ربما، وقد نجح، فمصابيح السيارات التي استخدمَ الأنصار إنارتها القوية على الأقل لجعل جميع المجريات علنية، وبالتالي حافظوا عليها ضمن حدود معينة، تم تحطيمها جميعها وفي التوقيت نفسه، فأحاطت بالمرشح وحامله الآن إضاءة الطريق المشتركة غير المأمونة، التي كان لانتشارها السريع تأثير يعادل الظلمة التامة. ولم يكن بوسع أحد تخمين، ولو على وجه التقريب، مكان وجود المرشح. كما ازداد عنصر الظلام المخادع مع بدء غناءٍ عريض وموحد يقترب من أسفل الطريق من جهة الجسر.

«ألم أقل لك ماذا عليك أن تفعل الآن! هيا أسرع. أنا متعبة»، قالت برونيلدا ورفعت ذراعيها عاليًا، بحيث برز ثدياها أكثر بكثير من الحالة العادية، وديلامارش الذي مازال يحيطها بذراعه، جذبها معه إلى زاوية البلكون. وتبعهما روبنسن كي يزيح جانبًا بقايا أكله التي مازالت هناك. وكان على كارل أن يستفيد من هذه الفرصة المناسبة، لا وقت الآن للنظر إلى الطريق، وسيرى من مجريات الطريق تحت ما يكفيه وأكثر مما يراه من البلكون. اجتاز الغرفة المضاءة بالأحمر بقفزتين، لكن الباب كان مقفلًا والمفتاح ليس في الثقب. إذن لابد من العثور عليه، ولكن كيف يمكن العثور على مفتاح باب في هذه الفوضى وفي هذا الوقت القصير الثمين المتبقي أمام كارل! كان يفترض به أن يكون على الدرج الآن، كان الأجدر به أن يركض ويركض. وبدأ البحث عن المفتاح! بحث عنه في جميع الأدراج المتاحة، بحث على الطاولة بين صحون وأدوات أكل مختلفة ومناديل مائدة، وقطعة شغل صوف غير منتهية، أغراه مقعد ذو مساند، حيث تكومت مجموعة من ثياب قديمة متهرئة يُحتمل أن يكون المفتاح فيها، لكنه لم يعثر على شيء، وارتمى أخيرًا على الكنبة ذات الرائحة الكريهة حقًا، كي يبحث في جميع الزوايا والثنايا. ثم توقف عن البحث وجمد في وسط الغرفة، لابد

من أن يكون المفتاح مثبتًا على حزام وسط برونيلدا، قال في نفسه، فهناك علقت وثُبتت أشياء كثيرة، كل البحث هنا كان بلا جدوى.

من دون تفكير وبسرعة تناول كارل عن الطاولة سكّينين ودفع نصليهما بين مصراعي الباب، الأول فوق والثاني تحت، كي يحصل على نقطتي ضغط متباعدتين الواحدة عن الأخرى، لكنه ما كاد يضغط على القبضتين حتى انكسر النصلان طبعًا. وهو لم يُرِد غير ذلك، فبقية النصلين السميكين، اللذين سيتمكن الآن من دفعهما بصورة أكثر ثباتًا، سيقاومان على نحو أفضل. وبدأ يضغط بكل قوته، مباعدًا ما بين ذراعيه وكذلك ما بين ساقيه، وهو يتأوه مركزًا انتباهه على الباب. لن يتمكن الباب من المقاومة طويلًا، وقد أدرك ذلك من تخلخل القفل المسموع بوضوح، وكلما تحققت الخلخلة ببطء أكبر كان ذلك أصوَب، إذ لا يجوز للسان القفل أن يقفز من مكانه، لأن الصوت سيثير انتباه الواقفين في البلكون، بل يجب على جزئي القفل أن ينفكا عن بعضهما بكل هدوء وبطء، وقد عمل كارل على ذلك بكل حذر، وعيناه تزدادان اقترابًا من القفل.

وفجأة سمع صوت ديلامارش خلفه يقول: «انظروا ماذا يفعل». وقفوا ثلاثتهم داخل الغرفة وقد أسدِلت الستارة وراءهم. لابد وأنه قد فاته سماع دخولهم. وعند رؤيته إياهم سقطت يداه عن السكينين. لكنه لم يجد الوقت ليعتذر بكلمة أو ليشرح، ففي ثورة غضبٍ تتجاوز الحالة الراهنة قفز ديلامارش –وطار زنار معطف نومه المفكوك راسمًا دائرة واسعة في الهواء- هاجمًا على كارل، الذي تجنبه في اللحظة الأخيرة. كان بوسعه سحب السكينين من الباب واستخدامهما في الدفاع عن نفسه، إلا أنه لم يفعل ذلك، بل حنى ظهره وقفز ليمسك بياقة معطف ديلامارش العريضة، شدها عاليًا ثم تابع جذبها –كان قياس المعطف كبيرًا جدًا بالنسبة لحجم ديلامارش– وأفلح بالإمساك برأس ديلامارش، الذي أذهلته المفاجأة فأخذ يحرك يديه بجنون أول الأمر، لكنه بدأ بعد برهة يضرب بقبضتيه على ظهر كارل، دون أن يحقق تأثيرًا بادئ الأمر. ولكي يحمي كارل وجهه من ضربة طائشة، ارتمى على صدر ديلامارش، متحملًا اللكمات على ظهره وهو يتلوى من الألم مع تصاعد قوتها. ولكن كيف كان له ألاّ يتحمل وهو يرى النصر أمامه. كانت يداه تحيطان برأس ديلامارش

وإبهاماه على عينيه وهو يسوقه بين فوضى قطع الأثاث الأكثر إزعاجًا، محاولًا فوق ذلك برؤوس أصابع قدميه، أن يلف زنار المعطف حول قدمي ديلامارش، كي يسقطه على الأرض أيضًا.

وبما أنه كان منشغلًا كليًا بـ ديلامارش، ولاسيما مع شعوره بتصاعد مقاومته، كلما اصطدم هذا الجسم العدائي المتين به بقوة، فقد نسي حقًّا أنه ليس لوحده مع ديلامارش. ولكن سرعان ما تم تذكيره بالأمر، إذ فجأة خارت قدماه، لأن روبنسن الذي ارتمى وراءه على الأرض، لواهما مباعدًا بين ساقيه أيضًا وهو يصرخ. متأوِّهًا أرخى كارل قبضتيه عن ديلامارش، الذي اندفع خطوة إلى الوراء.

كانت برونيلدا تقف بكل عرضها في وسط الغرفة مباعدة ما بين ساقيها حانية ركبتيها قليلًا، وهي تتابع المجريات بعينين متألقتين. كانت تتنفس بعمق كما لو أنها تشارك فعليًا في المعركة وتتابع كل شيء بعينيها وقد مدت قبضتيها إلى الأمام. أنزل ديلامارش الياقة عن وجهه، فتحرر مدى الرؤية أمامه، وهنا طبعًا انتهت المعركة ولم يبق سوى العقاب، فأمسك بقميص كارل من الأمام ورفعه تقريبًا عن الأرض، ومن دون أن ينظر في وجهه احتقارًا له، قذفه بكل قوته على خزانة تبعد عنه بضع خطوات لا غير. ظن كارل للوهلة الأولى، أن الآلام الواخزة في ظهره ورأسه، التي نتجت عن الاصطدام بالخزانة، سببها المباشر هي يد ديلامارش. وفي العتمة التي نشأت أمام عينيه الراجفتين سمع ديلامارش يصرخ: «أيها الوغد!» ثم مع الإنهاك الذي غرق فيه عند أسفل الخزانة وصل إلى أذنيه بصوت أضعف: «انتظر فقط!»

عندما استعاد وعيه، كان كل شيء حوله مظلمًا، وكان الوقت متأخرًا في الليل، من جهة البلكون ومن تحت الستارة تسرب إلى الغرفة شيء من ضوء القمر. كانت الأنفاس الهادئة للنائمين الثلاثة مسموعة، والمميزة بعلوها بينها كانت أنفاس برونيلدا، إذ كانت تحشرج أثناء النوم، مثلما تفعل أحيانًا وهي تتكلم؛ ولكن لم يكن من اليسير التحقق في أي اتجاه يوجد كل واحد من النائمين، كانت الغرفة كلها متخمة بأنفاسهم. ولكن بعد أن تفحص

محيطه قليلًا فكر بنفسه، وفزع جدًا، فرغم شعوره من الآلام بأنه متيبس وكسيح، لكنه لم يفكر بأنه يمكن أن يكون قد أصيب بجرح ينزف. لكنه يشعر الآن بثقل على رأسه، وكان وجهه كله مبللًا وكذلك رقبته وصدره تحت القميص، كما بدم. كان لابد له من الوصول إلى الضوء كي يتأكد بدقة من وضعه، ربما ضربوه حتى حطموه، في تلك الحالة سيرغب ديلامارش في أن يطلق سراحه، ولكن كيف سيشتغل في تلك الحالة، عندها لن تكون هناك أية آفاق له. وخطر في باله الصبي ذو الأنف الأفطس في مدخل البناء، وللحظات وضع وجهه بين يديه.

لاإراديًا التفت من ثم نحو باب المنزل وتلمس طريقه إليه على أربع. بعد قليل لمس برؤوس أصابعه جزمة ثم ساقًا. كان هذا روبنسن، فمن غيره سينام بحذائه؟ لقد تلقى أمرًا بأن يستلقي بالعرض أمام الباب، كي يعيق كارل عن الهروب. ولكن ألم يتبينوا حالته؟ حاليًا لا رغبة لديه بالهرب إطلاقًا، وكل ما يبغيه هو الوصول إلى الضوء. فإن لم يستطع الخروج من الباب فعليه الخروج إلى البلكون.

لم تكن طاولة الطعام في موضعها كما في المساء، والكنبة التي اقترب منها كارل بكل حذر، فوجئ بخلوها، لكنه اصطدم في وسط الغرفة بطبقات كثيفة من الثياب والأغطية والستائر والوسائد والسجاد. فكر بادئ الأمر بأنها مجرد كومة صغيرة تشبه تلك التي وجدها مساءً على الأريكة ودُحرجت من ثم إلى الأرض، لكنه لاحظ لدهشته عند متابعة مشيه على أربع أن أمامه ما يعادل حمولة سيارة من هذه الأشياء، التي أُخرجت من الصندوق، حيث كانت محفوظة طوال النهار، للاستخدام خلال الليل. تابع زحفه حول الكومة وسرعان ما أدرك أن هذا كله يمثل ما يشبه مضجعًا للنوم، ينام على قمته، حسبما تأكد بكل حذر، ديلامارش وبرونيلدا.

الآن بات يعرف أين ينامون، فأسرع كي يصل إلى البلكون. كان عالمًا آخر كليًا هذا الذي نهض فيه واقفًا بسرعة خارج الستارة. في هواء الليل المنعش وفي ضوء القمر الساطع مشى عدة مرات جيئة وذهابًا. ألقى نظرة على الطريق تحت فوجده هادئًا تمامًا، من

المطعم لازالت تنبعث موسيقى، إنما خافتة وبعيدة، وأمام بابه هناك رجل يكنس الرصيف، وذلك في الطريق نفسه، الذي مساءً في الضجيج العام لم يكن بالإمكان تمييز صوت المرشح من ألف صوت آخر، يمكن الآن وبكل وضوح سماع احتكاك المكنسة بأرض الرصيف.

سمع صوت تحريك طاولة من البلكون المجاور، فانتبه إلى وجود أحدهم جالسًا يدرس هناك. كان شابًا ذا لحية مدببة صغيرة، يفتل شعرها باستمرار أثناء القراءة، التي يرافقها بحركات سريعة بشفتيه. كان جالسًا ووجهه باتجاه كارل، إلى طاولة صغيرة مغطاة بالكتب، وقد رفع اللمبة عن الجدار وثبتها بين كتابين كبيرين بحيث غمره ضوؤها القوي.

«مساء الخير»، قال كارل، إذ اعتقد في ظنه أن الشاب قد نظر نحوه. لكن ظنه لم يكن في محله، إذ بدا أن الشاب لم يلاحظه بعد نهائيًا، ورفع يده فوق عينيه كي يحجب عنهما الضوء، وليتأكد مِن الذي ألقى التحية فجأة، وبما أنه لم ير أحدًا بعد، فقد رفع اللمبة عاليًا ليضيء بها بلكون الجيران جزئيًا.

«مساء الخير»، قال الشاب من ثم وحدق لحظات باتجاه كارل وأضاف: «وماذا بعد؟»

«هل أزعجك؟» سأله كارل.

«طبعًا، طبعًا»، أجاب الشاب وأعاد اللمبة إلى حيث كانت.

بهذه الكلمات كان أي تواصل قد رُفِض طبعًا، لكن كارل رغم ذلك لم يغادر زاوية البلكون، التي كان فيها أقرب ما يكون إلى الشاب. نظر بصمت إليه وهو يقرأ في كتابه ويقلب الصفحات، ويراجع بين الحين والآخر شيئًا ما في كتاب آخر، يتناوله كل مرة بسرعة البرق، ويسجل غالبًا بعض الملاحظات في دفتر، وهو يدني وجهه جدًا من الدفتر كل مرة، على نحو يلفت النظر.

هل كان الشاب طالبًا يا ترى؟ كان يوحي بوضوح أنه يدرس. على نحو مشابه –مضى على ذلك مدة طويلة الآن– كان كارل يجلس في بيت والديه إلى الطاولة ليكتب واجباته المنزلية، فيما يقرأ والده الجريدة أو يدوِّن حساباتٍ ومراسلاتٍ لإحدى الجمعيات، والوالدة مشغولة بأعمال الخياطة، ساحبة الخيط عاليًا من القماش. وكيلا يُثقل على أبيه، لم يضع كارل على الطاولة إلا الدفتر وأدوات الكتابة، فيما رتب الكتب الضرورية على الكراسي إلى يمينه ويساره. كم كان الجو هادئًا هناك! وما أندر ما دخل غرباء إلى تلك الغرفة! ومنذ طفولته كان كارل يتابع بسرور والدته مساءً وهي تقفل باب الدار بالمفتاح. لم يكن لديها أدنى فكرة عن أن الأمور قد وصلت بكارل إلى حد محاولته فتح أبوابٍ غريبة بالسكاكين.

وماذا كان الغرض من تعليمه كله! لقد نسي كل شيء؛ لو تعلق الأمر بمتابعة تعلّمه هنا، لوجد الأمر في غاية الصعوبة. وتذكر أنه ذات مرة في الوطن قد مرض مدة شهر؛ ويا للجهود التي بذلها بعد المرض لتعويض ما فاته من الدروس ومن ثم المتابعة! وهو طوال إقامته هنا لم يقرأ شيئاً عدا كتاب تعليم المراسلات التجارية بالإنجليزية.

«أنت أيها الفتى»، سمع كارل الشاب يخاطبه فجأة «ألا يمكنك الوقوف في مكان آخر؟ إن تحديقك فيّ يزعجني جدًا. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل يحق للمرء في نهاية المطاف أن يتمكن من الدراسة على البلكون دون إزعاج. هل تريد مني شيئًا ما؟».

«هل تدرس؟» سأله كارل.

«نعم، نعم»، أجاب الشاب مستغلًا هذه اللحظات الضائعة دون دراسة لترتيب كتبه على نحو جديد.

«إذن لا أريد أن أزعجك»، قال له كارل «كنتُ على كل حال سأعود إلى الغرفة. تصبح على خير».

لم يجبه الشاب حتى على تحيته، بل اتخذ قراره فجأة بعد إزالة الإزعاج بالعودة إلى دراسته، وسندَ جبينه الثقيل على يده اليمنى.

قبيل وصوله إلى الستارة تذكر كارل السبب الذي دفعه أساسًا إلى الخروج. فهو مازال لا يعرف شيئًا عن حالته. ما الذي يثقل على رأسه بهذا الشكل؟ ورفع يده إلى رأسه ودُهش، لم يكن هناك جرح نازف، حسبما خشي في ظلام الغرفة، بل ضماد يشبه العمامة لا يزال مبلولًا. واستنتج من تلمسه بقايا الدانتيلا هنا وهناك أنه مُزقة من ثياب برونيلدا الداخلية، وأن روبنسن قد لفها بشكل بسيط حول رأسه. إلا أنه نسي أن يعصرها قبل ذلك، وهكذا سال الماء في أثناء غيبوبته على وجهه وتحت القميص وسبَّب له ذلك الرعب.

«يبدو أنك ما زلت هنا!» قال الشاب مستغربًا وطرف بعينيه نحو كارل.

«لكني الآن سأذهب فعلًا. كل ما أردته هو أن أتأكد من شيء، ففي الغرفة العتمة شديدة».

«ولكن من أنت؟» قال الشاب ووضع القلم من يده في الكتاب المفتوح أمامه وتقدم إلى الدرابزين، «ما اسمك؟ كيف جئت إلى هؤلاء الناس؟ هل أنت عندهم منذ وقت طويل؟ وما الذي تريد التأكد منه؟ أشعل اللمبة عندك كي أتمكن من رؤيتك».

فعل كارل ذلك، لكنه قبل أن يتكلم شد ستارة الباب بإحكام، كيلا يتمكن المرء في الداخل من ملاحظة شيء، ثم قال بهمس: «اعذرني لكلامي بهذا الشكل. إذا سمعني الذين في الداخل، فسأتعرض لمضايقات ثانية».

«ثانية؟» سأل الشاب.

«نعم، فقد اشتبكت معهم في نزاع كبير هذا المساء. ولابد أني أصبت في أثنائه بتورم مريع». وتلمس مؤخرة رأسه.

«وما طبيعة هذا النزاع؟» سأل الشاب، وبما أن كارل تلكأ في الإجابة فقد أضاف «يمكنك أن تحكي لي كل شيء وأنت مطمئن، كل ما في قلبك على هؤلاء الناس. إني أكرههم ثلاثتهم، ولا سيما مدامتهما. وسوف أستغرب جدًا، إنْ لم يكونوا بعدْ قد حرضوك ضدي. أنا اسمي جوزِف مِنْدِل، طالب جامعي».

«نعم، لقد أتوا على ذكرك، ولكن ليس بالسوء. أنت عالجت السيدة برونيلدا ذات يوم، أليس كذلك؟» قال كارل.

«هذا صحيح. أما زالت الكنبة تفوح برائحة كريهة؟» سأل الطالب ضاحكًا.

«جدًا»، أجاب كارل.

«يسرني هذا»، قال الطالب ومرر أصابع يده في شعره «ولماذا جعلوا رأسك يتورم؟».

«كانت مشاجرة»، قال كارل وهو يفكر في كيفية شرح الأمر للطالب، ثم قطع تفكيره وسأل: «ألا أسبب لك إزعاجًا؟».

«أولًا»، قال الطالب «لقد أزعجتني، وأنا للأسف ذو طبيعة عصبية جدًا، بحيث أني أحتاج إلى وقت طويل لاستعادة تركيزي. منذ أن بدأت جولاتك على بلكونك، توقفتُ عن التقدم في الدراسة. «ثانيًا»، أنا دائمًا عند الساعة الثالثة آخذ استراحة. إذن، خذ راحتك في الكلام، ثم إن الأمر يهمني».

«الموضوع بسيط جدًا، ديلامارش يريدني أن أعمل خادمًا عنده، لكنني لا أريد. وكانت رغبتي الحقيقية أن أرحل مساءً مباشرة. لكنه لم يرِد لي ذلك، وقفل الباب. أردت أن أكسر القفل، ثم نشب الشجار. أشعر بالتعاسة لأني ما زلت هنا».

«وهل لديك عمل آخر؟» سأله الطالب.

«لا، لكن هذا لا يهمني مطلقًا، فقط لو أنني أرحل من هنا»، أجاب كارل.

«أي كلام هذا، لا يهمك مطلقًا؟» تساءل الطالب وصمتا برهة، ثم سأل الطالب مجددًا «لماذا لا تريد البقاء عند هؤلاء الناس؟».

«ديلامارش إنسان سيئ. أعرفه سابقًا. رافقته مرة طوال نهار، وسررت عندما فارقته. فكيف لي الآن أن أصبح خادمًا عنده؟».

«لو أراد جميع الخدم التدقيق في انتقاء أسيادهم مثلك!» قال الطالب وبدت على وجهه ابتسامة، «انظر، أنا خلال النهار بائع، من أدنى مستويات الباعة، أقرب ما أكون إلى ساعٍ في المتجر الكبير «مونتلي». ومونتلي هذا يعتبر بلا شك وغدًا، لكن هذا لا يستفزني أبدًا. ما يثير غضبي حقًا هو أن أجري بائس جدًا. فاعتبرني مثالًا».

«كيف؟ أنت بائع نهارًا وتدرس ليلًا؟».

«نعم، ما من طريقة أخرى. لقد حاولت كل شيء، غير أن هذه الطريقة في العيش هي الأفضل. قبل سنوات كنت طالبًا فقط، نهارًا وليلًا، لكني كدت أموت من الجوع. كنت أنام في جحر عتيق وقذر ولم أجرؤ على دخول قاعة المحاضرات ببدلتي التي كنت ألبسها حينذاك. لكن هذا انقضى الآن».

«ولكن متى تنام؟» سأل كارل الطالب بعينين يملأهما الاستغراب.

«نعم، النوم!» قال الطالب «سوف أنام بعدما أنهي دراستي الجامعية. أما حاليًا فإني أشرب قهوة سوداء». استدار ورفع من تحت الطاولة زجاجة كبيرة، صب منها قهوة سوداء في فنجان صغير وشربها دفعة واحدة كمن يبلع جرعة دواء بسرعة كيلا يحس بالطعم ما أمكن، ثم قال «شيء فاخر هذه القهوة السوداء. يؤسفني أنك على هذا البعد، بحيث لا أستطيع أن أقدم لك بعضًا منها».

«أنا لا أحب القهوة السوداء»، قال كارل.

«ولا أنا، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل من دونها. لولاها لن يحتفظ مونتلي بي عنده ولا لحظة. إني أقول دائمًا مونتلي، رغم أنه لا فكرة لديه طبعًا أني موجود في هذه الدنيا. لا أعرف بدقة كيف كنت سأتصرف في المتجر، لولا أن لدي هناك وراء طاولتي زجاجة مثل هذه جاهزة دائمًا، إذ لم يسبق أن جرؤت على التوقف عن شرب القهوة السوداء، ولكن صدقني، إذا فعلتها فلا شك في أني سرعان ما سأستلقي وراء طاولة المتجر وأنام. من المؤسف أنهم يتكهنون بهذا الأمر هناك، ويلقبونني «القهوة السوداء»، وهذه نكتة بليدة ألحقت الضرر بتقدمي الوظيفي».

«ومتى سوف تنهي دراستك الجامعية؟».

«الأمور تسير ببطء»، أجاب الطالب منكسًا رأسه. ترك الدرابزين وعاد ليجلس إلى طاولته، واضعًا كوعيه على الكتاب المفتوح ومُمَرِرًا أصابع يديه في شعره، ثم قال: «قد يستغرق الأمر سنة أو سنتين بعد».

«أنا أيضًا أردت أن أدرس»، قال كارل وكأن هذا يعطيه الحق بثقة أكبر من التي أبداها تجاهه الطالب، الميّال إلى الصمت الآن.

«هكذا»، قال الطالب، ولم يكن واضحًا ما إن كان قد عاد للقراءة في كتابه، أو يحدق فيه وحسب، «ليكن من دواعي سرورك أنك تخليت عن الدراسة. أنا نفسي مازلت أدرس منذ سنوات انطلاقًا من مبدأ الإصرار. لا يمنحني هذا إلا القليل من الرضا، وأقل من ذلك على صعيد الآفاق المستقبلية. وما عسى هذه الآفاق أن تكون! أمريكا مليئة بالدكاترة الدجالين».

«أردت أن أصير مهندسًا»، قال كارل بسرعة للطالب الذي بدا شاردًا تمامًا.

«والآن عليك أن تصير خادمًا عند هؤلاء الناس»، قال الطالب ورفع نظره قليلًا وهو يضيف «وهذا يؤلمك طبعًا».

هذا الاستنتاج من طرف الطالب كان على كل حال سوء فهم، ولكن ربما تمكن كارل من الإفادة منه لدى الطالب، ولذلك سأله: «ألا يمكنني ربما الحصول على عمل في المتجر الكبير؟».

هذا السؤال انتزع الطالب كليًا من كتابه، ففكرة أن يقدر على مساعدة كارل في الترشح للحصول على عمل، لم تخطر في باله نهائيًا، فقال: «حاول، بل الأفضل ألّا تحاول. إن حصولي على هذا العمل لدى «مونتلي» هو حتى الآن أكبر نجاح في حياتي. وإذا خُيِّرت بين الدراسة وعملي، فسأختار العمل طبعًا. لكنني أسعى بكل جهدي إلى تجنب ضرورة السماح بالتعرض لهذا الخيار».

«أإلى هذا الحد يصعب الحصول على عمل هناك!» قال كارل محدثًا نفسه قبل الطالب.

«ماذا تظن إذن، إنه لمن الأسهل هنا أن تصير قاضي منطقة من أن تصير بوابًا عند مونتلي».

صمت كارل. إن هذا الطالب الأكثر خبرة منه بمراحل، والذي يكره ديلامارش لأسباب يجهلها كارل، والذي على العكس لا يتمنى السوء لكارل حتمًا، لم يجد كلمة يشجع بها كارل على ترك ديلامارش. علمًا بأنه لا يعرف بعد الخطر الذي يهدد كارل من جهة الشرطة، والذي لا حماية له منه إلا عند ديلامارش نوعًا ما.

«أنت رأيت أمس التظاهرة، أليس كذلك؟ إن لم يكن المرء عارفًا بالظروف، فسيفكر بأن هذا المرشح، واسمه لوبتر، سيجد أمامه آفاقًا ما، أو أن نجاحه على الأقل وارد، أليس كذلك؟» قال الطالب.

«إني لا أفهم شيئًا في السياسة»، قال كارل.

«هذه غلطة»، قال الطالب وأردف «ولكن بغض النظر عن هذا، لديك عينان وأذنان، أليس كذلك! لا شك في أن للرجل أصدقاء وأعداء، وهذا حتمًا لم يفتك ملاحظته. والآن، لنقل إنه ليس أمام هذا الرجل، في رأيي، أية فرصة لأن ينجح في الانتخابات. أنا بالصدفة أعرف

عنه كل شيء، فهنا يسكن معنا شخص يعرفه. الرجل لديه كفاءات، وآراؤه السياسية وماضيه السياسي كل هذا يؤهله لأن يكون القاضي المناسب لهذه المنطقة. ولكن ما من إنسان يفكر بأنه يمكن أن يفوز بالانتخابات، بل سيسقط بكل أبهة وبكل جدارة، وسيكون بذلك قد خسر ما ادخر من دولارات، وهذا كل شيء».

نظر كلٌ من كارل والطالب في عيني الآخر بصمت لبرهة، ثم أومأ الطالب برأسه مبتسمًا وضغط بيمينه عينيه المتعبتين، وسأل أخيرًا: «ألن تدخل لتنام؟ أنا ما زال عليّ أن أدرس. انظر كم تبقى أمامي». وقلَّب نصف صفحات الكتاب بسرعة، ليوضح لكارل حجم ما عليه أن ينجز بعد.

«إذن، ليلة طيبة»، قال كارل وانحنى تحية.

«تعال وزرنا ذات يوم»، قال الطالب الجالس إلى طاولته «طبعًا فقط إنْ رغبت في ذلك. ستلتقي هنا دائمًا بكثير من الناس. بين التاسعة والعاشرة مساء سيكون عندي وقت لك أيضًا».

«أنت تنصحني إذن بالبقاء عند ديلامارش؟» سأله كارل.

«بالتأكيد»، أجاب الطالب ونكس وجهه إلى كتبه، فبدا وكأنه ليس أبدًا مَن قال الكلمة؛ وكأن الصوت الذي نطقها أعمق من صوت الطالب، هكذا كان وقعها في أذن كارل.

مشى كارل ببطء إلى الستارة، رمى نظرة أخيرة على الطالب، الذي سكنت حركته في ضوء لمبته محاطًا بالظلمة الكبيرة، وانسل إلى داخل الغرفة. استقبلته الأنفاس المتحدة للنائمين الثلاثة. بحث عن الكنبة متلمسًا طريقه على طول الجدار، وعندما وجدها استلقى عليها وتمطى وكأنها مضجعه المعتاد. بما أن الطالب، الذي يعرف بدقة ديلامارش والأوضاع المحلية، وهو فوق ذلك رجل مثقف، قد نصحه بالبقاء هنا، فلا مخاوف لديه مؤقتًا. إنه لا يملك أهدافًا عليا مثل الطالب، ومن يدري، ما إن كان في الوطن سيكمل الدراسة الجامعية

حتى النهاية، وإذا بدا الأمر حتى في الوطن شبه مستحيل، فلا يمكن لأحد أن يطالبه بتحقيق ذلك هنا في البلد الأجنبي. لكن الأمل بالعثور على عمل، يستطيع أن ينجز فيه شيئًا، مع إمكانية الاعتراف بمنجزاته، كان أكبر حتمًا، إذا قبِل مؤقتًا أن يعمل خادمًا عند ديلامارش، بانتظار فرصة مناسبة انطلاقًا من هذا الأمان. ففي هذا الشارع يبدو أنه يوجد كثير من المكاتب من الدرجة المتوسطة والأدنى منها، التي في حال حاجتها إلى مستخدمين قد لا تدقق كثيرًا عند الاختيار. وهو سيقبل بكل سرور، إنْ اضطرَ، بوظيفة خادم متجر، ولكن ليس من المستبعد في نهاية المطاف، أن يُقبَل لعملٍ مكتبي بحت، وأن يجلس ذات يوم كموظف إداري إلى طاولته وأن ينظر عبر نافذته لبرهة دون هموم، مثل ذلك الموظف، الذي رآه اليوم أثناء عبوره الأفنية. ولراحته خطر في باله عندما أغمض عينيه، أنه مازال يافعًا وأن ديلامارش سيعتقه ذات يوم؛ فهذا المسكن بما فيه لم يبدُ في الواقع قابلًا للدوام إلى الأبد. ولكن في حال حصول كارل ذات يوم على مثل هذا العمل المكتبي، فلن يشغل نفسه بأي شيء آخر سوى أعماله المكتبية ولن يهدر قواه بتجزيئها مثل الطالب. وإذا كانت هناك ضرورة فسيكرس حتى الليل للمكتب،

الأمر الذي سيطالَب به في البداية على كل حال، نظرًا لضعف تأهيله في العمل التجاري. إنه لن يفكر إلا في مصالح المكتب، الذي من واجبه خدمته، وسيقوم بجميع الأعمال، حتى تلك، التي يرفض موظفون آخرون القيام بها، باعتبارها لا تليق بهم. وتزاحمت المقاصد الحسنة في رأسه، وكأن رئيسه المستقبلي يقف أمام الكنبة ويقرأها من وجهه. وبمثل هذه الأفكار نام كارل، ولكن في النصف الأول من نومه أزعجته تنهيدة قوية من برونيلدا، التي كانت تقض مضجعها على الأرجح أحلام سيئة.

شذرة ١

«انهض! انهض!» صاح روبنسن، حالما فتح كارل عينيه صباحًا. لم تكن ستارة البلكون قد سُحبت جانبًا بعد، ولكن كان من الممكن ملاحظة أن الوقت قد صار ضُحى، من منظر شعاع

الشمس الساقط بالتساوي من خلال الثغرات. كان روبنسن يذهب ويجيء بسرعة بنظرات مهمومة، حاملًا منشفة تارة ودلو ماء أو ثيابًا داخلية وقطع ملابس تارة أخرى، وكلما مر بكارل حاول بهزة من رأسه أن يشجعه على النهوض ويريه، بأن يرفع عاليًا ما كان يحمله بيديه، كيف أنه يجهد نفسه لآخر مرة من أجله، لكن كارل لم يفهم طبعًا من أول صباح في الخدمة أي شيء من تفاصيل العمل.

ولكن سرعان ما رأى كارل مَن الذي يقوم روبنسن في الواقع على خدمته. في مكان بين صندوقين، مفصولٍ عن بقية الغرفة، لم يسبق لكارل أن رآه بعد، كانت تجري عملية تغسيل كبيرة. كان بالإمكان رؤية رأس برونيلدا ورقبتها العارية -إذ كان شعرها في تلك اللحظة مقلوبًا على وجهها– وقفا عنقها بارزين من فوق الصندوق، وكذلك يد ديلامارش المرفوعة حاملةً اسفنجةَ حمام ترشرش من حولها، وكان يغسل بها برونيلدا ويفرِّكها. وكان بالإمكان سماع أوامر ديلامارش المقتضبة، الموجهة إلى روبنسن. وهذا بدوره لم يكن يناوله ما طلب عبر الممر الأساسي إلى المكان، الذي بات الآن مسدوداً مؤقتًا، وإنما عبر فتحة بين صندوقٍ وجدارٍ إسباني متحرك، وكان عليه فوق ذلك في كل مرة أن يمد ذراعه طويلًا ويدير وجهه بعيدًا.

«المنشفة! المنشفة!» صاح ديلامارش. ولم يكد روبنسن يتلقى الأمر وهو تحت الطاولة يفتش عن غرض آخر، فيسحب رأسه من تحت الطاولة، حتى وصله الأمر الآخر: «أين الماء بحق الشيطان!» ومن فوق الصندوق يظهر وجه ديلامارش مشرئبًا وغاضبًا. وفي رأي كارل، كان كل ما يحتاجه المرء في الحالة الطبيعية للاستحمام واللبس مرة، يُطلب ويُلبى هنا عدة مرات، وبتتالٍ مختلف في كل مرة. فوق موقد كهربائي صغير كان هناك طوال الوقت دلو ماء قيد التسخين، وكان روبنسن دائمًا يحمل الحمل الثقيل بين ساقيه المتباعدتين إلى ركن الاغتسال. ومع تكاثر الأوامر، كان بالإمكان فهم ألا يكون دقيقًا دائمًا في تنفيذها، وبدلًا عن المنشفة المطلوبة، كان يأخذ قميصًا من كومة المضجع الكبيرة في منتصف الغرفة ليكوره ويرميه لديلامارش من فوق الصناديق.

لكن ديلامارش أيضًا كان يقوم بعمل شاق، ولهذا تحديدًا كان مغتاظًا من روبنسن –وفي توتره لم يرَ كارل نهائيًا-، لأنه هو نفسه لم ينل رضا برونيلدا. «آخ»، كانت تصرخ، إلى حد أن يرتعد حتى كارل غير المعني بالأمر.

«كم توجعني! اذهب عني! إني أفضل أن أحمم نفسي بنفسي، بدلًا من هذه المعاناة! ما عدت قادرة ثانية على رفع ذراعي. كم أشعر بالغثيان من ضغطك علي. لا شك في أن ظهري مليء بالبقع الزرقاء الآن. من الطبيعي أنك لن تخبرني بذلك. انتظر، سأطلب من روبنسن أن يلقي نظرة على ظهري، أو من صغيرنا. لا، لن أفعل ذلك، ولكن كن أنت أكثر رقة. كن متفهمًا ومراعيًا، ديلامارش، ولكن لابد وأن أكرر كل صباح: أنت لا تراعيني. – يا روبنسن!» تصيح فجأة وهي تلوِّح فوق رأسها بسروال داخلي صغير مطرز، «تعال لنجدتي، انظر كيف أعاني، هذا التعذيب يسميه حمامًا، ديلامارش هذا! روبنسن، روبنسن، أين أنت، هل أنت أيضًا بلا قلب؟».

من دون كلام أشار كارل لـ روبنسن بأصبعه، أن عليه تلبية النداء، لكن روبنسن هز بجفنين مُسبلين رأسه نفيًا، دلالة على أنه أعلم بالأمر، وقال منحنيًا على أذن كارل: «ما بالك؟ الأمر ليس كما يوحي به. مرة واحدة لبّيت نداءها، ولن أكررها ثانية. حينذاك أمسكا بي كلاهما وغطساني في الحوض، حتى كدت أختنق. وطوال أيام رمتني برونيلدا بتهمة أني بلا حياء، وأخذت تكرر باستمرار: «مضى عليك وقت طويل بعيدًا عن حمامي» أو «متى ستأتي ثانية لمشاهدتي في الحمام؟» ولم تتوقف عن ذلك حتى توسلت إليها راكعًا على ركبتي. ولن أنسى ذلك».

وفي أثناء كلام روبنسن نادت برونيلدا عدة مرات: «روبنسن! روبنسن! أين روبنسن هذا؟».

ورغم أن أحدًا لم يأت لمساعدتها ولا حتى بجواب –جلس روبنسن إلى جانب كارل، وتابعا صامتين حركات رأسي برونيلدا أو ديلامارش فوق الصندوق-، ورغم ذلك لم تتوقف برونيلدا عن التشكي من ديلامارش بصوت عال:

«ولكن يا ديلامارش، الآن لم أعد أحس أبدًا أنك تحممني. أين الاسفنجة؟ شد يدك يا رجل! لو كنتُ قادرة على الانحناء، لو كنت قادرة على الحركة، لأريتك كيف يكون التغسيل. أين راحت أيام الصبا عندما كنت هناك في مزرعة الوالدين أسبح كل صباح في نهر كولورادو، كنتُ الأسرع بين جميع صاحباتي. والآن! متى ستتعلم كيف تحممني يا ديلامارش؛ أنت تحرك الاسفنجة حول ظهري، تجهد نفسك، ولا أشعر بشيء. عندما قلت لك ألا تبالغ في الضغط، فأنا لم أقصد أن أبقى في مكاني حتى أبرد. سوف ترى أني سأنط من الحوض وأركض كما أنا!».

غير أنها لم تنفذ هذا التهديد –علمًا بأنها ليست قادرة على ذلك نهائيًا-، ومخافة أن تصاب بالزكام، يبدو أن ديلامارش قد أمسك بها وغطسها في الحوض، فقد اصطفق الماء بقوة.

«هذا هو ما تحسنه يا ديلامارش»، قالت برونيلدا بصوت أخفض قليلًا «المداعبة والمغازلة، والمداهنة دائمًا، عندما تقوم بعمل ما بشكل سيئ». ثم حل سكون لبرهة.

«إنه يقبّلها الآن»، علق روبنسن.

«وما هو العمل التالي؟» سأل كارل. فبما أنه اتخذ قراره بالبقاء هنا، فقد أراد أن يباشر خدمته فورًا. لم يجبه روبنسن بشيء، فتركه كارل جالسًا على الكنبة وبدأ في بعثرة مكونات المضجع العالي والمضغوط من ثقل النائمين طوال الليلة المديدة، كي يعيد ترتيب أجزاء هذه الكتلة، التي يبدو أنها لم ترتب منذ أسابيع.

«انظر هناك، ديلامارش»، قالت برونيلدا «أظن أنهما يعبثان بمضجعنا. يجب على المرء أن يفكر بكل شيء، لا راحة للإنسان أبدًا. عليك أن تكون أشد حزمًا مع الإثنين، وإلا فسيفعلان ما يحلو لهما».

«إنه الصغير حتمًا، باندفاعه في الخدمة!» قال ديلامارش وكان على وشك مغادرة ركن الاغتسال بسرعة، وكان كارل قد رمى كل شيء من يديه. ولكن لحسن الحظ قالت

برونيلدا:

«لا تذهب ديلامارش، لا تذهب. ما أشد سخونة الماء، تجعل المرء كسولًا. ابق معي، ديلامارش».

وحينئذ فقط لاحظ كارل في الواقع تصاعد بخار الماء عاليًا دون توقف وراء الصندوق.

وضع روبنسن يده على خده مرعوبًا، وكأن كارل قد اقترف عملًا بالغ السوء. وفي الوقت نفسه رن صوت ديلامارش صائحًا:

«اتركا كل شيء كما كان عليه. ألا تعرفان أن برونيلدا بعد الحمام ترتاح دائمًا نحو ساعة؟ ما هذه الفوضى البائسة! انتظرا حتى أطولكما! روبنسن، هل تراك عدت إلى أحلامك ثانية! أنت، أنت وحدك المسؤول عن كل ما يجري. عليك أن تمسك بزمام الفتى، هنا لا يتم الترتيب كما يحلو له. عندما يريد المرء شيئًا، لا يمكنه الاعتماد عليكما للحصول عليه؛ وعندما لا تكون هناك ضرورة لفعل شيء، تصبحان نشيطين. انزويا في ركن ما وانتظرا حتى نحتاج إليكما!» وفي اللحظة التالية كان كل شيء قد نسي، إذ همست برونيلدا بصوت شديد التعب، وكأن الماء الساخن سيغرقها:

«العطر! أحضرا العطر!».

«العطر!» صاح ديلامارش «هيا تحركا!».

نعم، ولكن أين كان العطر؟ نظر كارل إلى روبنسن، ونظر روبنسن إلى كارل. أدرك كارل أن عليه هنا أن يتولى كل شيء بنفسه. لم يكن لدى روبنسن أي فكرة عن مكان العطر، فاستلقى كارل ببساطة على الأرض وراح يبحث بذراعيه كليهما تحت الكنبة، لكنه لم يحصل إلا على كبب من الغبار وشعر نسائي. أسرع كارل بعد ذلك إلى طاولة التواليت المنتصبة إلى جانب الباب مباشرة، لكنه لم يجد في أدراجها سوى روايات إنجليزية قديمة

ومجلات ودفاتر ملاحظات، وكانت كل الأدراج متخمة إلى حد يصعب معه إغلاقها بعد أن فتحها.

«العطر»، قالت برونيلدا متنهدة «لمَ كل هذا التأخير! هل سأحصل اليوم على عطري!».

مع نفاد صبر برونيلدا هذا، لم يعد بوسع كارل طبعًا أن يبحث بدقة في أي مكان، كان مضطرًا للاعتماد على انطباعه الأول. لم تكن زجاجة العطر في خزانة التواليت، ولم يكن على سطحها إلا قوارير أدوية قديمة ومراهم، ماعدا ذلك كان قد نُقل على كل حال إلى ركن التغسيل. ربما كانت زجاجة العطر في درج طاولة الطعام. ولكن على الطريق إلى طاولة الطعام -كان كارل يفكر بزجاجة العطر فقط، وليس بأي شيء سواها- اصطدم بقوة بـ روبنسن، الذي تخلى أخيرًا عن البحث تحت الكنبة، وخطرت في باله فكرة غائمة عن احتمال مكان العطر، فتبعها بسرعة ليصطدم بكارل، وسُمع بوضوح صوت اصطام الرأسين، بقي كارل صامتًا، في حين أن روبنسن الذي لم يتوقف، رفعَ صوته بالصراخ عاليًا على نحو مبالغ فيه، كي يخفف الوجع.

«بدلًا من البحث عن العطر، يتعاركان»، قالت برونيلدا «سوف أمرض من وضع هذا التدبير المنزلي، وسوف أموت بين ذراعيك بالتأكيد يا ديلامارش، لابد لي من زجاجة العطر»، صاحت من ثم مستجمعة قواها مكررة «لابد لي من زجاجة العطر! لن أخرج من الحوض قبل أن يحضراها لي، ولو بقيت هنا إلى المساء». وضربت الماء بقبضتها بقوة فتطاير عاليًا.

ولكن حتى في درج طاولة الطعام، لم يعثر كارل على زجاجة العطر. صحيح أن كل ما فيه كان من متعلقات تواليت برونيلدا من علب بودرة ومستحضرات تجميل وفُرَش شعر ولفافات وكثير من الأغراض الملبدة والملتصقة ببعضها، إلا أن زجاجة العطر لم تكن بينها. وروبنسن أيضًا، الذي مازال يصرخ متوجعًا، كان في ركن مملوء بمئات العلب والصناديق الصغيرة، يفتحها الواحد تلو الآخر وينبش ما في داخلها، مسقطًا دائمًا نصف المحتوى على الأرض، غالبًا عدة خياطة ورسائل، تاركًا إياه في مكانه، دون أن يعثر على ما يريد، مبينًا هذا بين الحين والآخر لكارل بهزة رأس أو كتف.

عند ذلك قفز ديلامارش بلباسه الداخلي من ركن التغسيل، فيما سُمعت برونيلدا تبكي بتشنج. توقف كارل وروبنسن عن التفتيش ونظرا إلى ديلامارش، الذي صاح وهو يقطر ماء حتى من شعره ووجهه: «هيا ابحثا الآن إن تفضلتما!».

«هنا!» أمر كارل أن يبحث أولًا، ثم «هناك!» لـ روبنسن. فتش كارل وتحقق فعلًا، حتى في الأماكن التي سبق لـ روبنسن أن بحث فيها، لكنه لم يجد العطر مثل روبنسن، الذي كان الآن أنشط منه في البحث وهو ينظر جانبيًا إلى ديلامارش، الذي كان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بالطول والعرض وهو يخبط الأرض بقدميه، وكان الأحب إلى نفسه لو يُشبِع الإثنين ضربًا.

«ديلامارش!» نادت برونيلدا «تعال ونشِّفني على الأقل! لن يعثر الاثنان على العطر، بل سوف يشيعان الفوضى في كل مكان. عليهما أن يتوقفا عن البحث فورًا وحالًا. ويتركا كل ما في أيديهما! ولا يلمسا أي شيء آخر! سوف يحولان هذا المسكن إلى اصطبل. أجبرهما بالقوة يا ديلامارش إنْ لم يتوقفا! لكنهما ما زالا يبحثان، للتو سقطت علبة على الأرض. عليهما ألا يرفعاها، أن يتركا كل شيء وأن يغادرا الغرفة إلى الخارج! اقفل الباب وراءهما وتعال إلي. لقد أطلت البقاء في الماء، ساقاي بردا كليًا».

«حالًا برونيلدا حالاً!» قال ديلامارش وأسرع مع كارل وروبنسن إلى الباب. لكنه قبل أن يطلقهما، كلفهما بإحضار الفطور، وإن أمكن استعارة عطر جيد من إحدى الجارات لـ برونيلدا.

«يا للفوضى والقذارة عندكم»، قال كارل في الدهليز خارج الشقة وأردف: «حالما نعود بالفطور علينا أن نبدأ بالترتيب».

«لو أني فقط لست أعاني بهذه الصورة!» علق روبنسن «وهذه المعاملة!».

مؤكد أن روبنسن قد شعر بالإهانة، لأن برونيلدا لم تميز أبدًا بينه، هو الذي خدمها طوال شهور، وبين كارل الذي بدأ العمل بالأمس. لكنه لا يستحق أفضل من ذلك، ثم قال كارل:

«عليك أن تتمالك نفسك إلى حد ما»، وأضاف كيلا يتركه ليأسه «سيكون الترتيب عملًا لمرة واحدة فقط. سأرتب لك مضجعًا وراء الصناديق. وعندما ينتهي الترتيب نوعًا ما، سيمكنك أن تستلقي هناك طوال النهار ولا تبالي بأي شيء، وسرعان ما تستعيد عافيتك».

«ها أنت تدرك الآن حقيقة حالي»، قال روبنسن والتفت عن كارل كي يكون لوحده مع معاناته وأضاف «ولكن هل سيتركونني وشأني في أي وقت من الأوقات؟».

«إذا أردتَ، سأتحدث في الموضوع بنفسي مع ديلامارش وبرونيلدا».

«وهل تراعي برونيلدا أحدًا؟» صاح روبنسن ودفع بقبضته بابًا وصلا إليه ففتحه، دون أن يكون قد هيأ كارل لذلك.

دخلا إلى مطبخ كانت تتصاعد من موقده، الذي بدا بحاجة إلى إصلاح، سحب دخان أسود صغيرة. وأمام باب الموقد ركعت إحدى النساء اللواتي رآهن كارل البارحة في الدهليز، وكانت تضع بيديها العاريتين قطع فحم كبيرة في النار، التي تفحصها من جميع الجهات. وكانت في أثناء ذلك تتأوه من وضعية ركوعها غير المريحة بالنسبة إلى امرأة عجوز.

«من الطبيعي فوق كل شيء أن تأتي هذه المصيبة»، قالت المرأة عند رؤيتها روبنسن، نهضت بجهد جهيد، معتمدة بيدها على صندوق الفحم وأغلقت باب الموقد بعد أن لفت مريولها على قبضته، وأردفت «الآن في الساعة الرابعة بعد الظهر» -كان كارل يتملىّ باب الموقد مدهوشًا- «تريدون أن تفطروا؟ يا ناس! اجلسا وانتظرا حتى أتفرغ لكما».

جذب روبنسن كارل إلى مقعد صغير قرب الباب وهمس له: «علينا أن نطاوعها، لأننا معتمدين عليها. منها استأجرنا غرفتنا، وبوسعها طبعًا أن تُخْلينا في أية لحظة. لكننا لا نستطيع تبديل المسكن، إذ كيف لنا أن ننقل كل هذه الأغراض ثانية، وفي المقام الأول، برونيلدا نفسها غير قابلة للنقل».

«وهنا في الدهليز ألا توجد غرفة أخرى يمكننا استئجارها؟» سأل كارل.

«لا أحد يقبل أن يؤوينا، في البناء كله لا يقبل أحد بأن يؤجرنا»، أجاب روبنسن.

وهكذا جلسا بهدوء على مقعدهما الصغير، والمرأة تتحرك بلا كلل بين طاولتين، طاولة الجلي وطاولة الموقد، جيئة وذهابًا. وفهما من نداءاتها أن ابنتها متوعكة، ولهذا توجب عليها القيام بأعباء العمل كله لوحدها، خدمة وإطعام ثلاثين مستأجرًا. وفوق هذا كله كان الموقد شبه معطل، والطعام لا ينضج. كانت تطبخ في قدرين هائلين حساء سميكًا، ورغم كثرة تفقد العجوز للحساء بالمغرفة وسكبه منها من علٍ، رفض الحساءُ أن ينعقد قوامه ويتماسك، ولابد أن النار الضعيفة هي السبب. وهكذا جلست على الأرض تقريبًا، أمام باب الموقد وراحت تحرك بالملقط المعدني الفحم المتوهج: الدخان الذي ملأ المطبخ هيَّج لديها السعال، الذي كان يشتد أحيانًا، إلى درجة أنها كانت تتكئ على كرسي ولا تفعل شيئًا آخر لدقائق سوى السعال. وكررت عدة مرات ملاحظة أنها لن تقدم طعام فطور في هذا الوقت، إذ لم يعد لديها وقت ولا رغبة. وبما أن كارل وروبنسن قد تلقيا، من ناحية، الأمر بإحضار الفطور، مع عدم القدرة، من ناحية أخرى، على إجبار المرأة على تقديمه لهما، فإنهما لم يردّا على هذه الملاحظات، بل بقيا جالسين صامتين كالسابق. ومن حولهم، على الكراسي، على مساند الأقدام، فوق وتحت الطاولات وحتى على الأرض في الزاوية تراكمت صحون فطور المستأجرين غير المغسولة بعد. وكانت هناك أيضًا أباريق فيها شيء من القهوة أو الحليب، وعلى كثير من الصحون الصغيرة كانت هناك بقايا زبدة، وكذلك كعك وبسكوت من علبة معدنية كبيرة مقلوبة. إذن هناك ثمة إمكانية لتجميع فطور من هذه البقايا، وبشكل لن يستدعي احتجاج برونيلدا، ما دامت لا تعرف مصدره. عندما فكر كارل بهذا الأمر، وعرف بنظرة إلى الساعة أنهما قد انتظرا هنا نصف ساعة حتى الآن، وأن برونيلدا ربما ستكون غاضبة وتحرض ديلامارش على الخادمين، قالت العجوز بين سعلتين وهي تحدق في كارل:

«بإمكانكما البقاء جالسين هنا، لكنكما لن تحصلا على فطور. أما بعد ساعتين فستحصلان على وجبة العشاء».

«تعال يا روبنسن»، قال كارل «سوف نرتب طعام فطورنا بأنفسنا».

«كيف؟» قالت العجوز وأمالت رأسها.

«أرجو أن تفكري بمنطقية»، قال كارل «لماذا لا تريدين تقديم الفطور لنا؟ إننا ننتظر منذ نصف ساعة، وهذا وقت كاف. نحن ندفع لك ثمن كل شيء، ولا شك في أننا ندفع سعرًا أعلى من جميع الآخرين. ومسألة تأخرنا في تناول فطورنا، تزعجك بالتأكيد، لكننا مستأجرون عندك، واعتدنا على التأخر في تناول الفطور، ومن واجبك إلى حد ما أن تراعي شأننا. اليوم سيكون الأمر صعبًا على نحو خاص بسبب مرض الآنسة ابنتك، لكننا مستعدين في هذه الحالة أن نرتب الفطور بأنفسنا من البقايا هنا، إن كان لابد، لعدم توفر ما هو طازج لديك».

لكن المرأة لم تكن راغبة في فتح حوار وديّ مع أحد، كما بدا لها أن مثل هؤلاء المستأجرين غير جديرين حتى ببقايا الفطور العام؛ لكنها من ناحية أخرى لم تعد تحتمل إلحاح هذين الخادمين، ولذلك أمسكت بصينية ودفعتها إلى بطن روبنسن، الذي لم يستوعب إلا بعد فترة وبوجه يعاني الألم، أن عليه الإمساك بالصينية كي يستقبل عليها المأكولات التي ستختارها المرأة. ثم قامت بأسرع ما يمكنها بملء الصينية بكمية كبيرة من المأكولات، لكن المجموع بدا أقرب ما يكون إلى كومة من الصحون غير المغسولة، وليس كفطور مهيأ للتقديم. وبينما كانت المرأة تستعجلهما للخروج وهما يسرعان بظهر محني كمن يخشى شتائم أو ركلات، أخذ كارل الصينية من يدي روبنسن، حيث لم تبدُ له آمنة كفاية هناك.

في الدهليز وبعد أن ابتعدا مسافة كافية عن باب المؤجِّرة، جلس كارل على الأرض، ليقوم أولًا بتنظيف الصينية بأن يجمع المتشابهات مع بعضها، وأن يصب الحليب في إبريق واحد، ويجمع بقايا الزبدة على صحن واحد، ثم إزالة كل ما يوحي ببقايا، أي بتنظيف الملاعق والسكاكين، وقطع آثار عض الخبز بشكل مستقيم، ولإسباغ منظر أفضل على الصينية. اعتبر روبنسن هذا العمل غير ضروري، زاعمًا أن غالبًا ما كانت صينية الفطور أسوأ من هذه، لكن كارل لم يسمح له بأن يعيقه عن عمله، وكان مسرورًا لعدم رغبة روبنسن في المساهمة

معه بأصابعه القذرة. وليبقيه ساكنًا أعطاه كارل، لمرة واحدة وأخيرة، حسبما أفهمه، بعض البسكوت والثمالة السميكة في إبريق صغير كان مملوءًا بالكاكاو.

عندما وصلا إلى المسكن ووضع روبنسن يده مباشرة عل قبضة الباب ليفتحه، منعه كارل، خشية أن يكون السماح بدخولهما غير مؤكد بعد.

«ولكن طبعًا»، قال روبنسن «إنه يسرح شعرها الآن».

وفعلًا كانت برونيلدا جالسة، في الغرفة دون تهويتها ورفع ستارتها، على الكرسي ذي المساند، مباعدة ساقيها إلى الحد الأقصى، وديلامارش واقفًا وراءها بوجه محني جدًا فوق رأسها، وهو يسرح شعرها القصير والملبد على الأرجح. كانت ترتدي ثانية ثوبًا فضفاضًا بلون زهري باهت وربما كان أقصر من ثوب الأمس بقليل، بحيث رأى المرء جواربها البيضاء خشنة الحبكة حتى ركبتيها تقريبًا. وكتعبير عن نفاد صبرها من تسريح شعرها، كانت تمرر لسانها الأحمر الثخين بين شفتيها يمينًا ويسارًا، أو تنتفض أحيانًا قائلة: «ولكن يا ديلامارش!» منتزعة رأسها منه كليًا، فيما يبقى هو رافعًا المشط بهدوء منتظرًا أن تعيد رأسها إلى مسند ظهر الكرسي.

«تأخرتما»، قالت برونيلدا بشكل عام، وقالت لكارل بشكل خاص «عليك أن تكون أسرع قليلًا، إذا ابتغيت نوال الرضا. لا تجعل من روبنسن الكسول الأكول قدوة لك. لقد أفطرتما بالتأكيد في مكان ما خلال هذا الوقت؛ أحذركما، في المرة القادمة لن أحتمل هذا التأخير».

كان هذا مجحفًا جدًا، حتى روبنسن هز رأسه وحرك شفتيه بلا صوت، أما كارل فقد أدرك أن المرء لا يمكنه التأثير في السادة، إلا بأن يريهم عمله من دون شكوك. ولهذا سحب من إحدى الزوايا طاولة يابانية واطئة وصغيرة، غطاها بقطعة قماش ثم وضع فوقها الأشياء التي أحضراها. مَن كان قد رأى أصل هذا الفطور، كان سيشعر بالرضا عن الحال عمومًا، فيما عدا ذلك كانت المآخذ كثيرة، حسبما قال كارل في نفسه.

كانت برونيلدا جائعة لحسن الحظ. وفيما كان كارل يحضِّر كل شيء، أخذت تومئ له برأسها تعبيرًا عن رضاها، وأعاقته عن عمله عدة مرات، بأن تمد قبل الأوان أصابعها الرخوة والسمينة، ولربما كل يدها التي تهرس كل شيء مباشرة، وذلك كي تأخذ لنفسها لقمة ما. «لقد أجاد عمله»، قالت وهي تتلمظ وجذبت ديلامارش إلى كرسي بجانبها، بعد أن ترك المشط عالقًا في شعرها كي يتابع التسريح لاحقًا. ولمرأى الطعام جاهزًا صار وجهه أيضًا ودودًا، كلاهما كانا جائعين جدًا، فأسرعت أيديهما بالطول والعرض عبر الطاولة الصغيرة.

لقد أدرك كارل، أن على المرء هنا كي يبلغ الرضا، أن يجلب دائمًا الكثير ما أمكن، وعندما تذكر أنه قد ترك وراءه على أرض المطبخ مأكولات متنوعة صالحة للاستهلاك، قال: «في هذه المرة الأولى لم أكن أعرف كيف يجب أن تُدبَّر الأمور، في المرة القادمة سأفعلها بشكل أفضل». ولكنه حتى في أثناء كلامه تذكر إلى مَن يوجه كلامه، لقد كان مأخوذًا جدًا بالموضوع في حد ذاته.

أومأت برونيلدا راضية إلى ديلامارش برأسها، وكمكافأة ناولت كارل حفنة من قطع البسكوت.

شذرة ٢

خروج برونيلدا

ذات صباح دفع كارل من بوابة البناء عربة المرضى، التي كانت برونيلدا جالسة فيها. لم يعد الوقت مبكرًا حسبما كان يأمل. كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يقوموا بالخروج في أثناء الليل، كيلا يثيروا الانتباه في الطرقات، الأمر الذي لا يمكن تجنبه أثناء النهار، على الرغم من قبول برونيلدا بتغطية نفسها بقطعة قماش رمادية كبيرة. غير أن نقل برونيلدا على الدرج استغرق وقتًا طويلًا جدًا، على الرغم من تقديم الطالب أكبر المساعدة، علمًا بأنه

أضعف قوة من كارل بكثير، حسبما تبيّن في هذه المناسبة. وقد أبدت برونيلدا شجاعة كبيرة، فقلما تنهدت أو تأوهت، محاولةً تسهيل المهمة على حاملَيها بكل الطرق، ولكن لم يَسعْهما إلا إنزال حملهما كل خامس درجة من الدرج الطويل، كي يوفرا لنفسيهما ولها الوقت الضروري للاستراحة. كان صباحًا باردًا، وفي الدهاليز كان يهب هواء بارد، كما في الأقبية، لكن كارل والطالب كانا غارقين في عرقهما، ما اضطرهما في كل استراحة إلى أن يأخذ كل منهما أحد أطراف غطاء برونيلدا، التي ناولتهما إياه بكل ودٍ، كي يجففا وجهيهما.

وهكذا فإنهما لم يصلا إلا بعد ساعتين إلى أسفل البناء، حيث كانت العربة واقفة منذ المساء. ثم إن رفع برونيلدا إلى داخل العربة كلف جهدًا إضافيًا، وبعد ذلك كان بالإمكان اعتبار أن العملية ككل قد نجحت، لأن دفع العربة لن يكون عسيرًا بفضل دواليبها العالية. ولم يبق سوى خشية أن تفرط العربة من ثقل برونيلدا. ولكن كان لابد لكارل من تحمّل هذا الخطر، إذ لم يكن من الممكن اصطحاب عربة احتياطية، عرض الطالب من باب المزاح أن يجهزها ويدفعها. بعد ذلك آن الأوان لتوديع الطالب، وقد جرى بود صادق، بحيث بدا أن جميع الخلافات بين برونيلدا والطالب قد نُسيت، حتى أنه اعتذر عن الإهانة القديمة التي ألحقها بها عند مرضها، فقالت برونيلدا إن كل هذا قد طواه النسيان وتم التعويض عنه وأكثر. وأخيرًا عرضت على الطالب أن يقبل منها بودٍ وعلى سبيل الذكرى دولارًا، أخرجته بعناء من بين أروابها الكثيرة. ومع بخل برونيلدا المعروف كان لهذه الهدية أهمية كبيرة، إضافة إلى سرور الطالب البالغ بها، إلى حد أنه رمى قطعة الدولار في الهواء احتفاء. لكنه اضطر من ثم إلى البحث عنها على الأرض، وكان على كارل أن يساعده، إلى أن عثر عليها أخيرًا تحت عربة برونيلدا. أما الوداع بين الطالب وكارل فكان أبسط بكثير طبعًا، فتصافحا فقط وعبرا عن قناعتهما بأنهما سيلتقيان ثانية ذات يوم، وحينها سيكون أحدهما على الأقل قد حقق ما يستحق الفخر –الطالب نسبه إلى كارل وكارل بدوره إلى الطالب– لكن هذا للأسف لم يتحقق حتى اليوم. ثم أمسك كارل بمزاج طيبٍ مقبض العربة ودفعها خارج البوابة. بقي الطالب يتابعهما بنظره ما داما في مدى الرؤية وهو يلوح بمنديل. كما هز كارل رأسه عدة مرات إلى الوراء محييًا، كما التفتت برونيلدا إلى الوراء برغبة، لكن مثل هذه الحركات كانت مجهدة بالنسبة إليها. وليمكّنها من الوداع الأخير، أدار كارل العربة في نهاية

الشارع بشكل دائرة، بحيث تمكنت برونيلدا من رؤية الطالب، الذي انتهز هذه الفرصة ليلوح بمنديله بحيوية خاصة.

ثم قال كارل إن طول الطريق أمامهما لن يسمح لهما بأخذ أي استراحة، لاسيما وأنهما قد انطلقا متأخرين جدًا عما كانا ينويان. وفعلًا أخذا يريان بين الحين والآخر، هنا وهناك عربات نقل، وكذلك بعض الناس، أفرادًا غالبًا، في طريقهم إلى أعمالهم. لم يقصد كارل بملاحظته أي شيء أبعد مما قاله حقًا، لكن برونيلدا بمشاعرها الرقيقة فهمتها على نحو مغاير، فغطت نفسها كليًا بغطائها الرمادي. لم يعترض كارل على ذلك؛ فعربة يد مغطاة بقماش رمادي كانت في الواقع ستلفت الأنظار، ولكن أقل بما لا يقارن من برونيلدا مكشوفة. قاد العربة بحذر كبير، وكان قبل أن ينعطف يراقب الطريق الآخر، بل كان يوقف العربة عند الضرورة ويمشي وحده عدة خطوات إلى الأمام، فإذا رأى احتمال لقاءٍ غير سار، كان ينتظر حتى تتوفر إمكانية تجنبه، أو يختار طريقًا مغايرًا تمامًا. وبما أنه قد عاين مسبقًا بدقة كل الطرق المحتملة، فإنه لم يتعرض إلى خطر القيام بتحويلة كبيرة. لكنه واجه بعض العراقيل التي ظهرت وكانت مثيرة للخشية، غير أنها لم تمكّنه من التنبؤ بها في كل حالة على حدة. وهكذا، في طريقٍ صاعد قليلًا وخاوٍ تمامًا ومن السهل أن يشمله المرء بنظرة، وهي ميزة حاول كارل الاستفادة منها لزيادة السرعة، ظهر له فجأة من زاوية معتمة لبوابة بناء شرطي وسأله عمّا يحمل في هذه العربة المغطاة بعناية فائقة. وعلى الرغم من صرامة نظرته إلى كارل، وجد نفسه مضطرًا إلى الابتسام، عندما رفع بيده الغطاء ورأى وجه برونيلدا المتعرق والحذر.

«كيف هذا؟» قال الشرطي «ظننتك تحمل عشرة أكياس من البطاطا، فإذا بها امرأة واحدة فقط؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟ ومن أنتما؟».

لم تجرؤ برونيلدا إطلاقًا على النظر إلى الشرطي، بل ركزت نظرها طوال الوقت على كارل مع الشك الواضح في أنه سيتمكن من إنقاذها. لكن كارل، الذي صار خبيرًا بالتعامل مع رجال الشرطة، لم يبدُ له الأمر خطيرًا جدًا، وقال:

«يا آنسة، هلا أبرزتِ الوثيقة الورقية التي حصلتِ عليها».

«طبعًا»، أجابت برونيلدا وبدأت بالبحث عنها بطريقة لا أمل منها، بحيث بدت مريبة حقًا.

«الآنسة، لن تعثر على الوثيقة الورقية»، قال الشرطي بسخرية جلية.

«بل ستجدها، لأنها حتمًا معها. كل ما هنالك أنها نسيت مكانها»، قال كارل بهدوء وبدأ يبحث بنفسه، إلى أن سحبها فعلًا من تحت ظهر برونيلدا.

شمل الشرطي الوثيقة بنظرة سريعة ثم قال مبتسمًا: «هذه هي إذن. أهذه الآنسة هي من هذا النوع من الأوانس؟ وأنت يا صغير تقوم بالوساطة والنقل؟ ألا تعرف حقًا شغلًا أفضل من هذا؟».

هز كارل كتفيه وحسب، فهذا السؤال كان من نوع تدخلات الشرطة المعروفة. وعندما لم يتلق الشرطي جوابًا، قال: «حسنًا، سفرة سعيدة». ربما انطوت كلمات الشرطي على ازدراء، لذلك تابع كارل دفع العربة دون تحية، فازدراء الشرطة للمرء أفضل من اهتمامها به.

بعد ذلك بقليل وقع لقاءٌ كان لربما أكثر إزعاجًا. فقد اقترب منه رجل كان يدفع أمامه عربة محمَّلة بحاويات حليب كبيرة، وممتلئًا فضولًا ليعرف ماذا يوجد على عربة كارل تحت الغطاء الرمادي. كان من الصعب الافتراض أنه سيسير في الطريق نفسه مثل كارل، لكنه بقي لصقه، مهما كانت الانعطافات التي اختارها كارل مفاجئة. اكتفى بادئ الأمر بملاحظات مثل: «لابد أن يكون حملك ثقيلًا!» أو «طريقة تحميلك كانت سيئة، ثمة ما سيسقط من فوق!». لكنه بعد فترة صار أكثر مباشرة: «ماذا لديك تحت الغطاء؟» فأجابه كارل: «وما شأنك أنت؟» ولمّا جعل الردُ الرجلَ أكثر فضولًا، قال كارل أخيرًا: «حمولتي تفاح».

«كل هذا تفاح!» قال الرجل بدهشة ولم يعد يتوقف عن تكرار ما يعبر عن دهشته، ثم قال: «لابد أنها حصاد موسم كامل». فأجابه كارل: «معك حق». ولكن إما لأنه لم يصدق كارل أو لرغبته في إزعاجه، تمادى وصار –كل هذا أثناء المسير– يمد يده نحو الغطاء كمن يمزح،

وتجاسر أخيرًا حتى على جذب الغطاء قليلًا. كم كان على برونيلدا أن تعاني! ومراعاة لها تجنب كارل الشجار مع الرجل، وانعطف إلى أول بوابة بناء مفتوحة، وكأنه قد بلغ هدفه، وقال: «لقد وصلت إلى بيتي، شكرًا لمرافقتك». بقي الرجل واقفًا أمام البوابة مندهشًا ومتابعًا بنظره كارل، الذي تابع سيره بهدوء، مستعدًا، إن دعت الضرورة، لأن يعبر الفناء الأول كله. لم يعد أمام الرجل مبرر للشك، لكنه ليُكمل خبثه حتى النهاية، مشى على رؤوس أصابع قدميه وراء كارل وشد الغطاء بشدة، كاد معها وجه برونيلدا أن ينكشف، وقال: «كي يتهوَّى تفاحك»، وركض راجعًا. حتى هذا تقبّله كارل، ما دام قد خلّصه من الرجل بصورة نهائية. ثم دفع العربة إلى إحدى زوايا الفناء، حيث وضِعت بعض الصناديق الكبيرة الفارغة، إذ أراد في حمايتها أن يقول لـ برونيلدا تحت الغطاء كلمات تخفف عنها. لكنه اضطر إلى التحدث إليها طويلًا، فقد كانت غارقة في دموعها وتوسلت إليه بكل جدية، كي يبقى هنا طوال النهار وراء الصناديق، وألا يتابع الطريق إلا في الليل. ربما ما كان ليقدر وحده على إقناعها بخطل هذه الفكرة، ولكن عندما جاء أحدهم وسحب من الجانب الآخر من كتلة الصناديق، صندوقًا ورماه أرضًا بصخبٍ تردد صداه بين جدران الفناء الخاوي، فزعت برونيلدا بشدة إلى حد أن سحبت الغطاء فوقها دون أن تجرؤ على قول أي كلمة، ولربما شعرت بالسعادة عندما حزم كارل أمره بسرعة وتابع الطريق. بدأت الطرقات الآن تزداد حيوية، إلا أن العربة لم تلفت اهتمام المارة كثيرًا كما خشي كارل. وربما كان اختيار وقت آخر للانتقال أكثر حكمة عمومًا. وفي حال أن دعت الضرورة إلى تكرار هذه السفرة، كان كارل سيثق بنفسه للقيام بها في ساعة الظهيرة. ومن دون أن يتعرض إلى مضايقات ثقيلة أخرى انعطف أخيرًا إلى الزقاق الضيق والمعتم، حيث توجد المنشأة رقم ٢٥. كان المشرف الأحول واقفًا أمام الباب حاملًا ساعته بيده، وقال:

«هل أنت دائمًا دقيقًا في مواعيدك على هذا النحو؟».

«كانت هناك عراقيل مختلفة»، أجاب كارل.

«هذه موجودة دائمًا كما هو معروف. لكنها لا تسري في هذه المنشأة، ليكن هذا في علمك!» قال المشرف.

لم يعد كارل يبالي بمثل هذه الكلام، فكل امرئ يستغل سلطته ويهين الأدنى منه. وما أن يتعود المرء عليه حتى يصير وقعه رتيبًا مثل دقات الساعة. إلا أن ما أرعبه عندما دفع العربة في الردهة، كان الوسخ المهيمن هنا والذي توقع وجوده طبعًا. وإذا دقق المرء النظر كان سيجد أنه ليس وسخًا ملموسًا. كان بلاط الردهة مكنوسًا بصورة مقبولة، واللوحات الجدارية لم تكن قديمة، والنخلات الاصطناعية مغبرة قليلًا، ومع ذلك كان كل شيء يولد الانطباع بكونه دهنيًا منفرًا، وكأن كل شيء قد استخدم على نحو سيئ، بحيث ما عاد يمكن للنظافة أن تصلح ما فسد. كان كارل عندما يدخل إلى أي مكان، يحب أن يفكر بما يمكن تحسينه فيه، وكم كان سيسعده أن يبدأ من فوره، دون مبالاة بالعمل الذي يمكن ربما ألا تكون له نهاية. أما هنا فإنه لم يعرف ما يجب عمله. وببطء سحب الغطاء الرمادي عن برونيلدا.

«أهلًا بك يا آنسة»، قال المشرف بلهجة مفخمة، ما من شك في أن برونيلدا قد ولدت لديه انطباعًا جيدًا. وما أن لاحظت برونيلدا ذلك حتى عرفت كيف تستغله، حسبما رأى كارل راضيًا. وتلاشى كل خوف الساعات الأخيرة.

(٨) مسرح أوكلاهوما الطبيعي

رأى كارل على ناصية أحد الشوارع إعلانًا يحمل الكتابة التالية: «في ميدان سباق كلايتون سيتم اليوم منذ الساعة السادسة صباحًا وحتى منتصف الليل قبول مستخدمين للعمل في مسرح أوكلاهوما! إن مسرح أوكلاهوما الكبير يناديكم! إنه يناديكم اليوم فقط، مرة واحدة! مَن يفوِّت الفرصة الآن، يفوِّتها إلى الأبد! ومَن يفكر بالمستقبل، ينتمي إلينا! نرحب بالجميع! مَن يريد أن يصير فنانًا، فليسجل نفسه! نحن المسرح الذي يحتاج إلى الجميع، إلى كل فرد في مكانه! مَن حسم أمره بالانتماء إلينا، فإننا نهنئه هنا في الحال! ولكن أسرعوا كي تدخلوا حتى منتصف الليل! عند الساعة الثانية عشرة سيتم إغلاق كل شيء ولن يُفتح ثانية! ملعون مَن لا يصدقنا! هيا إلى كلايتون!».

صحيح أن الواقفين أمام الإعلان كانوا كُثرًا، ولكن لم يبدُ أنه قد لاقى استحسانًا كبيرًا. فالإعلانات باتت كثيرة، والناس لم تعد تصدق الإعلانات. وهذا الإعلان كان أقل قابلية للتصديق من غيره، مما درجت عليه الإعلانات عادة. فهذا الإعلان انطوى في المقام الأول على غلطة كبيرة، إذ إنه لم يذكر أي كلمة عن الأجر. وإنْ كان الأجر يستحق الذكر ولو تنويهًا، لذكره الإعلان حتمًا؛ ما كان لينسى العنصر الأشد إغراءً. إذ ما من أحد يبغي أن يصير فنانًا، لكن الكل يبغي الحصول على أجر لقاء عمله. أما بالنسبة إلى كارل فقد انطوى الإعلان على إغراء كبير. «نرحب بكل فرد» جاء في الإعلان، كل فرد، أي كارل أيضًا. كل ما عمله حتى الآن طواه النسيان، لا أحد سيجعل مما عمله تهمة ضده. بل يجوز له التقدم إلى عمل، لا يُعدّ مشينًا، وإنما يمكن الدعوة للقيام به علنًا! وهناك وعد علني كذلك بأنهم سيقبلون به. إنه لا يطالب بما هو أفضل، بل يريد أخيرًا أن يجد بداية مسيرة عمل شريف، وربما كانت البداية هنا. ومهما كان الكلام الوارد في الإعلان مبالغًا فيه، كذبة، وحتى إذا كان مسرح أوكلاهوما الكبير لا أكثر من سيرك صغير جوال، فإنه يريد تشغيل مستخدمين، وهذا وحده كاف. لم يقرأ كارل الإعلان مرة ثانية، لكنه بحث ثانية عن جملة «نرحب

بالجميع». في البداية فكر كارل بالذهاب مشيًا إلى كلايتون، لكن ذلك كان سيستغرق ثلاث ساعات من المشي الحثيث، وكان من المحتمل بعد الوصول أن تكون جميع أماكن العمل المتوفرة قد شُغِلت. ولكن حسب الإعلان كان عدد الذين سوف يُقبلون غير محدود، إلا أن إعلانات عروض العمل كانت تُصاغ دائمًا على هذا النحو. وأدرك كارل أنه إما أن يتخلى فورًا عن عرض العمل أو أن يسافر. راجع حساب نقوده ووجد أنه دون هذه السفرة سيكفيه ثمانية أيام، وأخذ يحرك قطع النقود الصغيرة على راحة يده ضاربًا أخماسًا بأسداس. ثمة رجل كان يراقبه، ربت على كتفه وقال له: «سفرة موفقة إلى كلايتون». هز كارل رأسه شاكرًا بصمت وتابع الحساب. لكنه سرعان ما اتخذ قراره، ففصل المبلغ الضروري للسفرة جانبًا وأسرع إلى محطة قطار الأنفاق. وعندما نزل في كلايتون سمع فورًا ضجة عدد كبير من الأبواق. كانت ضجة مشوشة، بلا تناسق بين أصوات الأبواق، وكأن كل عازف ينفخ لوحده بمعزل عن الآخرين. لكن هذا لم يزعج كارل، بل أكد له بالأحرى أن مسرح أوكلاهوما كان مشروعًا كبيرًا. لكنه عندما غادر بناء المحطة وشمل بنظره المنشأة كلها، أدرك أن كل شيء كان أكبر بكثير مما بوسعه أن يتصور، ولم يستوعب كيف لمشروع أن يتحمل كل هذه المصاريف من أجل غرض واحد هو الحصول على عاملين. أمام مدخل ميدان السباق أقيمت منصة منخفضة وطويلة، وقفت عليها مئات من النساء بأزياء ملائكة، من قماش أبيض وأجنحة كبيرة على الظهر، ينفخن في أبواق طويلة ذهبية لمّاعة. لكنهن لم يكن على المنصة مباشرة، بل وقفت كل منهن على قاعدة غير مرئية، لأن الأقمشة الطويلة الهفهافة لأزياء الملائكة كانت تغلفها تمامًا. ولما كانت هذه القواعد مرتفعة جدًا تصل إلى نحو مترين، بدت هيئات النساء عملاقة، سوى أن رؤوسهن الصغيرة كانت تخلخل إلى حد ما انطباع الضخامة، كما أن شعورهن المسبلة بين الجناحين الكبيرين وعلى الجانبين بدت قصيرة جدًا، بل مضحكة. وتجنبًا لنشوء مشهد موحد رتيب، تم استخدام قواعد بمختلف الحجوم؛ كان هناك نساء على ارتفاع منخفض لا يزيد كثيرًا عن الحجم الطبيعي، ولكن إلى جانبهن كان هناك نساء يتسامقن على علو شاهق، فيكاد يعتقد المرء أن أخف هبة ريح ستعرضهن إلى الخطر. وجميع النساء كن ينفخن في أبواقهن. لم يكن هناك كثير من المستمعين. نحو عشرة فتيان قصار، بالمقارنة مع الهيئات الملائكية الطويلة، كانوا يتمشون

جيئة وذهابًا أمام المنصة رافعين أنظارهم إلى النساء ويؤشرون لبعضهم إلى هذه أو تلك، ولكن لم تبدُ عليهم نية التقدم للشغل. لم يكن هناك سوى رجل واحد متقدم في السن إلى حد ما، يقف بعيدًا قليلًا ومعه زوجته وطفل في عربة أطفال. كانت الزوجة تمسك العربة بيد وتستند بالأخرى على كتف زوجها، ورغم إعجابهما بالمشهد عمومًا، بدت عليهما خيبة أمل واضحة. فقد كانا يتوقعان أيضًا العثور على فرصة عمل، لكن عزف الأبواق هذا حيرهما. وكان كارل في حالة مماثلة. اقترب من الرجل، أنصت إلى الأبواق قليلًا، ثم قال:

«أليس هنا مكان القبول لمسرح أوكلاهوما؟».

«أعتقد ذلك»، أجاب الرجل «لكننا ننتظر هنا منذ ساعة ولا نسمع إلا هذه الأبواق. لا نرى إعلانًا في أي مكان، ولا مَن يمكن أن يقدم معلومات».

«ربما هم ينتظرون حتى يتجمع عدد أكبر من الناس. فالعدد هنا قليل جدًا في الحقيقة»، قال كارل.

«محتمل»، قال الرجل وعادا إلى الصمت. كان من الصعب فعلًا أن يفهم المرء شيئًا في ضجيج هذه الأبواق. ولكن من ثم همست المرأة بشيء لزوجها، فأومأ برأسه، فالتفتت مخاطبة كارل:

«ألا يمكنك الذهاب إلى مضمار السباق والسؤال عن مكان القبول؟».

«نعم يمكنني، ولكن عليّ تخطي المنصة والعبور بين الملائكة».

«وهل هذا صعب؟» سألته المرأة.

بالنسبة إلى كارل بدا الطريق سهلًا من وجهة نظر المرأة، لكنها لم ترغب في إرسال زوجها.

«حسنًا، سوف أذهب».

«هذا لطف بالغ منك»، قالت له المرأة وصافحته كما صافحه زوجها.

تراكض الفتيان معًا ليروا عن قرب صعود كارل على المنصة. وبدا كأن النساء قد نفخن بقوة أكبر تحية لأول باحث عن عمل. أما اللواتي كان كارل لتوه يتخطى قواعدهن، فقد أبعدن الأبواق عن أفواههن وانحنين جانبًا ليتابعن طريقه. في الطرف الآخر من المنصة رأى كارل رجلًا يتجول جيئة وذهابًا بقلق، بانتظار الناس على ما بدا، ليقدم لهم جميع المعلومات المرغوب فيها. كان كارل على وشك التوجه إليه، عندما سمع اسمه يُنادى من فوقه.

«كارل!» صاحت واحدة من الملائكة. رفع كارل نظره وبدأ يضحك فرحًا بالمفاجأة السارة. إنها فانّي.

«فاني!» نادى وحياها بيده نحو الأعلى.

«اصعد إلي!» صاحت فاني «لن تمر وتتجاوزني!» وباعدت بين الأقمشة المنسدلة، بحيث ظهرت القاعدة ودرج ضيق يؤدي إلى فوق.

«هل الصعود إلى فوق مسموح؟» سأل كارل.

«مَن الذي سيمنعنا عن أن نتصافح!» صاحت فاني وتلفتت حولها غاضبة، لترى ما إن كان أحدهم قد جاء بأمر المنع. لكن كارل كان قد صعد على الدرج.

«أبطَأ!» قالت فاني «سنهوي معًا نحن والقاعدة!» ولكن لم يحدث شيء، ونجح كارل بالوصول إلى الدرجة الأخيرة. «انظر»، قالت فاني بعد أن تبادلا التحية، «انظر إلى هذا العمل الذي حصلتُ عليه».

«إنه جميل فعلًا»، قال كارل وهو ينظر حوله. لاحظت جميع النساء في الجوار وجود كارل وأخذن يقهقهن، «أنتِ الأعلى بينهن تقريبًا»، قال كارل ومد يده ليقيس ارتفاع الأخريات.

«لقد رأيتك حالما خرجتَ من المحطة، لكنني للأسف في الصف الأخير هنا، فكان صعبًا أن تراني، ولم أستطع أن أناديك، إلا أني رفعت قوة نفخي في البوق جداً، لكنك لم تتعرفني».

«كلكن تنفخن بشكل سيئ، دعيني أنفخ قليلًا». قال كارل.

«بالتأكيد»، قالت فاني وناولته البوق، «لا تُفسِد الجوقة، وإلا سرحوني».

بدأ كارل ينفخ، ظانًا أن هذا البوق لا أكثر من معالجة أولية، الغرض منها توليد الضجيج، ولكن تبيّن له الآن أنه آلة موسيقية حقيقية (ترومبيت) قادرة على إعطاء أي تلوين لحني. وإذا كانت جميع الأبواق هنا بهذه المواصفات فهناك سوء استخدام كبير بحقها. نفخ كارل دون أن يدع الأبواق الأخرى تزعجه، نفخ بملء صدره لحنًا سمعه ذات يوم في إحدى الحانات. كان فرحًا بالتقائه هنا بصديقة قديمة وبالسماح له بنفخ الترومبيت أمام الجميع وباحتمال حصوله على عمل جيد. توقف كثير من النساء عن النفخ واستمعن إليه، وعندما توقف فجأة، كان أقل من نصفهن ما يزال ينفخ، وتدريجيًا عادت الضجة إلى كمالها.

«أنت فنان»، قالت فاني عندما أعاد الترومبيت إليها، «دعهم يقبلونك كعازف ترومبيت».

«وهل يقبلون رجالًا أيضًا؟» سألها كارل.

«نعم، نحن ننفخ مدة ساعتين. ثم يحل محلنا الرجال، في أزياء شياطين. نصفهم ينفخ والنصف الثاني يقرع الطبول. إنه مشهد بالغ الجمال، كما أن الديكور والأزياء عمومًا مكلفة جدًا. أليس زيُّنا جميلًا؟ والأجنحة؟» ونظرت إلى نفسها حتى المنصة.

«هل تعتقدين أني أنا أيضًا سأحصل على عمل؟» سألها كارل.

«بالتأكيد»، أجابته «إنه أكبر مسرح في العالم. ما أجمل هذه المصادفة، أن نلتقي مجددًا معًا! إلا أن الأمر يتعلق بنوع الشغل الذي ستحصل عليه. فمن الممكن حتى إذا عملنا كلانا هنا، ألا نرى واحدنا الآخر».

«وهل المسرح ككل، حقًا بهذه الضخامة؟» سألها كارل.

«إنه أكبر مسرح في العالم»، كررت فاني، «إلا أنني شخصيًا لم أره بعد، لكن بعض زميلاتي، اللواتي كن في أوكلاهوما، يقلن إنه تقريبًا بلا حدود».

«لكن المتقدمين للعمل قِلة»، قال كارل وأشار نحو الأسفل إلى الفتيان والعائلة الصغيرة.

«هذا صحيح»، أجابت «ولكن فكر في أننا نقبل أناسًا في جميع المدن، وأن مجموعتنا الدعائية تسافر باستمرار، وأن هناك مثل مجموعتنا كثير غيرها».

«أيعني هذا أن المسرح لم يُفتتَح بعد؟» سألها كارل.

«طبعًا افتتح، فهو مسرح قديم، لكنه يتوسع باستمرار».

«لكني أستغرب ألا يأتيه مزيد من الناس». علق كارل.

«نعم، هذا غريب».

«ربما كان السبب، أن هذا الجهد في الملائكة والشياطين ينفرهم أكثر مما يجذبهم»، قال كارل.

«كيف لك أن تعرف ذلك! لكنه محتمل، قل هذا لرئيسنا فقد تفيده بهذا».

«أين هو؟».

«في ميدان السباق، على منصة الحكّام».

«وهذا أيضًا يدفعني للاستغراب. لماذا سيجري القبول في ميدان سباق؟».

«نحن في كل مكان نُجري تحضيرات واسعة لأكبر ازدحام، وفي ميدان السباق يوجد مكان متسع. وفي جميع الأكشاك، حيث تُسجَل المراهنات عادة، تم ترتيب مكاتب القبول. قد يزيد عددها عن مئتي مكتب».

«ولكن هل لمسرح أوكلاهوما مداخيل واسعة إلى هذا الحد، كي يتحمل تكاليف مجموعات دعائية من هذا القبيل؟».

«وما شأننا نحن بذلك؟» قالت فاني «ولكن اذهب الآن كارل، كيلا يفوتك شيء، وأنا عليّ متابعة النفخ. حاول على أية حال أن تحصل على عمل في هذه المجموعة، وعد إلي فورًا لتخبرني. لا تنسَ، أني أنتظر الخبر بفارغ الصبر». ضغطت على يده ونبهته إلى اتخاذ الحيطة أثناء نزوله على الدرج، وضعت الترومبيت على فمها، لكنها لم تنفخ فيه حتى رأت كارل على الأرض بأمان. أعاد كارل الأقمشة على الدرج إلى ما كانت عليه. شكرته فاني بهزة رأس، وذهب كارل، وهو يفكر بما سمعه على كل محمل، صوب الرجل، الذي رأى كارل فوق عند فاني، واقترب من القاعدة بانتظاره.

«أتريد الانضمام إلينا؟» سأله الرجل وأردف «أنا رئيس مستخدمي هذه المجموعة وأرحب بك» كان طوال الوقت حاني الظهر قليلًا تعبيرًا عن تهذيب ومجاملة، ويتبختر، رغم أنه لم يتحرك من مكانه، ويلعب بسلسلة ساعته.

«شكرًا، قرأت إعلان فرقتكم وأتقدم لتسجيل نفسي بناء على طلب الإعلان»، قال كارل.

«سلوك صحيح جدًا»، قال الرجل معجبًا، وأضاف «قليلون هنا للأسف مَن يسلكون بهذا الشكل الصحيح».

فكر كارل أن بمقدوره الآن لفت انتباه الرجل إلى احتمال أن تكون وسائل جذب المجموعة الدعائية لم تحقق مفعولها بسبب عظمتها تحديدًا. لكنه لم يقل شيئًا، لأن هذا الرجل ليس رئيس الفرقة المسرحية، إضافة إلى أنه لا يُنصَح عادة بأن يتقدم المرء فورًا بمقترحات

تحسين، قبل أن يُقبَل للعمل، ولهذا اكتفى بأن يقول: «هناك شخص آخر ينتظر في الخارج ويريد أن يتقدم أيضًا، وقد أرسلني لأستطلع. أيجوز أن أحضِره الآن؟».

«طبعًا، كلما كثر القادمون كان أفضل»، قال الرجل.

«معه أيضاً امرأته وطفل صغير في عربة أطفال، هل يحضرا أيضًا؟».

«طبعًا»، قال الرجل وبدا أنه ابتسم ليبدد شكوك كارل «بإمكاننا تشغيل الجميع».

«سأعود حالًا»، قال كارل وركض إلى طرف المنصة. لوَّح للزوجين وهتف أن بإمكان الجميع الحضور. ساعد في رفع عربة الطفل إلى سطح المنصة ثم مشوا معًا. والفتيان الذين رأوا ذلك، تشاوروا فيما بينهم مترددين حتى اللحظة الأخيرة وأيديهم في جيوبهم، ثم صعدوا ببطء إلى المنصة وتبعوا أخيرًا كارل والزوجين. وتوًا خرجت من محطة قطار الأنفاق دفعة جديدة من المسافرين، الذين ما أن رأوا المنصة والملائكة حتى رفعوا أذرعهم مندهشين. وبدا على كل حال أن التقدم إلى شواغر العمل ستدب فيه الحيوية الآن. كان كارل مسرورًا جدًا لقدومه مبكرًا، ربما كان الأول. أما الزوجان فكانا خائفين وطرحا عدة أسئلة عما إذا كانت المتطلبات للعمل عالية. وأجاب كارل بأنه لا يعرف شيئًا محددًا بعد، ولكن توَّلد لديه انطباع عميق بأن الجميع دون استثناء سيُقبلون، فلا داعي للقلق.

تقدم رئيس المستخدمين منهم لاستقبالهم، وكان بالغ السرور لحضور هذا العدد الكبير، فرك يديه وحيّا كل واحد منهم بانحناءة بسيطة ثم رتّبهم كلهم في رتل واحد. كان كارل هو الأول ثم الزوجان ومن ثم الآخرون. وبعد أن تراصفوا –تدافع الفتيان فيما بينهم بشكل فوضوي، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى ساد الهدوء عندهم– سكتت الأبواق فقال رئيس المستخدمين: «باسم مسرح أوكلاهوما أرحب بكم. لقد وصلتم مبكرين» (كان الوقت ظهرًا)، «الازدحام لم يشتد بعد، ولهذا فإن شكليات قبولكم ستنجز بسرعة. جميعكم طبعًا تحملون أوراقكم الثبوتية».

فورًا أخرج الفتيان من جيوبهم أوراقًا ما ولوّحوا بها لرئيس المستخدمين، لكز الزوج زوجته فأخرجت من تحت فراش عربة الطفل حزمة كبيرة من الأوراق. أما كارل فلم يحمل أية أوراق. فهل سيشكل هذا عائقًا أمام قبوله؟ على أية حال كان كارل يعرف عن خبرة، أن بإمكان الإنسان إذا امتلك شيئًا من الحزم، أن يتخطى مثل هذه الشروط. وهذا ليس بعيد الاحتمال. شمل رئيس المستخدمين الرتل بنظرة، تأكد بها أن الجميع يحملون أوراقهم، وبما أن كارل قد رفع يده أيضًا، وإن كانت فارغة، فقد افترض أن كل شيء نظامي لديه أيضًا.

«حسنًا»، قال رئيس المستخدمين وأشار إلى الفتيان، الذين أرادوا أن تُفحص أوراقهم فورًا، قائلًا، «الأوراق سوف تُدقق الآن في مكاتب القبول. وكما قرأتم في إعلاننا، بإمكاننا تشغيل الجميع. ولكن علينا أن نعرف، ما هي المهنة التي مارسها كل منكم حتى الآن، كي نشغله في المكان الصحيح، حيث يمكنه استغلال مهاراته».

«لكنه مسرح»، فكر كارل مرتابًا وأنصت بانتباه كبير.

«لهذا السبب»، تابع رئيس المستخدمين «أقمنا في أكشاك المراهنات مكاتب قبول، كلٌ منها لمجموعة من المهن. كل واحد منكم سيذكر لي الآن مهنته، والعائلة تتبع عمومًا مكتب قبول الزوج. ومن ثم سأقودكم إلى المكاتب، حيث ستدقق أوراقكم أولًا، ثم مهاراتكم من قبل مختصين. سيكون الامتحان قصيرًا جدًا، فلا داعي للخوف. وهناك سوف تُقبلون فورًا وتزودون بالإرشادات التالية. لنبدأ إذن. هنا المكتب الأول، وهو مخصص كما تقول اللافتة للمهندسين، فهل بينكم مهندس ربما؟».

رفع كارل يده، إذ اعتقد، لأنه لا يحمل أوراقًا ثبوتية، أن عليه أن ينجز كل الشكليات بسرعة ما أمكن، وأن لديه مسوِّغًا معقولًا للتقدم هنا، فقد كان يريد أن يصير مهندسًا. ولكن عندما رأى الفتيان أن كارل قد رفع يده، شعروا بالحسد ورفعوا أيديهم كلهم، دون استثناء.

اشرأب رئيس المستخدمين وسأل الفتيان: «هل أنتم مهندسون؟» فأنزلوا أيديهم جميعهم ببطء، فيما بقي كارل مصرًا على خياره. نظر إليه الرئيس غير مصدق، إذ بدا له أن كارل

في ثيابه الرثة جدًا وصغر سنه، لا يُعقل أن يكون مهندسًا، ومع ذلك فإنه لم يعلّق بشيء، ربما امتنانًا لأن كارل، في رأيه على الأقل، قد أدخل المتقدمين للعمل إليه. أشار بيده فقط داعيًا إياه إلى المكتب، فدخل كارل، فيما التفت رئيس المستخدمين إلى الآخرين.

في مكتب المهندسين كان يجلس سيدان إلى جانبي طاولة مستطيلة وهما يجريان مقارنة بين لائحتين موجودتين أمامهما، أولهما يقرأ بصوت عال والثاني يضع خطًا في لائحته تحت الأسماء التي قرئت. عندما دخل كارل محييًا، أبعدا اللائحتين فورًا وتناولا سجلين كبيري الحجم وفتحاهما.

قال الأول، الذي بدا واضحًا أنه مجرد كاتب: «أرجو أن أرى أوراقك الثبوتية».

«إني لا أحملها معي للأسف»، قال كارل.

«إنها ليست معه»، قال الكاتب للسيد الثاني وكتب جواب كارل في سجله فوراً.

«هل أنت مهندس؟» سأله من ثم السيد الثاني الذي بدا أنه مدير المكتب.

«لم أصبح بعد»، قال كارل بسرعة «ولكن».

«يكفي»، قال المدير بسرعة أكبر «أنت إذن لا تنتمي إلينا. أرجو الانتباه إلى اللافتة».

عض كارل على أسنانه، ويبدو أن المدير لاحظ هذا، إذ قال: «لا داعي للقلق. نستطيع أن نشغل الجميع». وأشار إلى أحد الخدم المتجولين بلا شغل بين الحواجز وقال: «خذ هذا السيد إلى مكتب ذوي المهارات الميكانيكية».

فهم الخادم الأمر حرفيًا، فأمسك كارل من يده ومشيا عبر كثير من الأكشاك. رأى كارل في أحدها أحد الفتيان وقد أنهى إجراءات قبوله وأخذ يصافح الرجال هناك شاكرًا. وفي المكتب الذي أدْخِل كارل إليه الآن، كان الإجراء حسبما توقع مشابهًا للأول، ولكن بما أنهم عرفوا منه أنه داوم في المدرسة المتوسطة، فقد أرسلوه إلى مكتب الذين كانوا في مدرسة

متوسطة، غير أنهم أخبروه هناك أنهم غير مختصين بوضعه، وأرسلوه مع الخادم إلى مكتب المدارس المتوسطة الأوروبية. كان مكان هذا المكتب متطرفًا، وليس أصغر من بقية المكاتب فحسب، بل سقفه أكثر انخفاضًا أيضًا. والخادم الذي أوصله حتى هنا كان غاضبًا من طول المشوار والاعتذارات والإحالات الكثيرة، التي اعتبر كارل المذنب الوحيد في التسبب فيها، ولم ينتظر الأسئلة، بل ترك كارل هناك وغادر فورًا. إذ كان واضحًا أن هذا المكتب هو الملاذ الأخير. عندما لمح كارل مدير المكتب، أرعبه الشبه بين هذا المدير وأستاذ ما زال على الأرجح يعلِّم في إحدى المدارس المتوسطة في الوطن. لكن الشبه تركز على كل حال حسبما تبين سريعًا في التفاصيل: الأنف العريض الذي تستند عليه النظارات، اللحية الكاملة الشقراء والمعتنى بها جدًا، حنية الظهر الخفيفة والصوت الهادر المفاجئ، تفاصيل بقيت مدعاة دهشة كارل لفترة من الزمن. ومن حس حظ كارل أنه لم يضطر هنا للانتباه كثيراً، فقد جرت الأمور على نحو أبسط من المكاتب السابقة. وهنا أيضاً تم تدوين أن أوراقه الثبوتية غير متوفرة، وعلق المدير على ذلك بأنه إهمال غير مفهوم، لكن الكاتب الذي كانت له هنا اليد الطولى، تجاوز الأمر بسرعة، وبعد بضع أسئلة صغيرة من جانب المدير، الذي كان يستعد لطرح سؤاله الرئيسي، أعلن الكاتب عن قبول كارل. التفت المدير نحو الكاتب بفم مفتوح، لكن هذا طوى الموضوع بحركة من يده قائلًا «مقبول»، ودوّن القرار في السجل. وكان جليًا أن الكاتب يرى في أن يكون المرء تلميذ مدرسة متوسطة أوروبية أمرًا مخجلًا. وبالتالي يمكن فورًا تصديق أقوال كل من يزعم ذلك بنفسه. كارل من جانبه لم يكن لديه أي اعتراض، فذهب إلى الكاتب كي يشكره. ولكن حدث إبطاء طفيف، عندما سأله الكاتب الآن عن اسمه. لم يجاوب كارل مباشرة، كان يشعر بشيء من الخجل من ذكر اسمه الحقيقي ليدوَّن في السجل. ولكن حالما يُكلَّف بالقيام بأصغر عمل وينفذه على نحو مرضٍ، حينها سيطلعهم على اسمه، ولكن ليس الآن. لقد تكتم عليه طويلًا، ولن يعلنه الآن. لذلك، ولمّا لم يخطر في باله اسم آخر، فقد ذكر لقبه الذي درج الناس على مناداته به، حيث اشتغل مؤخرًا وهو: «نِغرو».

«نِغرو؟» (الزنجي) سأله المدير وأدار وجهه ولوى فمه مستنكرًا، وكأن كارل قد بلغ الآن ذروة عدم المصداقية. وحتى الكاتب نظر مطولًا إلى كارل، ثم كرر «نِغرو» وسجل الاسم.

«لا أظنك كتبت نِغرو في السجل؟» صاح به المدير.

«نعم، نِغرو»، قال الكاتب بهدوء، وأشار بيده بأن على المدير الآن أن يتابع الإجراءات. فضغط المدير على نفسه، نهض وقال: «وبناء على ذلك فإن مسرح أوكلاهوما»، ولم يتابع، إذ إنه لم يستطع أن يعمل بعكس ضميره، فجلس وقال: «ليس اسمه نغرو». رفع الكاتب حاجبيه عاليًا، ونهض بنفسه واقفًا وقال لكارل: «إذن أحيطك أنا علماً بأنك قد قُبلت في مسرح أوكلاهوما، وأنك سوف تقابل رئيسنا الآن».

واستُدعي خادم آخر ليأخذ كارل إلى منصة الحكام. عند أسفل الدرج رأى كارل عربة الأطفال، وفي الوقت نفسه نزل الزوجان، والزوجة تحمل الطفل على ذراعها.

«هل قُبلت؟» سأله الزوج، وكان أشد حيوية مما كان عليه، كما نظرت الزوجة إليه ضاحكة من فوق كتف زوجها. وعندما أجاب كارل بأنه قُبل لتوه وأنه ذاهب ليقابل الرئيس، قال له الرجل:

«أهنئك إذًا، ونحن تم قبولنا أيضًا. يبدو أنه مشروع جيد، لكن المرء على كل حال لا يمكنه أن يلمّ بكل شيء مباشرة، الحال نفسه في كل مكان».

تبادلا تحية «إلى اللقاء»، وصعد كارل الدرج إلى المنصة. مشى ببطء، إذ بدا أن المكان الضيق فوق كان مزدحمًا بالناس، وهو لم يرغب في أن يزاحم أحدًا، حتى أنه توقف وألقى نظرة على ميدان السباق الكبير، الذي يمتد من جميع جوانبه حتى الغابات البعيدة. وتملكته رغبة في أن يشاهد ذات يوم سباق خيل، فهنا في أمريكا لم تسنح له الفرصة لذلك بعد. في أوروبا كان مرة وهو طفل صغير في سباق للخيل، لكنه لم يعد يتذكر شيئًا عنه، سوى أن أمه كانت تسحبه معها وهي تشق طريقها، بين أناس لا يريدون أن يبتعدوا، أي أنه عمليًا لم

يشاهد بعد أي سباق خيل. وراءه بدأ جهاز آلي يصدر خريرًا، فاستدار ورأى الجهاز الذي تُعلَن عليه في سباق الخيل أسماء الخيول الفائزة، والآن ظهرت الكتابة التالية: «البائع كالّا مع زوجته وطفلهما». إذن من هنا يجري إعلام المكاتب بأسماء المقبولين.

في تلك اللحظات نزل على الدرج بعض الرجال، كانوا يتحادثون بحيوية وفي أيديهم أقلام رصاص ودفاتر ملاحظات، فالتصق كارل بالدرابزين كي يسهل لهم المرور، وصعد لفوق حيث بات في المكان متسع. في زاوية من زوايا منصة مزودة بدرابزين خشبي –بدا المكان ككل أشبه بسطح منبسط لبرج ضيق– جلس رجل باسطًا ذراعيه على الدرابزين الخشبي وقد علق على صدره بشكل مائل شريطًا حريريًا عريضًا أبيض كُتب عليه: «رئيس المجموعة الدعائية العاشرة في مسرح أوكلاهوما». على منضدة صغيرة إلى جانبه كان هناك جهاز هاتف يُستخدم لا شك أثناء السباق، ومنه يحصل الرئيس على جميع المعلومات الضرورية عن المتقدم قبل المقابلة، لأنه لم يطرح بادئ الأمر أية أسئلة على كارل، بل قال لرجل كان منحنيًا إلى جانبه عاقدًا ساقيه ويده على ذقنه: «نِغرو، زار المدرسة المتوسطة الأوروبية». وكأنه بهذا قد انتهى من أمر كارل، الذي انحنى محييًا انحناءة عميقة، فراح ينظر إلى أسفل الدرج، لعل هناك قادم آخر. ولمّا لم يأت أحد، كان يستمع أحيانًا إلى الحوار الدائر بين الرجل الآخر وكارل، وينظر غالبًا عبر ميدان السباق وينقر بأصابعه على الدرابزين. وهذه الأصابع الدقيقة ولكن القوية والطويلة والسريعة الحركة كانت بين الحين والآخر تشد انتباه كارل، رغم أن الآخر كان يشغله كفاية.

«هل كنت عاطلًا عن العمل؟» سأله هذا السيد. كان هذا السؤال وجميع الأسئلة الأخرى التي طرحها، بسيطة وبريئة جدًا، والأجوبة عليها لم تُدقق من خلال أسئلة معترضة؛ وعلى الرغم من ذلك كان هذا السيد قادرًا على أن يسبغ عليها أهمية خاصة، لا يدركها المرء، لكن تخمينها يجعل المرء حذرًا ومرتبكًا، وذلك من خلال أسلوبه في نطقها بعينين مفتوحتين على اتساعهما، ومن خلال مراقبته تأثيرها وهو حاني الجذع، وبطريقة استقباله الأجوبة برأس منكس على الصدر، وبتكرارها بصوت عال من حين لآخر. وقد حدث عدة مرات أن أحس كارل برغبة في التراجع عن الجواب المعطى واستبداله بآخر قد يحقق صدى أكبر،

لكنه كان يضبط نفسه في كل مرة، لأنه كان يعرف مدى سوء الانطباع الذي يولده مثل هذا التذبذب، وفوق ذلك مدى تخلخل تأثير الأجوبة غالبًا. يضاف إلى ذلك أن قبوله بدا محسومًا، ووعيه بذلك قوّى من عزيمته.

عن سؤال ما إذا كان عاطلًا عن العمل، أجاب بـ «نعم» بسيطة. فسأله السيد: «أين كان آخر عمل لك؟» أراد كارل أن يجيب، لكن السيد رفع سبابته وكرر: «آخر عمل!» كان كارل قد فهم حتى السؤال الأول على نحو صحيح، فنفض عن ذهنه لا إراديًا بهزة رأس هذه الملاحظة الأخيرة المربكة وأجاب: «في مكتب». كانت هذه هي الحقيقة، ولكن لو طلب السيد معلومة أدق حول نوع المكتب، لاضطر كارل إلى الكذب. لكن السيد لم يطلب، بل طرح السؤال، الذي يمكن الإجابة عليه بكل صدق وبساطة: «هل كنت راضيًا هناك؟».

«لا»، هتف كارل وكاد أن يقاطعه. وبنظرة جانبية لاحظ كارل أن الرئيس قد ابتسم قليلًا. ندم كارل على طريقته المتسرعة في الإجابة، ولكن كان مغويًا جدًا أن يصرخ بتلك اللا. فطوال مدة خدمته الأخيرة كانت أكبر أمانيه أن يدخل إلى المكتب صاحب عمل غريب ويوجه إليه هذا السؤال. لكن جوابه كان يمكن أن يستجر مثلبة أخرى، إذ كان بوسع السيد أن يسأل الآن، عن سبب عدم رضاه هناك. لكنه سأل عوضًا عن ذلك: «ما هو العمل الذي تشعر أنه مناسب لك؟» كان ثمة احتمال بأن ينطوي هذا السؤال على فخ حقيقي، وإلا ما الغرض من طرحه، مادام كارل قد قُبل كممثل مسرحي؟ ورغم معرفته ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه عن الشرح، بأن يشعر بنفسه لائقًا على نحو خاص لمهنة التمثيل. ولذلك تهرب من السؤال وقال مع خطر أن يبدو معاندًا: «قرأت الإعلان في المدينة، وبما أنه قد ورد فيه أنه بإمكانكم تشغيل الجميع، فقد تقدمت».

«هذا نعرفه»، قال السيد وصمت، مبيّنًا من خلال ذلك أنه مازال مصرًا على سؤاله السابق.

«أنا قُبلت كممثل»، قال كارل مترددًا، كي يُفهِم السيد مدى الصعوبة التي جعله يواجهها بالسؤال الأخير.

«هذا صحيح»، قال السيد وصمت ثانية.

«لا»، قال كارل واهتز كل الأمل بعثوره على عمل، «لا أعرف ما إنْ كنتُ صالحًا للتمثيل المسرحي. لكني أريد أن أبذل جهدي وسأحاول تنفيذ جميع المهمات».

التفت السيد إلى المدير، أومأ كلاهما برأسه، وبدا أن كارل قد أجاب على نحو صحيح، فشد عزيمته وظهره مجددًا بانتظار السؤال التالي، وكان: «في الأصل ماذا كنت تريد أن تدرس؟».

ولتحديد السؤال بدقة –كان السيد دائمًا يهتم جدًا بالتحديد الدقيق– أضاف: «أقصد في أوروبا». وهنا رفع يده عن ذقنه وحركها حركة ضعيفة، وكأنه يريد التنويه في الوقت نفسه إلى أوروبا النائية وإلى عدم أهمية الخطط التي رسمها المرء هناك.

«أردت أن أصير مهندسًا»، أجاب كارل وامتعض من جوابه، إذ كان من السخف، مع كامل وعيه بمسيرته حتى الآن في أمريكا، أن ينعش هنا الذكرى القديمة عن رغبته حينذاك في أن يصير مهندسًا –وهل كان سيصير مهندسًا ذات يوم في أوروبا؟-، غير أنه لم يعرف جوابًا آخر حينئذ، فقاله.

لكن السيد أخذ الأمر على محمل الجد، مثلما يتعامل مع كل شيء، وقال: «حسنًا، مهندسًا لا يمكنك أن تصبح فورًا، ولكن قد يناسبك مؤقتًا القيام ببعض الأعمال التقنية البسيطة».

«بالتأكيد»، قال كارل وكان في غاية الرضا، صحيح أنه في حال قبوله هذا العرض، سيُزاح من فئة الممثلين إلى عاملٍ تقني، لكنه كان مؤمنًا حقًا، بأنه قادر في هذا العمل على أن يثبت جدارته بصورة أفضل. وهو على كل حال، مَن كان يكرر دائمًا بينه وبين نفسه، أن الأمر لا يتعلق إلى حد كبير بنوع العمل، وإنما بالأحرى بأن يثبُت المرء في عمل ما بشكل مستمر.

«وهل أنت قوي البنية كفاية؟» سأله السيد.

«نعم، نعم»، أجاب كارل.

بناء على ذلك دعاه السيد ليقترب منه وتحسس ذراعه. «إنه فتى قوي»، قال السيد وهو يجذب كارل من ذراعه إلى الرئيس. أومأ الرئيس مبتسمًا ومد يده إلى كارل دون أن يقف من وضعية جلوسه المسترخية وقال له: «إذن، فقد انتهينا. في أوكلاهوما سيتم التدقيق في كل شيء ثانية. ليكن عملك مشرِّفًا لمجموعتنا الدعائية!».

انحنى كارل مودعًا، وأراد أن يودع السيد الآخر أيضًا، لكنه رآه قد بدأ يتمشى جيئة وذهابًا على المنصة، كمن أنهى أعماله كليًا، رافعًا رأسه نحو الأعلى. وفيما نزل كارل على الدرج ظهرت إلى جانبه، على لوحة الإعلان الكتابة التالية: «نِغرو، عامل تقني».

بما أن كل الأمور قد سارت وفق النظام المتبع، ما عاد كارل ليندم كثيرًا، لو كان اسمه الحقيقي مقروءًا على لوحة الإعلان. بل لقد كان التنظيم فائق الدقة، فعند أسفل الدرج كان هناك بانتظار كارل خادم، قام بتثبيت شريط حول ذراعه. وعندما رفع كارل من ثم ذراعه ليرى ما المكتوب عليها، قرأ هناك التعبير الصحيح تمامًا «عامل تقني».

وحيثما كان المكان الذي سوف يقاد كارل إليه، فقد أراد قبل ذلك أن يخبر فاني بنجاح الأمور كلها. لكنه أسف عندما علم من الخادم أن الملائكة والشياطين قد سافروا إلى المكان التالي المحدد للمجموعة الدعائية، كي يعلنوا هناك عن وصول المجموعة في اليوم التالي.

«للأسف»، قال كارل، وكانت هذه أول خيبة أمل يواجهها في هذا المشروع، «أعرف واحدة من الملائكة».

«سوف تلاقيها في أوكلاهوما»، قال الخادم «ولكن تعال الآن، فأنت الأخير».

وقاد كارل على طول الجانب الخلفي من المنصة، التي وقف الملائكة عليها قبل حين؛ أما الآن فلا يوجد سوى القواعد الفارغة. كما أن فرضية كارل بأن غياب موسيقا الملائكة، قد يجذب مزيدًا من الباحثين عن عمل، لم تثبت صحتها، فأمام المنصة لم يوجد أي رجال،

سوى بعض الأولاد المتنازعين على ريشة طويلة بيضاء، ربما سقطت من جناح أحد الملائكة. كان أحد الأولاد يرفعها عاليًا، فيما يحاول كل من الآخرين بيد واحدة ضغط رأسه إلى الأسفل والوصول إلى الريشة بالأخرى. أشار كارل إلى الأولاد، لكن الخادم من دون أن ينظر قال: «هيا أسرع، لقد استغرق قبولك وقتًا طويلًا جداً. هل كان ثمة شكوك؟».

«لا أعرف»، قال كارل مندهشًا، لكنه لم يظن ذلك. ودائمًا، حتى في أكثر الظروف وضوحًا، لابد مِن وجود مَن يريد الإساءة إلى أخيه الإنسان. ولكن عند رؤية المنظر اللطيف لمنصة المشاهدين الكبيرة التي وصلا إليها الآن، سرعان ما نسي كارل ملاحظة الخادم. كان على هذه المنصة مقعد كبير وطويل مغطى بقماشة بيضاء، وقد جلس جميع المقبولين على المقعد التالي المنخفض، بظهورهم إلى ميدان السباق، وهناك مَن يشرف على أكلهم وشربهم. كانوا جميعهم مسرورين ومتحمسين. وفي اللحظة التي جلس كارل إليهم، باعتباره آخرهم، دون أن ينتبهوا إليه، نهض كثير منهم واقفين ورافعين كؤوسهم، وقال أحدهم بضع كلمات في نخب رئيس المجموعة الدعائية العاشرة ملقبًا إياه بـ «أبي الباحثين عن عمل». ونبّه أحدهم البقية إلى أن بإمكانهم رؤيته من هنا، وفعلًا كانت منصة الحكام وعليها شخصان مرئية على مسافة غير بعيدة، فرفع الجميع كؤوسهم باتجاهها، وكذلك أمسك كارل الكأس الموجود أمامه. ولكن مهما رفع المرء صوته ومهما حاول أن يلفت النظر إلى وجوده، لم تبدر من منصة الحكام أية إشارة تدل على ملاحظة هذا الاحتفاء الصاخب أو على الأقل محاولة الالتفات إليه. كان الرئيس مستندًا في الزاوية كالسابق، والسيد الآخر واقفًا إلى جانبه ويده على ذقنه. بشيء من الخيبة عاود الجميع الجلوس، وبين الحين والآخر يلتفت أحدهم نحو منصة الحكام، ولكن سرعان ما انشغل المرء كليًا بالطعام الباذخ؛ دواجن كبيرة الحجم، لم يسبق لكارل أن رأى مثلها، وقد غُرِزت شوَك عديدة في اللحم المحمّر، كان الخدم يدورون بها، وآخرون يصبون النبيذ دون توقف في الكؤوس، دون أن يشعر المرء بذلك لانهماكه في صحنه. ومَن لم يرغب المشاركة في الحديث العام، كان بوسعه مشاهدة صور لمسرح أوكلاهوما، كانت مكوَّمة على رأس المائدة ليتم تداولها من يد ليد. لكن الاهتمام بالصور لم يكن كبيرًا، وهكذا حدث أن لم يصل ليد كارل إلا صورة واحدة،

لأنه آخر الجالسين، وحسب هذه الصورة كان لابد أن تكون بقية الصور جديرة بالمشاهدة، كانت هذه الصورة تمثل مقصورة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في المسرح. من النظرة الأولى يمكن للمرء أن يعتقد بأنها ليست مقصورة، بل خشبة المسرح نفسها، إذ كان الحاجز المحدب ممتدًا في الفضاء الحر. وكان في جميع أجزائه مشغولًا بالذهب. وبين أعمدته الصغيرة التي بدت كما لو أنها مقصوصة بمقص رشيق، كانت هناك ميداليات رؤساء سابقين مصفوفة إلى جانب بعضها بعضا، وكان لإحداها أنف مستقيم على نحو لافت وشفتان بارزتان وعينان مطرِقتان بجمود تحت حاجبين مقوسين. ومن حول المقصورة ومن الجانبين ومن الأعلى كانت تنسكب حزم النور، نور أبيض ناعم يكشف مقدمة المقصورة، في حين بدا عمقها مثل فراغ يومض بحمرة داكنة، وراء مخمل أحمر متعدد الدرجات اللونية، منسدل على كامل البرواز بثنيات معقودة بالحبال. كان من الصعب تصور وجود بشر في هذه المقصورة فقد بدا كل شيء هناك متكاملًا بالمطلق. لم ينسَ كارل الأكل، لكنه كان يكثر النظر إلى الصورة، التي وضعها بجانب صحنه.

وأخيرًا كان راغبًا جدًا في أن يشاهد على الأقل صورة واحدة أخرى، إلا أنه لم يشأ أن يأتي بها بنفسه، لأن أحد الخدم كان واضعاً يده فوق الصور حفاظًا على تسلسلها؛ فلم يكن أمامه سوى إلقاء نظرة على المائدة ليرى ما إن كانت إحدى الصور تقترب منه. وعندها لاحظ لدهشته –لم يصدق الأمر للوهلة الأولى أبدًا– بين أكثر الوجوه انحناء فوق صحون الطعام، وجهًا معروفًا جدًا: إنه جياكومو. أسرع إليه هاتفًا: «جياكومو!».

وهذا، خجولًا كعادته عندما يُفاجأ، نهض عن الطعام، استدار في المجال الضيق بين المقاعد، مسح فمه بيده، لكنه فرح جدًا برؤية كارل، رجاه أن يجلس إلى جانبه، أو اقترح أن يذهب إلى مكان كارل؛ فقد أرادا أن يحكيا لبعضهما بعضا كل شيء وأن يبقيا دائمًا متلازمين. لم يشأ كارل أن يزعج الآخرين، ليبق إذًا كل منهما في مكانه، فالأكل سينتهي قريبًا، ومن ثم طبعًا، سيبقيان لصق بعضهما بعضا. غير أن كارل بقي بجانب جياكومو، ليراه فقط. يا للذكريات التي نهضت من أوقات مضت! ما أخبار كبيرة الطباخين؟ ما أحوال تيريزِه؟ جياكومو نفسه بقي على حاله تقريبًا دون تغير في مظهره، ونبوءة كبيرة

الطباخين بأنه خلال نصف سنة سيصير أمريكيًا متين البنية، لم تتحقق، فما زال ناحلًا بخدين غائرين كما كانا، أما حاليًا فهما منتفخان، فهناك في فمه لقمة لحم ضخمة، كان يسحب منها ببطء العظام الفائضة ليرميها من ثم في صحنه. ومن قراءة الشريط على ذراعه عرف أن جياكومو أيضًا لم يُقبل كممثل وإنما كفتى مصعد. يبدو أن مسرح أوكلاهوما قادر فعلًا على تشغيل الجميع!

بدا أن مرأى جياكومو قد أدى إلى شرود كارل وبقائه لفترة طويلة بعيدًا عن مكانه. وعندما أراد لتوه العودة، جاء رئيس المستخدمين ووقف على مقعد عالٍ، صفق بيديه وألقى كلمة قصيرة. وفيما وقف معظم الحضور، دُفِع من بقي جالساً، لعدم قدرته على التوقف عن الطعام، إلى النهوض أخيرًا باللكز. وكان كارل في أثناء ذلك قد عاد إلى مكانه على رؤوس أصابع قدميه.

«آمل»، قال رئيس المستخدمين «أن تكونوا راضين عن طعام الاستقبال. على العموم يعتبر طعام مجموعتنا الدعائية موضع استحسان. يؤسفني اضطراري إلى رفع المائدة الآن، لأن القطار الذي سيوصلكم إلى أوكلاهما سوف ينطلق بعد خمس دقائق. إنها رحلة طويلة في الواقع، لكنكم سترون أنكم موضع رعاية جيدة. وأقدم لكم الآن السيد المشرف على رحلتكم والذي تدينون له بالطاعة».

اعتلى المقعد، الذي يقف عليه رئيس المستخدمين، رجل قصير ونحيل، وما كاد ينحني محييًا بانحناءة خفيفة، حتى بدأ يريهم فوراً بيدين ممدودتين بعصبية، كيف عليهم جميعهم أن يجتمعوا وينتظموا ويتحركوا. لكن أحدًا لم يتبعه، لأن ذاك الذي ألقى كلمة قبل قليل، خبط بيده على المائدة وبدأ بكلمة شكرٍ مطوّلة، رغم ما قيل –الأمر الذي أقلق كارل جدًا– قبل لحظات عن انطلاق القطار قريبًا. إلا أن الخطيب لم يبال، حتى بأن رئيس المستخدمين لا ينصت، بل يعطي المشرف على النقل تعليمات مختلفة، واسترسل الخطيب في كلامه مُعددًا الأطباق التي قُدّمت، مبديًا رأيه في كل واحد منها على حدة، ثم ختم

موجِزًا بنداء: «أيها السادة المحترمون، هكذا يكسَبنا المرء!» ما عدا المخاطَبين مباشرة ضحك الجميع، لكن الأمر كان أقرب إلى الحقيقة منه إلى المزاح.

كانت عقوبة الاستماع إلى هذه الخطبة الآن، هي ضرورة قطع المسافة إلى القطار هرولة. لكن هذا أيضًا لم يكن صعبًا، فلا أحد –لم يلاحظ كارل ذلك إلا الآن– كان يحمل أي متاع؛ قطعة المتاع الوحيدة كانت في واقع الأمر هي عربة الأطفال، التي كانت الآن في مقدمة الفريق، يقودها الوالد وهي تقفز بلا هوادة صعودًا وهبوطًا. ما نوع هؤلاء الناس المعدمين والمثيرين للريبة، الذين اجتمعوا هنا واستُقبلوا بترحاب ورعاية! ولابد أنهم قد احتلوا مكانة خاصة في قلب المشرف على النقل، فتارة يمسك بيده عارضة قيادة عربة الطفل ويرفع اليد الأخرى ليشجع الفريق، وتارة يهرول وراء الصف الأخير حاثًّا إياهم، وتارة أخرى إلى جانب الفريق مركزًا عينيه على المتباطئين في الوسط ملوحًا بذراعيه ليريهم كيف عليهم أن يهرولوا.

عندما بلغوا المحطة كان القطار جاهزًا. وكان الناس في المحطة ينبهون بعضهم بعضا إلى الفريق، كما سُمعَت بعض العبارات مثل: «كل هؤلاء يتبعون إلى مسرح أوكلاهوما!»، فبدا أن مسرح أوكلاهوما أشهر بكثير مما اعتقد كارل، إلا أنه لم يُبدِ في الواقع أي اهتمام بأمور المسرح سابقًا. كانت عربة بكاملها من القطار مخصصة للفريق، وقد زاحم مشرف النقل على الصعود إلى العربة أكثر من مراقب التذاكر، فقام أولًا بتفقد كل مقصورة في العربة على حدة، رتب بعض الأمور هنا وهناك، ومن ثم ركبوا جميعهم. بالصدفة حصل كارل على مقعد بجانب النافذة وسحب جياكومو إلى جواره. وهكذا جلسا أحدهما لصق الآخر وكانا كلاهما في الواقع فرحين بالسفر، إذ لم يسبق لأي منهما في أمريكا أن قام برحلة من دون هموم. وعندما بدأ القطار يتحرك أخذا يلوحان بأيديهما من النافذة، في حين أخذ الفتيان الجالسون قبالتهما يلكزون واحدهم الآخر معتبرين الأمر مضحكًا.

استغرقت السفرة نهارين وليلتين. الآن فقط استوعب كارل مدى اتساع أمريكا. لم يتوان لحظة عن النظر عبر النافذة، كما أخذ جياكومو يزاحم من أجل الرؤية، إلى أن ضاق الفتيان

به ذرعًا في أثناء انشغالهم بلعب الورق، فتخلوا له طواعية عن مقعد النافذة المقابل لكارل، الذي قام بشكرهم، إذ إن إنجليزية جياكومو لم تكن مفهومة بوضوح للجميع. بمرور الوقت، وكما لا يمكن إلا أن يحصل بين ركاب مقصورة واحدة، صاروا أكثر ودًّا، ولكن حتى ودَّهم بات مزعجًا غالبًا، فمثلًا، كلما سقطت من أيديهم ورقة لعب على الأرض، فنزلوا ليبحثوا عنها، كانوا يقرصون كارل أو جياكومو بقوة في ساقه. جياكومو كان في كل مرة يفاجأ من جديد ويصرخ ويرفع ساقه عاليًا، بينما حاول كارل مرة أن يرد برفسة من قدمه، لكنه عمومًا صبر على كل شيء صامتًا. كل ما كان يحصل داخل المقصورة الصغيرة، حتى عندما تكون النافذة مفتوحة، لامتلاء المقصورة بالدخان، كان يتبدد أمام ما يُشاهَد في الخارج.

مضى بهم القطار في اليوم الأول عبر سلسلة جبال عالية. عبر كتل صخرية سوداء ضاربة إلى الزرقة تتطاول متحولة إلى أسافين مدببة كانت تقترب حتى القطار، فيمد المرء رأسه عبر النافذة باحثًا عن ذراها، ولكن عبثًا. ثم تنفتح وديان معتمة ضيقة وكأنها ممزقة، فيرسم المرء بأصبعه الاتجاه الذي ستضيع فيه، وتنحدر سيول جبلية عريضة مثل أمواج عظيمة هادرة على القعر ذي التلال الكثيرة مندفعة في آلاف المويجات الزبدية متساقطة تحت الجسور، التي يمر القطار فوقها، وكان المرء يشعر بقربها إلى حد أن يرتعش وجهه من نفحة برودتها.

* * *

1. الغلاف
2. المفقود أو أمِريكا
3. مقدمة
4. (١) الوقَّاد
5. (٢) الخال
6. (٣) منزل ريفي قرب نيويورك
7. (٤) طريق إلى رمسيس
8. (٥) فندق أوكسيدِنْتال
9. (٦) حالة روبنسُن
10. (٧) ملجأ
11. (٨) مسرح أوكلاهوما الطبيعي